رواية
ELENA Book
فندق المقبرة
"ساعة البرزخ"
ELENA Book
مبارك العريفان
٢٧٠٦٨٢٠٠٥٣

فندق المقبرة

(ساعة البرزخ)

مبارك العريفان

تم إعداد هذه النسخة بواسطة:

✿إيلينا✿

رواية من وحي الخيال.. وربما في بُعد زمني آخر من وحي الواقع..

بعضُها قد حدث في عقل البشر..

والبعض الآخر حدث في ترحالهم..

لكن!

في الأحوال جميعها، احذر الحجز في فندق لا تعلم عنه شيئاً لتجد نفسك في نهاية المطاف نزيلاً في (فندق المقبرة)

للتذكير فإن الذكرى تنفع المؤمنين:

(وإِمَّا ينزَغنَّكَ مِنَ ٱلشَّيطَٰنِ نزغٌ فَٱستَعِذ بِٱللَّهِ إِنَّهُ هوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ).

سورة فصلت، الآية (٣٦)

المعتقدات والمبادئ والآراء خاصة بشخصيات الرواية حتى تكتمل أركانها، تمَّ ذكرها وإضافتها لتوضيح مجرى الأحداث.

المؤلف

إهداء

إلى من لا يكفيها كلمات الحب، ولا يكفيها عضو بحجم قبضة اليد، ولا يكفيها بيت من قافية، فكلي لها وكلها لي، وعلى العهد باقون، زوجتي ورفيقة دربي التي أرى جمال الدنيا من خلف ابتسامتها، شكراً ليدكِ التي انتشلتني من الصعاب جميعها.

المؤلف

أخوكم/ مبارك العريفان

المقدمة

في ليلة خالية من وميض القمر بلونها الأسود العاتم الذي انتشر في الأفق، وفي ثياب العائلة التي فارقها الفرح منذ أن دخل «ماثيو» إلى مثواه الأخير، لبس الرجال الملابس الرسمية السوداء، واعتمرت النساء القبعات المستديرة وفساتين الدانتيل بلونها الأسود حداداً وإعلاناً للحزن.

نزل أفراد العائلة تِباعاً لاستقبال المعزين بوفاة فقيدهم، وتجمعوا في وسط قاعة غرفة المعيشة التي صُفت كراسيها بشكل تدريجي مقابل تابوت مفتوح و«ماثيو» مستلقٍ بوضعية السبات بجسده البارد، مغمض الجفنين بوجه شاحب خال من المشاعر تملؤه مساحيق التجميل.. وبجانب التابوت صورة كبيرة بإطار ذهبي وشريطة سوداء، للشاب الجميل ذي الابتسامة الجذابة المشرقة والنظرة الآسرة، مع ميلان شعره البني والجسد الممشوق المتناسق العضلات، يقف بثبات ويده اليسرى خلف ظهره، وأسفلها تاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة: (السابع عشر من يوليو ١٩٢٦م) إلى (الثالث من سبتمبر ١٩٥٢م) - العمر (٢٦ سنة).

تقدمت العائلة، وحملوا نعش الشاب «ماثيو» على أكتافهم متوجهين إلى بوابة المنزل وهناك موسيقى جنائزية تزيد لهيب الحزن في موقد القلب،

وصل النعش إلى عربة الموتي ذات الخيول الدهماء التي تعبر عن الموقف بجدارة من شدة سوادها الفاحم، وُضِع بهدوء على أطرافها ودفعوه إلى باطنها، وقبل أن يغلق الباب ذا الدرفتين.. صرخت (ماتيلدا) خطيبة «ماثيو» منادية: كيف لكم أن تضعوا أجمل شبابكم في هذا النعش؟ كيف غدت قلوبكم كالصخر؟ أتتركون «ماثيو» وحيداً في هذا الظلام؟

احتضنتها «لورا» والدة «ماثيو» وانهمرت الدموع لتنزل سوداء مختلطة بكحلهما، وكز «سائق عربة الموتي» الخيول بحباله، وانطلق في طريقه، ومن خلفه تتبعه عربة عائلة «فيرنانديز»، مبتعدين عن الطريق المعبّد إلى أن دخلوا في طريق رملي طويل خالٍ من الأنوار، مروراً بقصر أشد ظلمة من حلكة الليل.

من بعد انقضاء فترة من الزمن بان في الأفق غابة من أشجار الصنوبر الكثيفة، متداخلة الأغصان المتيبسة من فعل الزمن.. اخترقت العربات الغابة تحت هدى إضاءة العربات الزيتية إلى أن ظهر القمر الذي كان مستتراً خلف مبنىً قديم يُهيب الناظرين، وقف السائق مقابل البوابة الحديدية المغلقة، وأخرج من جيبه مستندات المتوفى المختومة من بلدية المدينة.

خرج «حارس الفندق» وبيده فانوس زيتي، ثم اقترب إلى موضع «السائق» الذي جهز المستندات ومدها «للحارس»، تفحص «الحارس» المستندات وأعطى الإذن للعربتين بالدخول وأثناء السير ظهر التمثال الضخم للسيد الأنيق الجالس على عرشه.. أخرج الرجال تابوت «ماثيو» بحذر، وحملوه على الأكتاف والنساء من خلفهم بمناديل اختلطت ألوانها من الدموع المصبوغة.

اتجهوا مباشرة إلى المصعد من بعد أن اجتازوا بهو الفندق الذي يضج بصوت سيقان الثواني المذهبة للساعة المُثبتة في وسط عمود البهو.. وكبس أحدهم الزر رقم ستة، رن جرس الوصول للطابق المطلوب، رنيناً متبوعاً بصدىً يرحل بلا عودة في وسط الفراغ، ونزل الجميع قاصدين غرفة رقم ٦٠١.. فتقدم «أليكسندر» والد «ماثيو» وفتح الباب لحاملي التابوت.

في أحد أركان الغرفة وُضِع النعش والسيد (أليكسندر) ينظر إلى ساعته الذهبية المعلقة على معطفه ثم قال: ليس لدينا الكثير من الوقت، حسب إجراءات البلدية أن علينا مغادرة الفندق قبل الثانية عشرة صباحاً، ولم يتبقَّ إلا عشر دقائق..

همّ الرجال باحتضان نسائهم خارجين من الغرفة؛ وبالتالي عبروا بعرباتهم خارج حدوده، وبالمقابل أغلق «الحارس» بوابة الفندق الحديدية، فأحكم إغلاقها بالسلاسل، ثم غادر إلى غرفته خارج المبنى، لترجع السكينة في أرجاء الفندق الذي طغى الظلام على أركانه.

في تمام الساعة الثانية عشرة صباحاً دقت أجراس ساعة بهو الفندق، فتح (ماثيو) باب التابوت، وجلس ينظر حوله بتعجب: أين أنا؟ ماذا حدث لي؟ فحاول أن يتذكر آخر حدث حصل له.. أغمض عينيه، وإذ به ينظر إلى ومضات من ذكريات أخيرة، عندما هوت الفرس بكامل ثِقلها على راكبها، فتحشرجت الروح وضاق النَّفَس، وأغلقت الجفون إلى الظلام الحالك!

الباب الأول

(رحلة الحرية من نار الدنيا إلى لهب الجحيم)

(من أمن عقوبات الدنيا والقدر.. مغفل!)

أحداث مدينة سرقوسة من ٠١ سبتمبر ١٩٥٢م إلى ٠٤ سبتمبر ١٩٥٢م:

يركض بكامل طاقته وفي الوقت نفسه بكامل هدوئه لكيلا يُحدث جلبة تلفت الأنظار لمكانه، لكن الحشائش والأغصان المتيبسة تفضحه متعمدة بسبب دخوله المفاجئ لعالمها وإقلاق سباتها الليلي.. وما زاد وحشيتها هو أظافرها التي تحيك خيوط الدم على جلده، يستمر في الركض، وتستمر الأغصان بالدفاع عن نفسها.

ينظر نظرة خاطفة للخلف، وهو يلهث من الرهب، ليجد أضواء المصابيح اليدوية تخترق الظلام بخيوط متعاكسة، ترحل من اليمين إلى اليسار، فيختبئ خلف جذع شجرة مُعمرة عملاقة.. محاولاً تنظيم تنفسه الذي أصبح ضيقاً حرجاً.

طفا على عقله الأعجوبة التي أدت به إلى هذا المكان، حيث إن «هالو» السجين الهارب من سجون مدينة «سرقوسة» الواقعة في جزيرة صقلية الإيطالية، قد تجرع المُر مرغماً ولا حول له ولا قوة.

وذلك من بعد أن ذاع صيته في الأنحاء بأن محكوميته التي يقضي أيامها في هذا السجن؛ بسبب اغتصاب القاصرات والاتِّجَار في المخدرات، مما سمح للشرطة المسؤولين عن جناحه أن يغضوا الطرف عما يحدث له من انتهاك لعرضه.

السجناء المقيمون مع «هالو» في الطابق نفسه، والذين سوف يقضون معه السنوات العِجاف المتبقية في حياته البائسة قد وضعوا جدولاً لتنظيم تعذيبه ليلاً ونهاراً.. حاول أن يدافع عن نفسه، لكن الكثرة تغلب الشجاعة مع أن «هالو» لا يمتلكها في وقت الشدة والرخاء، ففكر وقدّر، ثم جمع وكسر، فوجد أن الهروب هو الحل، ليس من تأدية العقوبة القضائية، بل هروباً من عقوبات القدر.

حاول أن يعقد صفقات مع سجناء لديهم نية الهروب من هذا الجحيم، لكن كانت المساومة معهم ضرباً من المستحيل، حيث إن طلباتهم كانت أشد قسوة من أفعال باقي السجناء المرابطين حول زنزانته، فقرر أن يكون الهروب من نصيبه وحده، إما الحرية وإما الموت.

بدأ بجمع ما يمكّنه من صنع حفرة في قلب الأرض الإسمنتية إلى خارج أسوار السجن، وقد آلت محاولاته للنجاح..

في ليلة الأول من سبتمبر سنة ١٩٥٢م كان أول هواء نقي من رطوبة الساحل يدخل إلى صدره وهو ينظر إلى ميناء المدينة من أمامه، وسجن الجحيم من خلفه، فوقع في حيرة.. يفتخر بإنجازه؟ أم يبكي للعزة والكرامة اللتين تبعثرتا كذرات الغبار في ليل عاصف!

استغل جنح الليل الذي يظله، ليصل إلى منزل صديقه الربان ذي القارب المهترئ، طرق على زجاج نافذته طرقات خفيفة ليخرج رأس الربان الأشعث الشعر «روبيرتو» صارخاً باللعنات على المزعج الذي أقلق مضجعه.

حكى له «هالو» حكايته على عجل، مما جعل «روبيرتو» يثب وثب الفرسان لينتشل صديقه من نيران العذاب، تحركا إلى القارب متسللين، ومنه إلى وسط الماء، وبجانبهما مدينة سرقوسة بأنوارها الهادئة وريح تداعب شراع القارب، وتدفعه إلى وجهته.

(هالو) ملتحف خرقة بالية لتقلل من ارتجاف عظامه، وبرزت أطراف أصابعه الممسكة بالخرقة، وما زالت آثار الدماء والطين حولها: والآن ماذا؟، (روبيرتو) وهو يوجه دفة القيادة شمالاً: إلى سفينة الشحن، حيث إن انطلاقها بعد دقائق معدودة، ورُبانها يدين لي بخدمة، وآن أوان سدادها.

بمحاذاة الساحل يسبح قارب «روبيرتو» بشموخ العجوز إلى أن توقف بجانب رصيف الميناء، ربط قاربه ونزل يترنح بسبب انتزاعه من حضن النوم، ودخل عبر الممر الخشبي الذي يربط سفينة الشحن بالرصيف على مرأى العُمال، دون أن ينطق أحدهم بكلمة لعلمهم بقبح لسانه.

فتح باب مقصورة القيادة بفظاظة ليظهر وجه الربان الذي استشاط غضباً من قلة احترامه، لكن عندما نظر لمن يقف هناك، ارتخى جسده وتهلل وجهه بابتسامة اشتياق، (الربان): أخي الكبير «روبيرتو» كم اشتقت إليك، أما آن الأوان أن تكون نائبي في سفينة والدنا؟،

(روبيرتو): تركت هذا الشرف لك، أنا

حوت حر، أعشق البحر وجل رزقي منه، لا تربطني مواعيد، ولا أركبه في وقت غضبه.

أردف (روبيرتو) حديثه: حان وقت قضاء الدين، هناك بضاعة في قاربي، وأريدك أن توصلها إلى وجهتك القادمة، على ألا تسأل ما هي، وتغض البصر عنها طوال رحلتك.. من بعد صمت وافق الربان على طلب «روبيرتو» دون نقاش.

تقدم رجلان يحملان صندوقاً فارغاً من الخشب، فأزاح (روبيرتو) الخرقة التي كانت تستر «هالو» ثم قال: اقفز إلى هذا الصندوق، هناك قارورة ماء وخبز يكفيك لمدة الرحلة، إذا توقفت السفينة في الميناء القادم فابدأ مغامرتك للنجاة؛ ومن ثم الحياة الجديدة على أن تكون خالية من آثامك التي لن يطهرها انهمار الماء العذب على بدنك.

وبالفعل وصل «هالو» إلى الميناء بعد انقضاء يومين يترنح في مأواه.

ركل سقف الصندوق بعد أن توقفت السفينة بجانب الرصيف وتحقق أن الليل أسدل ستاره، ومع خروجه من السفينة كان هناك عناصر من الشرطة يبحثون في أرجاء الميناء، ويفتحون الصناديق الواحد تلو الآخر، يبدو أن هناك من نشر المعلومات حول هروبه من سجن سرقوسة.

توارى خلف البضائع، وأصبح الزقاق الذي أمامه لا يبعد عنه إلا بضعة أمتار، فسمع نداء (شرطي) لا يبعد عن موضعه كثيراً: إنه السجين الفار، أطلق قدمه للريح، تارة يقفز من فوق حاويات القمامات وتارة يعدو في الأفق، لم يستره حائط أو ظل عن أعينهم، وكأنهم في ماراثون روما ، و«هالو» شريط النهاية الذي سوف يتوج الفائز بهذا السباق.

الغابة، هي ملاذه الأخير، دخل بكامل انطلاقته رغم ظلامها الدامس الذي زاد وحشة الحدث، رجال الشرطة من خلفه والحُلكة من فوقه، والظلام في الأفق من أمامه، وهناك عِقاب الطبيعة؛ بسبب النباتات والأشجار المتيبسة وكأنهم جنود مجندة تسعى إلى حماية مملكتها من المتطفلين أمثاله.

بعد مرور ساعات من الكر والفر ودخول وقت منتصف الليل، قد تمكن التعب منه، فقرر اللجوء إلى مبنىً يؤويه من شرهم، نعم قد رآه، لكن من شدة الرهبة غض الطرف عنه.

. ثم عاد وسأل نفسه: هل من حل آخر؟، تقدم بخطاً مرتجفة لينظر عن قرب لذلك المبنى الذي لا جار له، يتيم في نهاية الغابة في وادي الظلمات.

كلما دنا تعالت الأصوات حول رأسه: «اقترب.. اقترب»، النفس تحذره من الاقتراب، لكن الوسوسة إغراؤها أكبر.. انقشع السواد الذي يظل المبنى بسبب ضوء القمر الذي أكمل تناسق اللوحة العملاقة.

رفع رأسه لينظر إلى هذه الوجوه، بل العديد من التماثيل على سطح المبنى، على شكل مخلوقات سريالية تنظر وسط عينه بابتسامة انتصار، وكأنها تدعوه ليكون ضيفها وسط نعيم الجحيم السرمدي، لكل نافذة من نوافذ الطوابق العليا شرفة مموجة محمية بحديد أسود متداخل وكأنها خِرق لعباءات ممزقة ملحومة ببعضها ببعض، تعبر من خلالها الريح فتخلق صفيراً يبث الرعب في النفس.

هناك غرفة بجانب البوابة الحديدية المقفَلة بسلسالها المتين، ولوحة حجرية حُفر بداخلها «فندق كازاميلا ١٨٦١م - ١٨٦٦م»، اقترب أكثر فأكثر بخطاً مرتجفة لاختلاس النظر إلى هذه الغرفة، سرير حديدي يذكره بزنزانته، طاولة صغيرة مكدسة بالقوارير الزجاجية لخمور كانت تغمرها، فانوس زيتي لا نور فيه، غرفة ظلماء خالية من البشر.

الأنوار المتداخلة من مصابيح الشرطة بدأت تقترب أكثر لموضعه، ولا مجال للتراجع وإن كانت نهايته مصروعاً من الرعب في «كازاميلا»، لا نية له للرجوع إلى ذل السجن من جديد، تسلق الجدار الذي يكتمل بالحديد الأسود ارتفاعاً، واستوقفه فحيح يخترق طبلة أذنه: «اقترب.. اقترب»، أكمل تسلقه ثم قفز على الأغصان المتيبسة لتقليل آلام السقوط، ظنّاً منه ذلك، لكن كانت النتيجة ألماً أشد وطئاً بسبب اختراق أجزاء منها فخذه.

حسم أمره وتقدم، ليرى العملاق الذي يجلس بتأنق واضعاً رجلاً على رجل وسط عرشه، مما جعل قلبه يتوقف لبضع لحظات قائلاً: التمثال اللعين كاد أن يقتلني..

هرول إلى وسط الحديقة التي احتوت وسطها نافورة لا ماء فيها، لكن امتلأت كذلك بالتماثيل السريالية التي ما زالت تدعوه بابتسامتها الخبيثة إلى وسط المجهول.

بوابة خشبية ضخمة نُقش على مصراعيها أعين كثيرة عشوائية وكأنها ترصد أمثاله من المتطفلين، جزم بأنها تنظر إليه ولا شيء غيره، اقتربت أنوار الشرطة تحارب انتشار الظلام..

وضع يده على مقبض الباب، ثم فتح فرجة صغيرة أدخلت معها خيوط النور، تطير من خلالها ذرات الغبار في أفق البهو.

دقات القلب متسارعة من المجهول المنتظر داخل هذا المبنى وما زادها هو صرير الباب الذي تزايد مع صدى الفراغ، ساهم النور الذي انبثق من فرجة الباب في رؤية أجزاء من بهو الفندق، ثريات كريستالية ضخمة معلقة في سقف تقشرت أجزاؤه، أرائك موزعة على مجموعات لاستقبال الضيوف، يُخيل له أن الجلسة التي من يمينه باللون العنابي، والتي في المنتصف بيضاء تزينت بورود زرقاء فاتحة، والبساط الأحمر ممتد من الباب، إلى وسط البهو لتنتشر الحُمرة في أرضية الفندق.
نظر إلى منضدة كبيرة ينتصفها جرس نحاسي تغلغله الصدى، ثم دخل إلى وسط البهو، هناك صوت يخترق جمجمته، تك تك تك.. عقارب تلهث بعضها
خلف بعض إلى ما لا نهاية، ساعة خشبية معلقة على عمود البهو، يظهر منها دائرة الوقت المخطوط بالخطوط اللاتينية، ومن خلفها زجاج ملأه الغبار.

الكثير من التروس المتعاضدة خلف الزجاج تعمل بلا كلل أو ملل، يتدلى من نهاية الساعة سيقان الثواني المذهبة التي تتحرك يمنة ويسرة مخلفة صوت التكتكة المنافية لكل أنواع الهدوء والراحة النفسية، حتى وإن كان الفرد في سكون وسلام، فإنها مسؤولة عن إقلاق راحته، فمن صنع هذا العقاب الأبدي، أرجو أن يعيشه في حياته وفي مماته!

تحركت عينه في الأرجاء وزوايا البهو لينظر إلى خيوط العنكبوت المنسوجة بكل مكان وهناك من كانت تغزل بعناية بيتاً جديداً،

إلى أن وصلت عينه إلى مصعد مُؤمّن بحديد متشابك بطريقة هيدروليكية، وقع ناظراه على الغرفة التي تلت المصعد كُتب في منتصف الباب: «غرفة المدير»، وضع يده على المقبض، والأفكار كلها التي تنتابه ترمز إلى «الأرواح الشريرة».

أرواح تتوسط الغرفة في مجلس شورى سوف تنتقل أعينهم لهذا البشري الذي قاطعهم في منتصف اجتماعهم الأسبوعي.. خاب ظنه فكانت غرفة خالية تنتظر مديرها.

دخل يبحث عن نور يبدد الظلام من حوله فوجد شمعة وبجانبها أعواد الثقاب، بان مع اشتعال فتيلها سِجل كبير احتل وسط المكتب الذي انتشر خلفه الكثير من الكتب المصفوفة على رفوفها وبهت لونها.

جلس على المقعد فسمع إلى صراخ فقرات ظهره المتلاصقة من شدة التعب، كانت هناك قارورة لا يعلم ما تحتويه، هل هو سم زعاف أو ماء أم دواء منتهي الصلاحية، لكن الظمأ جعله يفتح غطاءها ليتجرع ما فيها بنهم، فأحرق حلقه واشتعلت معدته بهذا الخمر المعتق.

وضع يده ليتفحص السِّجل ذا العنوان «نزلاء فندق المقبرة» ومع فتح السِّجل سمع صوت باب الفندق يُفتح وهناك أنين يتبعه، حاسة السمع تفعّلت على أقصاها، اقترب صوت الأنين أكثر فأكثر والخطوات تتزايد.. أطفأ الشمعة ممسكاً فتيلها بإصبعيه ثم وثب إلى خلف الكتب ضامّاً ركبتيه، وما شغل باله، وأربك جميع معادلاته لماذا الشرطة الذين يلحقون به يبكون بأنين؟!

دخلوا إلى المصعد، وانكتمت الأصوات من حوله.. وبعد دقائق انهالت بها قطرات العرق من جبينه، رجع صوت الخطوات والأنين.. ابتعد الجمع عن المحيط، لكن هناك من أبدل رأيه، وقرر أن ينهي قصة «هالو» مع الحرية المؤقتة.. انفتح الباب ودخل نور الفانوس قبل صاحبه، جلس على الكرسي، ثم اشتم الرائحة من حوله، وبعد دقائق انهالت بها قطرات العرق من جبينه، رجع صوت الخطوات والأنين.. ابتعد الجمع عن المحيط، لكن هناك من أبدل رأيه، وقرر أن ينهي قصة «هالو» مع الحرية المؤقتة.. انفتح الباب ودخل نور الفانوس قبل صاحبه، جلس على الكرسي، ثم اشتم الرائحة من حوله، وبعد لحظات فُتح السجل الكبير، وبدأ القلم يداعب الأوراق.

أغلق دفة السِّجل، ثم حمل النور بين يديه ومع إغلاق الباب هناك زفرة حارة حارقة خرجت من جوف «هالو»، وآخر الأصوات كان صرير الباب العملاق ذي العيون الراصدة.. جلس خلف المكتب، وفتح السِّجل على آخر صفحاته التي لم يجف حبرها بعد ونظر إلى ما خطّه القلم: النزيل الجديد في غرفة رقم ٦٠١ «ماثيو فيرنانديز».

ما هذا الهراء، هل هناك نزلاء في هذه المقبرة؟!، تركه مفتوحاً ونظر من حوله لعله يجد ما يسد رمقه، ويعيد طاقته ليكون مستعدّاً في حال باغته رجال الشرطة مجدداً، هناك كتب وخزفيات موزعة في المحيط ومرآة معلقة على الحائط الذي أمامه، ولا يوجد طعام، نظر إلى الكتب التي غزاها الغبار ما عدا التي تقع خلف المكتب مباشرة، اقترب أكثر لينظر إلى عناوينها:

- عائلة دامبيير. (الطابق الثاني)
- عائلة لاسيردا. (الطابق الثالث)
- عائلة آلفونس. (الطابق الثالث)
- عائلة أراغون. (الطابق الرابع)
- عائلة بورجيا. (الطابق الرابع)
- عائلة بوربون. (الطابق الخامس)
- عائلة فيرنانديز. (الطابق السادس)

وهناك الكثير غيرهم، لكن ما شدّه هو الكتاب الأخير الذي وُضع مقلوباً عن البقية، سحبه وقرأ عنوانه: «فندق المقبرة وأحداث ساعة البرزخ»

جلس على الكرسي ووضعه على سطح المكتب.. صدحت في الأرجاء دقات الساعة التي أعلنت موعد دخول منتصف الليل، فتح الكتاب على أول صفحة.. لكنَّ هناك أصواتاً غريبة!

إنها في تزايد مستمر، وقع بصره على سقف الغرفة، هناك خطوات وأبواب تفتح وتغلق والكثير من الحديث الذي لم يفهم منه شيئاً البتة بسبب الحوائط الخرسانية، بدأ المصعد بالتحرك صعوداً، توقف في أحد الأدوار لبضع دقائق، ثم نزل إلى الطابق الأرضي، المحادثات زادت، إنهم.. إنهم نزلاء بالفعل، لكن كيف؟!

يبدو أن هناك حفل استقبال والجميع في فرح يهللون بالقادم الجديد، موسيقى في الأنحاء بدلت حال الرهب إلى شعور جميل، غمرته الرغبة في مشاركتهم لعله يحصل من الماء والطعام ما ينسيه عناء الهروب، أما مرارة السجن فلا تُنسى أبد الدهر.

تساءل (هالو): لحظة! لماذا الجميع توقفوا فجأة؟، هناك من يقترب للغرفة.. زاد عدد المتجمهرين بقربه، الحديث تغير من التهليل إلى النزاع، اقترب من الباب أكثر، ووضع أذنه لكي يسمع بوضوح أكبر..

(نزيل): أجزم أن هناك بشرياً في هذه الغرفة، وأريد أن أحصل على قطع غيار لجسدي!، (نزيلة): بل أنا أريد عينه اليمنى، فقد طال انتظاري كل هذا الوقت، ولم يفدني أحدكم في حالتي العوراء تلك!، (نزيلة تكبرهما بالسن): آن الأوان لتغذية شعري بِخصل جديدة!

ابتعد عن الباب لينظر من حوله، ثم صفع نفسه قائلاً: هل أنا في كابوس، متى أستيقظ؟!، لم تكتمل أسئلته حيث إن النزلاء فتحوا الباب بوجوه شاحبة خالية من الدماء مشوهة، وملابس كانت فيما سبق للأغنياء، لكن أكل منها الزمن وشرب ومزق أطرافها، ليلتفوا حوله بوجوه ضاحكة مستبشرة!

الباب الثاني

(حفل الاستقبال)

(يولد الإنسان ثلاث مرات، بعد لزوجة الرحم، وحين يحب لأول مرة، وحين يعشق من يستحق حبه..)

أهلاً بالنزيل الجديد - فندق كازاميلا في ٠٤ سبتمبر ١٩٥٢م:

وميض الذكرى الأخيرة «لماثيو» انقطع عندما طُرق باب الغرفة رقم ٦٠١، فتح عينيه ونظر من حوله وإذ بمجموعة توابيت مصفوفة في أنحاء الغرفة وجميعها مفتوحة، (متحدث من خلف الباب): السيد «فيرنانديز» هل تسمح لنا بالدخول؟ قام «ماثيو» من تابوته، وعندما نظر إلى موضع مبيته أصابه الفزع!

فُتِح الباب، ودخلت (سيدة بعمر الأربعين) بملامح خلابة، لكن باهتة ذات وجه شاحب وشعر بُني مصفوف إلى الأعلى بطريقة غير مرتبة بسبب خصل منزلقة على وجنتيها وملابس أنيقة على خصر ممشوق، ولكنها قديمة بالية مقطعة الأطراف: أهلاً بك عزيزي «ماثيو» يشرفنا انضمامك إلى عالمنا هناك من ينتظر بفارغ الصبر «كانت تتكلم بطريقة سريعة ومعرفة تامة بما سوف يحدث»، هيا بنا لا تطل الأمر..

نظر إليها فاغراً فاه، ثم قال مندهشاً: أنتِ، كيف؟!

مسكت يده، وجرته من خلفها على عجل، ثم خرجا من الغرفة، اتسعت عيناه للمنظر الغريب من أمامه، كان هناك جنود باللباس العسكري الأزرق صافّين على حوائط الممر متقابلين والسيوف متجهة إلى الأعلى

ومقبض السيوف على أنوفهم بيد مندسة داخل القفازات البيضاء الباهتة والمشققة وكأنهم مستعدون لموكب الملك.

وبمجرد خروج «السيدة» و«ماثيو» من الغرفة أنزلوا سيوفهم، وضربوا بأرجلهم ضربة مدوية على الأرض، ورفعوها مرةً ثانية تحيةً «لماثيو» النزيل الجديد، وما زالت «السيدة» تجر خلفها «ماثيو» الذي ارتسم البله على محياه إلى أن وصلا إلى آخر الممر تحديداً في ردهة المصعد.. الذي وصل وفُتحت أبوابه، ثم ولجا في قلبه، وكبست «السيدة» رقم واحد.

انفرجت أبواب المصعد في ردهة الطابق الأول وكان الجميع في الانتظار بوجوه هادئة، وحين خروجهما من المصعد تهاوت الصيحات والتصفيق الحار «لماثيو» وما زال الآخر في وضعية الاندهاش متسمراً مكانه..

حينها تقدم إليه مجموعة من الرجال الأثرياء حسب هندامهم الباهظ الثمن والساعات الذهبية المتدلية من سلاسلها المعلقة بمعاطفهم، وأحد هؤلاء الرجال كان في سن النضج الرابعة والأربعين مصفوف الشعر الأسود الدهني وما جمّله، الشعيرات البيضاء على جانبي

رأسه، مبروم الشارب وعلى إحدى عينيه وضع نظارة أحادية مسندة على خده وحاجبه،
ويده اليسرى خلف ظهره، مادّاً يده اليمنى «لماثيو» ليصافحه بشموخ قائلاً: أهلاً بك يا «سيد فيرنانديز» إلى عالمك الأبدي الجديد، قال (ماثيو): أنت، كيف؟!

تقدم مجموعة من النساء الجميلات الضاحكات ومسكن يدي «ماثيو» مهرولات بدلال إلى قاعة الطابق الأول وإذ بها قاعة ضخمة متدلية الثريات الفخمة تجمّع بها حشد لا بأس فيه من البشر المتأنقين، ولكن بوجوه شاحبة مبتسمين.

تقدمت (إحدى النساء) إلى «ماثيو» بلباس الأميرات، فقال في خلده: هل تتلألأ بسبب حليها أم بسبب جمالها المرصع بعينين زرقاوين وقالت هي: أتسمح لي بشرف الرقصة الأولى؟

رد (ماثيو) بتلعثم: نعم بالتأكيد.

مسكت يده لتضعها على خصرها، ومسكت يده الأخرى استعداداً للرقص، ثم أومأت إلى الفرقة المبتسمة لتبدأ أوتارهم بإرسال الذبذبات إلى الآذان، ومنها إلى القلوب.

كوّن الحشد دائرة كبيرة تحت الثريا العملاقة ليسمحوا بتمايل أجساد «ماثيو» ورفيقته مع نغمات العازفين، وأثناء الرقص لصقت خدها البارد على خده وهمست بأذنه: سوف تعتاد هذه الأجواء الخلابة قريباً، وسوف أجيبك عن الأسئلة المعتادة.. أنت الآن ميت!

شهق «ماثيو» وتوقف ميلان جسده، فأجبرته على الاستمرار بغنج وقهقهة خجولة، ثم أكملت: أنا «صوفيا.

قال (ماثيو): أعلم من أنت «صوفيا دامبيير.

أومأت (صوفيا) وأردفت: من المؤكد أنك تعرف العائلة، كنا نملك هذا الفندق منذ قديم الزمان، والآن يملكه «المدير وزوجته» التي اتخذت لنفسها منصب «المديرة» كذلك.

(صوفيا): نعم أنت في فندق المقبرة المخصص لموتي النبلاء الذي كان يسمى سابقاً «فندق كازاميلا» كما تعلم..

فبدأت الموسيقى تأخذ منحنىً رومانسيّاً مما جعل الرجال يجذبون أيادي نسائهم إلى وسط الدائرة لتموج أجسادهم بانسيابية مع إيقاع اللحن، وأكملت (صوفيا): كل يوم نجتمع داخل أسواره لنحتفل ونتسامر منذ دقات جرس «ساعة البرزخ» المعلنة عن دخول منتصف الليل، ونرجع إلى توابيتنا ملتحفين السواد قبل شروق الشمس.

سأل (ماثيو): منذ متى وأنتم هكذا؟

ردت (صوفيا): سوف تعرف كل شيء في وقته، الآن استمتع بالحفلة المعدّة خصيصاً لاستقبالك.

صرخ (أحدهم): توقفوا جميعكم الآن!

فتسمر الجميع مكانهم، وتوقفت الفرقة عن العزف!

قال (براين): عين «إزابيل» اليمنى سقطت، إياكم ودعسها تحت أقدامكم.

نزل الجميع حبواً للبحث عن العين المفقودة وأثناء البحث و(ماثيو) ينظر إلى هذا الحدث الغريب متسائلاً: عين مفقودة؟!

صاحت الطفلة (هايدي) بصوتها الطفولي: وجدتها،
ثم انتشلتها بقبضتها وركضت في الأرجاء، وذهب خلفها «براين» محاولاً اللحاق بالطفلة «هايدي» قبل أن تضع العين بفمها مثلما فعلت سابقاً.
عندما مسك «براين» الطفلة «هايدي» من بطنها، ورفعها عالياً وباليد الأخرى حاول أخذ العين من قبضتها، نظر «ماثيو» لـ«هايدي» الشقية وإذ بها طفلة شاحبة بعيون خضراء باهتة، بشعر أسود مصفوف بضفيرتين ومفروق الوسط؛ بسبب جرح مَخِيط بالخيوط الجراحية غير القابلة للامتصاص ممتدٍّ من الجبهة إلى بداية الرقبة الخلفية.
تقدمت «إزابيل» بسرعة وأمسكت يد «هايدي» الضاحكة، وفتحتها لترجع عينها مرة أخرى لمحجرها، صفق الجميع ومن بينهم (ماثيو) بطريقة آلية محدثاً نفسه: هل أنا في مستشفى المجانين؟!

«هايدي» لم تقبل أن تضيع غنيمتها، وأخذت تضرب بقدميها الأرض اعتراضاً على أخذ العين التي أصبحت من ممتلكاتها،

غادرت الحفل متجهة من خلال السلالم إلى الطابق الأرضي، ركلت كل شيء اعترض طريقها إلى أن التوى إصبع قدمها، فتوقفت بجانب إحدى الغرف، وأمسكت الإصبع الملتوي بكلتا يديها محاولة إرجاعه لموضعه السابق، فتعالى في الأفق صوت فرقعة العظم المكسور.

رائحة داعبت أنفها الصغير، فتحت عينيها على مصاريعهما، (هايدي) مع ابتسامة خبيثة: يوجد بشري في هذه الغرفة، وضعت أذنها لتسترق السمع، نعم أسمع دقات هذا القلب النابضة بالحياة، ذهبت راكضة إلى الطابق الأول لتقف على منصة الفرقة الموسيقية، وتصرخ بكامل طاقتها: لدي ما أقوله، اصمتوا يا حمقى!

وقف المتراقصون، وتوجهت وجوه الجميع إلى الطفلة الشقية التي لا يأتي الخير من ورائها، (هايدي) وحاجباها نزلا على عينيها علامة على الخبث: هناك بشري في غرفة المدير.

تزاحم الجميع على المصعد وهناك من همّ راكضاً إلى السلالم المؤدية إلى الطابق الأرضي وفي لمح البصر أصبح الجميع مقابل غرفة المدير.

توجهت «زوجة المدير» إلى مقبض الباب، فمسكت ذراعها (إحداهن) راجيةً: أريد عينه، ونطق (الآخر) معتصراً ثوبها: وأنا الشعر، فوجهت (المديرة) نظرها إليه: الشعر لي يا أحمق.. (هايدي) تسحب أسفل ثوبها لكي تهمس بأذنها،
نزلت «زوجة المدير» لتسمع طلبها: أرجوك أريد أن ألعب بقلبه قبل أن قبل أن يتوقف عن الحراك، شعرت «المديرة» ومن معها بدنو البشري من الباب.

دخلت «المديرة» ومن خلفها الجميع معتصرين الباب متدافعين مع تراجع «هالو» الذي يندب حظه، ويضفع نفسه متمنياً أن يكون في وسط كابوس يمكن أن ينتهي مع فتح جفنيه، لكن ما يخوضه ليس بكابوس، بل أسوأ من ذلك..
نظر (مدير الفندق) إلى ساعته المعلقة في معطفه ليخبرهم: عجّلوا وأنجزوا حيث إن الساعة قاربت وقت شروق الشمس ولا برزخ لكم غداً إلا مع حصد روح هذا البشري الثمين!

يتراجع «هالو» للخلف وكأن هناك مفرّاً، ويتقدم الحشد بتدافع بأيادٍ متطاولة لجذب ما يمكن كسبه من هذا الكائن الممتلئ بالخيرات، ومن تحتهم تحبو «هايدي» عابرة من بين أقدامهم لتكون في لمح البصر أول الواصلين إلى «هالو» فتسلقت على ملابسه لتتقابل مع الفريسة وجهاً لوجه، ومع انحناء رأسها بدلال وابتسامة عذبة، خطفت عينه اليسرى من محجرها لتضعها في فمها، وتهرب مهرولة خارج الغرفة، ليكمل الباقون ما بدأته.

لم يستطع «هالو» الصراخ أبداً، لأن أحدهم باغته من بعد «هايدي» واقتلع لسانه، فتدافع الجميع لاغتنام ما يمكن الحصول عليه، لتخرج روح «هالو» وهي تنظر إلى القالب الذي كانت تحتله قبل برهة، كيف غدا بين رمشة عين وانتباهتها أجزاءً متناثرة في أيدي المتجمهرين على جسده.
كادت الروح أن تصعد إلى السماء مودعة هذه الأرض والحياة الأليمة، لكن هناك عامل جذب أقوى ناحية بهو الفندق، تكررت المحاولات للصعود، لكن الجذب أصبح أقوى وأشرس.

خرجت مخترقة الحوائط الإسمنتية إلى وسط البهو ومقابل العمود، عقارب الساعة المتدلية السيقان تنظر إلى الروح التي غدت تائهة مسيّرة لا حول لها ولا قوة.. فُتح الباب الصغير فوق الرقم الثاني عشر، لتخرج الأيادي السوداء ممسكة الروح من تلابيبها، تجرها إلى داخل الساعة مرغمة، لتدخل بحجمها الكبير في هذا الثغر الصغير مع الكم الهائل من الأيادي السوداء التي تسحب بكل ما أوتيت من غضب.

جسد «ماثيو» ينتفض لا إراديّاً، رفع رأسه فنظر إلى النزلاء المتجمهرين الذين ينظرون بشغف إلى عملية امتصاص الروح، ثم نظر «ماثيو» لكلتا يديه اللتين كانتا تنتفضان بقوة، فخرج منهما يدان أصغر من يديه كالظل الأسود، وما أن أغلق باب الساعة إلا وهمد جسده، واستقرت يداه واختفى الظل!

أغلقت الساعة أبوابها التي دنت عقاربها من إعلان وقت شروق الشمس، ليتحول الفندق من أغنياء شاحبين إلى جراد منتشر، يهرعون نحو الموت، قاصدين مخادعهم..

توابيت تحتويهم حتى الوقت المعلوم بابتسامة راضية، هناك روح جديدة دخلت في رصيد «ساعة البرزخ»، إذاً هناك غد وهناك حياة.. ومع إغلاق باب تابوت (المديرة) قالت مخاطبة أحدهم: لا نقول وداعاً، بل إلى اللقاء القريب يا من سرقت قلبي وأنا راضية، أحبك إلى الأبد.

الفندق الذي أرهب البشر ليلاً، ما أجمله حين يداعبه شعاع الشمس في الصباح، لا بد أن يسرق نظراتك بسبب جمال تموج حائطه الذي يحمل على قمته تماثيل مبتسمة مرحبة بكل من يمر بجانبه.. فُتحت بوابة السور ليدخل «الحارس» يسير بخطاً ثقيلة بسبب قلة النوم، وكثرة السُّكر الذي يسري في دمه، يمر بمحاذاة النافورة التي أصبحت في الوقت الراهن مستنقع طحالب وثكنة للضفادع النقاقة، وها هو أحدها يقف على رأس تمثال من تماثيل النافورة السريالية الذي يمثل وجه امرأة يخرج من رأسها كفان يسعيان جاهدين إلى أن يفتحا رأسها.

يسير «الحارس» بمحاذاة التمثال الضخم للرجل الجالس، رفع قبعته دون أن يقف تحيةً له، ثم أكمل طريقه إلى العيون الراصدة المنحوتة على بوابة مدخل الفندق، وكما هي العادة بعد أن سار على البساط الأحمر توقف مقابل عمود الساعة التي تحتل المنتصف، لينظر إليها بشغف لا يعلم مغزاه إلا هو.

بعد أن وزع أنظاره في الأفق، اتجه إلى غرفة أدوات النظافة ليحمل السطل والمنشفة، ويبدأ مرحلة ترتيب وتنظيف الطابق الأرضي؛ ومن ثم أنحاء الفندق، وجد بعض المفقودات الخاصة بنزلاء الفندق، ومنها وجد عين «إزابيل» التي هرعت إلى تابوتها، دون أن تلتقط عينها الدائمة السقوط مع أقل اصطدام، أو أن «القردة هايدي» قد تعمدت إسقاطها لتلوكها بفمها!

أخذ العين، ووضعها في غرفة «إزابيل»، ثم اتجه إلى غرفة مدير الفندق، وهو يحمل بيده شوالاً فارغاً، فتح الباب ليجد الدماء قد رسمت لوحة مبعثرة في أرجاء المكان، حمل الأشلاء تباعاً، ليضعها في الشوال، ولم ينسَ الملابس المقطعة التي تحمل شعار سجن سرقوسة.

فتح باب القبو لينزل بطريقة آلية وسط الظلام لا صوت إلا صوت خطواته التي ترحل قبله في الأفق، مروراً بتوابيت مصفوفة بعناية، إلى أن وصل إلى باب حديدي في وسط الحائط ذي مقبض كبير، فتحه ليجد نار الفرن قد سُعِرت، رمى الشوال في وسطها، ثم أغلق الباب، وعاد إلى تنظيف الغرفة عن بكرة أبيها على أمل أن يجد الفندق في الليالي القادمة أنظف من هذا الصباح المتعب!

نظرة شمولية في أرجاء المكان، ثم أغلق الباب من خلفه..

يسير بخطاً متثاقلة إلى غرفته بجانب بوابة السور، دخل ليجد قوارير الخمر مملوءة بالسم الذي ينسيه كَبد الذكريات التي أرهقته، لكن النسيان المؤقت في هذا اليوم فقط، وغداً لا بد للذاكرة أن ترجع إلى وهجها لتظهر ذكرياته مجدداً تسكب في جوفه المزيد من الحزن والألم.

بجانب قواريره هناك ورقة فوقها قوقعة لكيلا تذهب بها الريح إلى أفق غير معلوم، سحبها ثم استلقى على السرير:

«محتوى الرسالة»

«عزيزي مدير الفندق، حارسه، ملاكه.. أرجو أن تكون بخير، ولا أظن ذلك!

اشتقت إلى احتضانك بين أضلعي، اشتقت لرائحة شعرك وأنا أسرحه قبل نومك، اشتقت لقربك بين يدي وعيني وقلبي، ما زلنا ننتظر الأجل ليجمعنا في يوم من الأيام»

ملاحظة:

لا تكثر من شرب الخمر، فيذهب بما تبقى من عقلك وقلبك الجميل.

ذُيِّل أسفل الرسالة:

"الوافية لقلبك في الحياة الدنيا والبرزخ اللا نهائي».

الباب الثالث

(خلف كواليس العالم)

(سقط في الهاوية بكامل سعادته، بسبب ضوء شمعة وكتاب..)

حدث في عام ١٩١٦م:

فَتح فُرجة من باب غرفته المظلمة لينظر في الأنحاء نظرات خاطفة، ويتحقق من أن الجميع قد دخلوا في سبات عميق، أغلق الباب مسنداً ظهره عليه ليستجمع شجاعته، ثم أخذ الشمعة وأعواد الثقاب، فوضعها في قلب اللحاف الذي طواه ثم وضعه تحت إبطه، فتح الباب مجدداً، ثم أخرج قدمه بخطواته الأولى خارج الغرفة، مستلهماً النور من شمعدانات موزعة بين أركان المنزل.

أخذ أكبر كمية من الهواء ليكتمه في جوفه، ثم نظر بطرف عينه إلى باب قد ستر أسوأ كوابيسه على أمل على أمل ألا يُفتح اليوم، وبالأخص اليوم الذي سوف ينجز فيه العمل الذي لطالما انتظر ليكمله، وصل إلى السلالم اللولبية في وسط المنزل، تسلق سلالم الظلام مستعيناً بذاكرته.

وصل إلى الطابق الأول، فوثب مبتعداً عن خشب الأرضية المتهالك الذي لطالما أصدر صريراً ينبئ بوقوعه في الفخ، فخ إعلان وجود أحدٍ في الطابق الأول، بينما الجميع في سبات، تخطاها واتجه بزفرات حارة تنزل معها قطرات من جبين مُندّىً، وصل إلى وجهته المرتقبة، فتح الباب بهدوء، ثم تسلل إلى الغرفة التي لا يظهر منها إلا اللون الأسود.. لون الظلام المقدس.

وضع اللحاف، ثم مرر عود الثقاب على الحائط مولداً شرارة بددت السواد بلهيب يحارب هذا الظلام وحده، أشعل الشمعة التي بين يديه، فظهرت الكتب التي استوت على رفوفها بشموخ والسلم الخشبي المسند الذي يسهل التقاط الكتب من الرفوف العليا، مكتبة ضخمة احتوت في قلبها عوالم من كل علم وقصة، اتجه إلى مكتب في زاوية المكتبة الضخمة، ثم أخرج مفتاح درج المكتب الذي سرقه من والده على حين غرة.. قطرات عرق، ارتجاف اليدين، وكأنه سوف يواجه الحكم بالإعدام.

أغمض عينيه وعاد مستوى التنفس إلى الطبيعي، أكمل عمله وفتح الدُّرج ليخرج كتاباً باهتاً يميل إلى الصُّفرة متآكل الأطراف، جلس بجانب المكتب مسنداً ظهره عليه مع تغطية رأسه باللحاف..

وضع الشمعة بالقرب منه، ثم فتح الكتاب بلهفة متجهاً إلى آخر موضع قراءة مثبت بريشة طاووس خلابة، مع أول فقرة قرأها سقط في هاوية عالمٍ محبب إلى قلبه، رجعت الذكريات التي يرجو في قرارة نفسه أن يعيشها مجدداً، بالتحديد قبل سنة من الآن، في عام ١٩١٥م عندما كان في الجبال الشاهقة وهو في التاسعة من عمره، حين يغيب جزء كبير من الأكسجين؛ مما يسبب دوار المرتفعات بين الفينة والأخرى، وتتجمد أطراف الجسد عند مغيب الشمس، الثلج يغطي جزءاً من المرج والجزء الآخر جميل المنظر بخُضرة غطت الأفق، منظر متناقض الفصول، لكنه مقبولٌ في هذا المكان بالذات.

كان وقتها يخرج من كوخه آمناً مطمئنّاً يسير بغير هدىً، فالطرقات كلها جميلة، ولذلك سمي الطريق السماوي، تحت قدمه الثلج والزرع في بقع متفرقة، ومن فوقه السماء يكاد يلمسها بأطراف أصابعه، مع مرور الخيول الحرة والثيران المكسوة بالفراء الثقيل والنسور تحلق فاردة أجنحتها ملء الأفق.

في كل صباح هناك الكثير من البشر منتشرون من حوله في سرب من العاملين، هناك من يزرع، ومنهم من يرعى أغنامه، والنساء المنتجات يعملن بلا كلل أو ملل في صنعة لبوس من الصوف الطبيعي والعمل على استخلاص منتجات الألبان الطبيعية اللذيذة، والثرثارات رغم أنهن يتحدثن جميعهن في وقت واحد، إلا أن هذا الطنين لا يستثنيهن من العمل المشترك في تنظيف الملابس على ساحل البحيرة العملاقة التي تعكس شعاع الشمس، وتعكسه هو بذاته وهو يرتب شعره الأسود، ثم يرتشف من مائها ليزيد انتعاشاً وسعادة.

وصل إلى وجهته.. المعبد الضخم الذي تجمّل بقوالب الزهور التي تحيط مدخله وأيضاً شرفات الطوابق من الاتجاهات جميعها، وهناك السقف الذي نُحت على أركانه التنين الغاضب، وقوالبه ذات ميلان يظهر درجات اللون الذهبي مع انعكاس الشمس عليه وهناك الأبراج الحمراء المزخرفة في منتصف كل سقف تقف بشموخ.

وقف متأملاً هذه الأيقونة الذهبية المزخرفة بالسجاد الأحمر والأسود المعلق على حيطانها الداخلية، لكن ما دمر هذا التأمل ضربة مؤلمة على رأسه لتخرج صرخة الألم بغضب، بردة فعل طبيعية، لكن غير مقبولة في هذا المكان؛ ولذلك توالت الضربات في أنحاء جسده.

المعلم (تشانغ) بغضب: «ريكي» الشقي لماذا لا تدخل لتكمل تعليمك يا ولد؟..

ارتعدت أوصاله عندما علم أن صاحب الضربات هو كبير المعلمين لأكبر معابد التبت «معبد جوكهانغ» حمل حذاءه تحت إبطه، وركض إلى الداخل ليلتحق بالدرس الأول الذي لم ينجزه إلى الآن، وهو تأقلم الجسد بأحوال الطقس والمرتفعات الشاهقة، جلس مع مجموعة كبيرة من الصبية، ووضع يديه على ركبتيه ثم سحب أكبر كمية من الهواء، وزفره بهدوء لكي يدخل إلى حالة الاسترخاء وتدريب رئته على اكتساب أكبر قدر ممكن من الأكسجين.

السبب الأول والأخير الذي يجعله يرسب دائماً في هذا التدريب هو عدم مقدرته على الانسجام مع هذا التأمل والسكون المحيط من حوله، مجموعة صبية جالسين جلسة التربع مستقيمي الظهر بعيون مغلقة، لا ينجزون شيئاً ما عدا التنفس والتأمل.

يفتح طرف عينه لينظر من حوله وهذا ما يدخل الدغدغة إلى عقله، ثم تظهر القهقهات المكتومة على فمه لا إرادياً، هل يستطيع السكوت؟،

لا أظن فالمنظر من أمامه يدعو للضحك الهستيري الذي لا يمكن أن يتحكم به، لكن العواقب بعدها وخيمة ومؤلمة جدّاً، راسخة في الذاكرة أبد الدهر.

وعلى يد كبير المعلمين بلحمه وشحمه، المعلم «شانغ»، الذي يتلذذ بالجلوس في فناء المعبد والآخر يقف من أمامه بما يستر عورته فقط، وبين الفينة والأخرى يضب الماء البارد على رأسه، وإذا نطق بحرف، انتقل إلى العقاب التالي الذي لا يريد حتى أن يتذكره من شدة آلامه النفسية قبل البدنية.
انتهى من عقابه، ثم رحل إلى تنظيف المعبد مع بقية الصبية، وهذا يعتبر من ضمن التدريب على الارتباط بالمكان معنويّاً ونفسيّاً، يمسكون بسطل مملوء بالماء البارد والخرق بين أيديهم ويمسحون بها الزجاج الداخلي للمعبد الذي يقبع خلفه تماثيل مذهبة بأزياء منحوتة، تماثيل صنمية تميل إلى خليط ما بين البوذية والهندوسية.

وهناك الكثير منها موزعة في أنحاء الممرات، وأيضاً الرسومات الدقيقة الباهرة التي مُنعوا من لمسها على جدران المعبد، تحكي قصة كل عابد ضحى بحريته في المنفى من أجل الديانة البوذية ومقدساتها.

عندما ينتهون من أعمال التنظيف يقرع كبير المعلمين أجراس المعبد ليُعلم الزوار بموعد فتح البوابة الرئيسة لتأدية طقوسهم الدينية والزوار الآخرين الذين يهتمون بالتاريخ والآثار التي تزخر بها أركان المعبد في العاصمة «لاسا»

إلى الآن ذاكرته في حقبة التبت معلقة في «سقف العالم» أو كما يسميها أهل الجبل «مكان الآلهة» بين قمة إيفرست وجبال الهيمالايا الشاهقة..
في ذلك اليوم الذي قرر فيه أبوه أن يأخذه معه في إحدى رحلاته التي غيرت حاله إلى حالٍ أفضل.

عندما استلم «والدي» رسالة بريدية من الجامعة التي يُدرِّس بها علم التاريخ، حيث إنه بين الفينة والأخرى يستلم تلك الرسائل التي يتم من خلالها إرساله في بعثات متفرقة لدراسة تاريخ أو آثار يمكن أن تعود بالمنفعة للبلاد، سواء كانت بعلم مكتوب أو بإحضار التحفة إلى الجامعة لدراستها من كثب.

وبسبب العلاقة التي اضمحلت فيما بينهما، حيث إنه كثير السفر، بات لا يعرفه، لكن يعرف مكتبته التي يعشق، وينتظر سفره بفارغ الصبر لكي يقرأ من كتبه، اعتقد أنه ورث منه حب العلم والتاريخ.

مسك (والدي) الرسالة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر، ليقرأها بقوقعة حجبته عن العالم منغمساً في محيط حبرها، انتهى من قراءتها، ونظر إلى ولده مطولاً، فقال بعد لحظات: «ريكي أتأتِي معي إلى الصين؟»

لم يكن رده كلاماً منطوقاً، بل كان هرولة، ثم حضناً، ثم اعتصار رقبته علامة على موافقته ورجائه الحار للرحيل معه، ولم يطل الأمر؛ حيث إنهما خلال أيام كانا على متن القطار المؤدي إلى الباخرة التي سوف ترحل من قارة إلى قارة أخرى من أجل العلم، ومن أجل متعته طبعاً.

استغل (والده) فرصة وجودهما منفردين في المقصورة ليحدثه بأمور المنزل والعائلة والمدرسة، فكانت ردود «ولده» مغلقة، لا مجال فيها لفتح نقاش، فقال له: هل تحب التاريخ والآثار؟، هنا قد تحركت كل مشاعره وانتباهه وكانت الإجابة: أحبها بشغف، حدثني يا والدي عن المكان الذي سوف نزوره، (والده): لك ما طلبت.. نحن الآن في طريقنا إلى حدود دولتي الصين والهند، من جانب مدينة كشمير الهندية إلى دولة التبت الذاتية الحكم التي تنازع عليها كل من الصين والهند وفاز بهذا السَّبق دولة الصين مع الحفاظ على الحكم الذاتي لطبيعة العادات الدينية المتبعة في التبت، والتي تتطلب حكماً يتزامن مع الديانة الأم.

سوف تسير بين مروجها كل يوم، وتنظر إلى الكم الهائل من المعابد البوذية الموزعة في أنحائها والتماثيل الكثيرة التي ترمز إلى «غوتاما بوذا» الذي كان عابداً، وغدا بعد موته إلهاً لهم

«حسب معتقداتهم» بسبب تعلقهم بقدسيته.. نجد فيها المزارعين والفلاحين والمدنيين، ولكن من يسودها هم الكهنة العُبّاد ذوو الرداء البرتقالي.

خلابة بمزيج الخُضرة والثلوج التي زادت كمية الأنهار المتدفقة من أنحائها لتخلق أكثر من ١٥٠٠ بحيرة يتلألأ شعاع الشمس على سطحها والأزهار تتمايل في أطرافها مع مداعبة النسمات..

وهناك يجلس «البشري» على الساحل ينظر إلى هذه اللوحة المتقنة الصنع، كل ما حوله بديع الجمال، ولا يدمر هذا الجمال إلّا هذا البشري الذي لا يأتي الخير من وراء ما يفكر به.

ما زال «والده» يتحدث وجفنه يدخل في عالم الظلام تارة وتارةً أخرى ينفتح بسبب المتعة التي تسري في أنحاء جسده، لم يحظ يوماً بحكايات ما قبل النوم، واليوم حصل على ما هو أجمل من ذلك، حصل على تاريخ الشعوب والآن سوف يترك المجال لجفنه أن يأخذه من يده إلى عالم الأحلام.. عالم التبت.

وهكذا كانت رحلتهما البحرية على متن السفينة الكبيرة التي تنقل على ظهرها ولد يلتقي والده للمرة الأولى في عام ١٩١٥م، لحظات تعارف لطالما حلم بها، وخشيها في الوقت نفسه، بسبب جمود والده وحديثه القاسي معه على الدوام، لا شيء غير الأوامر: «أنصت لوالدتك أثناء سفري، لا تدخل مكتبتي، إذا سرقت كُتبي مجدداً فسوف أعاقبك شديد العقاب، اخلد إلى النوم فغداً لديك اختبار».. فكان بنظره عبارة عن «كيان» مهمته الوحيدة تدمير المتعة في يومه.

الآن ينظر إليه، ولم يخطر في ذهنه أنه بهذا المرح والعطف والأبوة التي لطالما رغب أن يعيشها معه، وخصوصاً عندما ينظر إلى آباء زملائه في المدرسة، الآن هو أبوه وصديقه ورفيق السفر إلى مغامرة للتعرف على التاريخ الذي يتشاركان في حبه.

استغرقت الرحلة ٤٥ يوماً يتخللها بعض الأيام الصعبة بسبب تقلبات الجو، ولكن في مجملها كانت ممتعة وشائقة.

أُضِيفَت إلى مخازن ذاكرته لكي يحكيها على مسامع أصدقائه متباهياً بمغامراته التي خاضها مع والده في منتصف المحيط الأطلسي عبوراً إلى المحيط الهندي إلى تسلق الجبال بشكل تدريجي مع المبيت لأيام عند كل مرتفع يضلان إليه لكي يهيئا أجسادهما على التأقلم مع المرتفعات والضغط الجوي.

وصلا أخيراً إلى الكوخ المتواضع، استلقى بسريره بجانب والده الذي ما زال ينهال عليه بزخم معلوماته التاريخية وعلم الآثار ومغامراته في حفريات «أهرامات البيرو» وما حدث معهم عندما نقلوا مومياء أميرة فرعونية من «أهرامات مصر»، ونقلت لعنتها إلى سفينتهم في ليلة كان القمر بها بدراً مطموساً خلف الظلام.

(والدي): قد ألحقتك لتأخذ تدريباتك في «معبد جوكهانغ» لمساعدتك على استخدام كامل طاقة جسدك الكامنة وفتح آفاق عقلك لأقصاها وأهم ما أريده منهم هو أن يعلموك الانضباط النفسي والأخلاقي، فرهبان التبت لا يمزحون أبداً، ولقد فتحت لهم المجال مع موافقتي الكاملة على تأديبك بما يرونه مناسباً دون الرجوع إليّ، فأحسن التصرف وفكر جيداً قبل أن تتخذ خطوة يمكن أن تؤدي إلى عقاب لا يتحمله بدنك.. وكما هي عادته، لم ينتظر منه استجابة لأوامره، غادر الكوخ ليذهب مع فريق الرحالة والمستكشفين لإنجاز جدول أعمالهم في علم الآثار وما يتطلبه المرور على معابد التبت في أنحاء البلاد.

وهكذا توالت الأيام ليكون لهما في عرض البحر شهر ونصف الشهر، وفي هذه الجنة شهر بأكمله، وكان والده يحكي له كل ما يحصل معهم بالتفصيل لعلمه بالنشوة التي يصل إليها، بل إلى أقصى درجات السعادة.. ولكن ما حدث بعد ذلك هو ما علِق في أحلامه ويقظته!

في ذلك اليوم، وبعد انتهائهم من حصص التدريب المختلفة وإنجاز المطلوب منهم من ترتيبات، قبل قرع أجراس دخول الزوار للمعبد، نظر من حوله، ولم يجد أحداً، قد رحل الجميع متَّبِعين تعليمات الكهنة، يسيرون في سرب يُزيل الشوائب كلها من المكان بنظافة مبالغ بها.

أخذ هذه الغفلة فرصة ليسير بين الممرات، ويكتشف ما لم تقع عينه عليه فيما سبق، يجوب اللوحات الفنية في الأروقة، ويتعرف أكثر على تاريخ التبتيين إلى ما قبل الميلاد، فوجد غرفة في آخر الرواق، لم تطأها قدماه من قبل، لكنهما سوف تجوبانها الآن.

وصل إلى مقبض الباب، لكنه ما أن اتصلت قبضته بالمقبض إلا وتذكر كلام والده، ومدى العقاب الذي سوف يلازم آلامه لأيام، لكنهما لم يثنيا شغفه لمعرفة ما خلف هذا الباب، إما ظلام، وإما نور.. فتح الباب لكن كان مقفلاً، حاول مجدداً وكأن المحاولة الأولى لم تكفِ.

لكن عقله أراد ذلك بشدة، وقف متأملاً الباب وهو بحاجة إلى معرفة ما بداخله، يهيأ له أنه يسمع نداء ما بداخله، نداء يحرك كل غرائزه لكي يفتحه وينظر إلى الكنز الذي يختبئ خلفه، للمجهول الذي يلتحف الظلام هروباً منه، وكما يُقال: الإنسان عدو لما يجهل، إلا إذا كان إنساناً شغوفاً يحارب الجهل، ومن هذا المبدأ ظهرت الاختراعات كلها التي غيرت حياة البشرية.

وما هي الأقفال هنا إلا قطعة خشب تسمى «بالعارض» توضع متصلة ما بين الحائط والباب على حاملها سواء من الداخل، أو الخارج، كل ما يحتاجه هو قطعة خشب صغيرة تدخل من طرف الباب والحائط لكي يرفع العارض الداخلي ويكون في وسط الغرفة لكشف المستور.

لم يطل بحثه كثيراً ليجد ما يعينه على فتحها، رفع العارض مستعيناً بقطعة الخشب وكلتا يديه، سقط العارض أرضاً مخلفاً دويّاً يمكن أن يستدعي من سوف ينزل اللعنات على رأسه، دخل بسرعة واختبأ خلف الباب تاركاً النور يدخل من أطرافه.

وقعت عينه على ما تحتويه الغرفة لتتجمد أوصاله، إنه المعلم «لي» الذي اختفى بين ليلة وضحاها منذ أسبوعين، ولا يوجد شيء آخر في الغرفة إلا جرة ماء وسطل رائحته كريهة والمعلم الذي يبدو عليه السكينة والهدوء التام وهو جالس على الأرض متربعاً ويداه على ركبتيه مغمض العينين وكأنه تحول إلى أحد تلك التماثيل التي تملأ المعبد!

الباب الرابع

(حرب الموت والحياة)

(لا يوجد رابح بعد الحرب فكلا الطرفين.. خسران!)

فندق كازاميلا - سبتمبر ١٩٥٢م:

دقت ساعة البرزخ معلنة وقت استيقاظ الموتي، فتح «ماثيو» التابوت ومدد ذراعيه للأعلى، ليجد من حوله قد سبقه في الخروج من الغرفة وأولهم «المديرة»، كما هي أول ليلة في هذا المكان الغريب، فكانت معتقداته، حياة يتبعها موت، وينتهي كل شيء، يتحول إلى رماد وذكرى وحتى الذكرى لن تدوم كذلك، سوف يأتي الوقت الذي يكون فيه قد تلاشى من ذاكرة الأحبة أو بمعنى آخر نسياً منسيّاً.

لكن ما يحدث معه في حينه ضرب من الجنون، عند شروق الشمس يموت، وعند منتصف الليل يحيا في برزخ مليء بالموتي الأحياء، يرقصون ويمرحون ثم يعودون إلى توابيتهم، إلى متى؟، لا يعلم، كل ما عليه الآن أن يعيش السويعات المتبقية له في هذا المكان الغريب.. وقف ورتب هندامه، وسرّح شعره بيده، ثم همّ إلى مقبض الباب لكي يفتحه.

وقبل أن يضع يده فُتح الباب لتدخل «المديرة» بسرعة إلى الداخل، ثم تغلق الباب خلفها.. (المديرة): «ماثيو» انزل معي عبر السلالم إلى الطابق الأرضي بسرعة مع الحرص على عدم إصدار أي صوت..

ما زال في صمت وعدم فهم، مَسكت «المديرة» يده، ثم فتحت الباب، وأنزلت رأسها وكأنها تتوارى من سهام متطايرة.

فعل مثل فعلها وهو يهرول من خلفها إلى أن وصلا إلى الطابق الأرضي الذي كان فيه جمهور الموتي يقبعون خلف الحائط وأطراف النوافذ التي تطل على الحديقة الخارجية، (ماثيو): سيدتي ماذا يحدث؟، بسرعة خاطفة أطبقت بطن كفها الشاحبة على فمه.

تواريا خلف الحائط بجانب النافذة، و«ماثيو» يقف ما بين «المديرة» و«صوفيا» التي تبعد الستائر بين الفينة والأخرى لتختلس الأنظار لما يدور في الحديقة الخارجية. همس بأذن «صوفيا»: ماذا هناك؟، تجاهلته لبرهة، أغلقت الستارة ثم نظرت إلى الخلف وهي تهمس: دخلاء!

(ماثيو): ماذا يعملون هنا؟، ظهره التصق في بطن (المديرة) التي تهمس بأذنه هي الأخرى: اخفض صوتك يا فتى، الكثير من اللصوص يدخلون هنا على أمل أن يحملوا الغالي والنفيس من مقتنيات الأسر الغنية، حيث إن الكثير من الموتي يحملون مجوهراتهم معهم إلى قبورهم، وهذا الأمر متّبع من قبل الميلاد كما هو حال ملكات وأميرات الفراعنة، سأل (ماثيو) بغرابة مرسومة على وجهه: وهل استطاع أحدهم أن يحصل على شيء من هنا؟، (المديرة): إذا كان المتسلل قد تمكن من الدخول قبل منتصف الليل فالإجابة نعم، وقد حدث بالفعل منذ زمن، (ماثيو): ولماذا لا نستدعي الجند المنتشرين في الطابق الخامس؟، (المديرة): أ..

لم تكمل حديثها؛ لأن أحد المتسللين مقابل باب الدخول للفندق، يحاول جاهداً فتح الباب المقفل، والجميع بالمقابل يختلسون النظر من أطراف النوافذ بكامل انتباههم.. تجمهر الثلاثة ملثمين مقابل الباب ورابعهم يضع أدواته على الأرض، ثم استل قطعة حديد، ووضعها في فتحة القفل، صوت خربشات..

(صوفيا) بصوت منخفض: خطة الطوارئ!

انتشر الجميع إلى مواقعهم، وما زالت «المديرة» تمسك يدي «ماثيو» وكأنه طفلها الضائع الذي وجدته بعد عناء مرير، اختبأ معها خلف الكنب، واختفى الجميع في لمح البصر، ما زالت الخربشات مستمرة.. «كلك»، فُتح الباب ليدخل نور فوانيسهم الزيتية، ويدخل من بعده ظلال الأربعة ملثمين.

يسيرون بخطاً حذرة، ثم ينتشرون في الطابق الأرضي بحثاً عن كنزهم، أحدهم اقترب إلى موقع «ماثيو» ومن معه، ولو أنه نظر إلى الأسفل لوجد رداء «المديرة» الذي داسه بقدمه، أكمل طريقه ليتجمعوا مرة أخرى في منتصف القاعة مقابل عمود الساعة، تهامسوا فيما بينهم، ثم افترقوا إلى مجموعتين، المجموعة الأولى اتخذوا المصعد وسيلة للصعود إلى الطابق الثاني، والمجموعة الثانية توجهوا إلى السلالم.

عندما غادروا المكان اجتمعت (صوفيا) مع مجموعتها مجدداً، لكن الغريب في الأمر أنها كانت في أوج سعادتها، وتتكلم بابتسامة خلابة غزت عقل «ماثيو» بلمح البصر: أغلقوا الأبواب والنوافذ، لدينا صيد ثمين، تخلى «المدير» ذو الشارب المبروم عن وقاره، وذهب بسرعة لكي يغلق الباب، لكن «هايدي» الشقية لها رأي آخر.

(هايدي) وهي تمسك الستار متسلقة على أحد الكراسي بجانب النافذة: اصبر هناك المزيد، ثم نظرت مجدداً إلى الحديقة الخارجية والابتسامة ملء شدقيها بشكل مرعب.. ترك «المدير» باب الفندق مواربا ًليتيح للفرقة الخارجية الدخول إلى الفندق.

و«ماثيو» ما زال لا يفقه ما يجري من حوله، هل هم خائفون من هذا الاقتحام على مكان إقامتهم الدائمة؟ أم أنهم في سعادة بسبب وجود نشاط خارج المألوف بخلاف الاجتماعات الليلية والرقص على أنغام فرقة الموت!

بعد مرور دقائق نفد صبر «صوفيا» وفرقتها، لتعطي الإشارة «للمدير» بإغلاق الباب لتبدأ بتنفيذ خطتها، (صوفيا): «هايدي» الآن، قفزت «هايدي» عن الكرسي بسرور وهرولت إلى المطبخ وهي تقهقه بخبث، وكان الجمع من خلفها، فتحت «صوفيا» باب مصعد الأطعمة المتصل بجميع طوابق الفندق، ثم دخلت «هايدي» مع إشارة الوداع من يدها الصغيرة وعلامات الشر ظاهرة على محياها البريء.

غادرت إلى الطابق الثاني، وإلى الآن «ماثيو» ينتظر الإجابات التي تنخر عقله، انتبهت (صوفيا) لعلامات الاستفهام التي تحوم حول رأسه لتقول:

انتظر وسوف ترى ما يبهج قلبك، لا أحد يقتحم خلوتنا ويعود كما كان في الأمس، بل لا أعتقد أن تشرق له شمس الصباح مجدداً، نحن عائلة كبيرة ومن يمس أحد أفرادها تجد الجميع يقفون وقفة الجلاد الذي ينزل أشد العقوبات على الآثمين.

دوت صرخة هزت أركان المكان، تلتها أقدام تلهث على السلالم، فظهر أحد المقتحمين، وهو يركض نزولاً، لكن لم يكتمل نزوله ليهوي متدحرجاً على السلالم الأخيرة واستقر مقابل أقدامهم، رفع «ماثيو» رأسه لينظر إلى «هايدي» التي تنزل السلالم وهي ترقص وهناك عصب عين يتدلى من فمها، عين المقتحم الذي يتلوى من أمامه والدماء قد صبغت وجهه.

اجتمع عليه حزب من الموتي ثم كتفوا يديه خلف ظهره، ووضعوه تحت عمود الساعة، سمع المقتحمون الذين يبحثون في الطابق الأول صرخات مميزة من حنجرة صاحبهم، فهمّوا يركضون نزولاً إلى الطابق الأرضي، وعلى وجوههم الهلع، ومن كان في الطابق الثاني لم يستطع مغادرة الطابق لأن «براين» و«إزابيل» كانا له بالمرصاد.. بمجرد دخوله غرفة ٢٠٢ الخاصة بـ «آل دامبير» احتضنه «براين» من الخلف، ثم قضمت «إيزابيل» أنفه ليفور الدم متدفقاً على وجهها، فسقط المقتحم فاقداً للوعي في أحضان «براين».

توقف الرفيقان في منتصف السلالم، صرخة في الأسفل وصرخة في الأعلى، نظرا بعضهما لبعض والعرق ينهلّ صبّاباً على جبينيهما، ثم نطقا بكلمة واحدة: الهروب!، أكملا ركضهما قاصدين القاعة الأرضية ثم الباب ليخرجا من هذا الجحيم، كان المكان فارغاً لا يمنعهما شيء من الوصول للغاية.

همست (صوفيا) في أذن «ماثيو» ليدخل همسها إلى عقله من جديد ثم يلمس وجدانه بطريقة لا يفهمها: إن أردت اصطياد نسر فعليك أن تستخدم فراخه طعماً، (ماثيو): لم أفهم، (صوفيا): انتظر وسوف ترى.. وصل أحد المقتحمين إلى الباب والآخر لمح شيئاً عند العمود، فتوقف وأدار ظهره لينظر من كثب، كان ثالثهم مربوطاً على العمود بعين واحدة، والأخرى ينزف الدم من محجرها. فدخل بحالة من الصدمة التي جعلته يتوقف بلا حراك، لا تحمله قدماه، لا للهروب ولا لإنقاذ صاحبه نفعت، الذي من الممكن أن يأخذ حصة من مصيره، بعد برهة أخبر بغضب من كان واقفاً عند الباب: لن نهرب، افتح الباب بسرعة ليدخل رفاقنا من الخارج ليساعدونا على حمله.

فتح المقتحم الثاني باب الفندق، ولوح بيده داعياً من كان في الخارج للدخول، ليدخل الثلاثة الذين ينتظرون في الخارج، كادوا أن يسألوا عن الغنيمة لولا أن سقطت أعينهم على من فقد عينه بطريقة وحشية؛ مما دب الرعب في أوصالهم، هموا لفك قيوده، فخرجت (صوفيا) من مخبئها قائلة: صغير النسر جلب لنا نسوراً!

تجمع نزلاء الفندق على المقتحمين بشكل دائرة بوجوه شاحبة مرعبة ترمي بشرر، وكان الأقرب إليهم «هايدي»

التي ما زال عصب العين يتدلى من شفتها وخدها الأيمن منتفخ؛ بسبب العين التي تحاول أن تلوكها، تكلم (المقتحم) مرتجفاً من كان في الصدمة التي تحولت إلى رهبة: ما هذا؟، من أنتم؟ ماذا تريدون منا؟، ومع آخر كلمة استغلت «هايدي» الفرصة لتمسك لسانه، وتخرجه للخارج ثم تضرب بقبضتها فكه لتطبق الأسنان قاطعة اللسان، إلا من طرفه الذي ما زال متشبثاً بحلقه، فأكملت «هايدي» عملها، ووضعت قدمها على بطنه، ثم سحبت اللسان وركضت خارج المجموعة، وهي تقهقه بسعادة مرعبة.

تعالى في الفراغ صوت النصول التي استلت من جيوب النزلاء، يتلامع بريقها في عيون ملؤها الدمع وأفواه لا تنطق إلا بالرجاء والمغفرة والوعد بالخروج دون الرجوع إلى هنا مرة أخرى، لكن هيهات هيهات للرحمة أن تدخل قلوباً ذاقت المر في الحياة وما بعد الممات.

المقتحمون أصبحوا في وسط وليمة النزلاء، هذا يقطع أصبعاً والآخر أذناً، ومن يأخذ حصته يغادر المجموعة ليترك المجال للذي يليه لكي يغتنم احتياجه من مصنع قطع الغيار، ما زال بعضهم يتنفس، لكن بصعوبة بالغة حيث إن قلوبهم بلغت الحناجر، ولم يتبقَّ على خروج الروح إلا رمشة عين، من كان منهم يطلب الرجاء ليبقى على قيد الحياة، أصبح يرجو أن يموت بضربة نافذة إلى القلب لينتهي هذا الألم.

خطوات مطبوعة بالدماء لوثت الممرات، جميعها متجهة إلى غرفة في ركن الطابق الأرضي، ينتظرون في صف منسق كلٌّ يحمل بيده عضواً لترميم السابق الذي لم يعد يؤدي الغرض المطلوب منه.

«الممرضة» تنادي على المريض التالي، ليدخل إلى «الدكتور» الذي كان ينظف منشار العظام، ويضعه على الطاولة استعداداً للعمليات الجراحية الطارئة قبل أن تشرق شمس الوداع.

(صوفيا) وهي تحتضن ذراع «ماثيو» والمجموعة تنظر إلى المجزرة من أمامهم: والآن سوف تعلم لماذا السعادة بدل الخوف والحزن، (ماثيو): هل في تقطيع الأحياء سعادة؟، (صوفيا) وهي تشير بإصبعها إلى أحد المقتحمين الذي يعيش سكرات الموت: بل تلك هي السعادة.. خرجت الروح من الجسد، نظرت الروح نظرةً في الأفق ثم إلى المعركة المحتدمة في بتر أطراف صاحبها، وما هي إلا ثوان.. فُتح باب ساعة البرزخ الصغير، فخرجت الأيادي ملتحفة السواد، مسننة الأظافر لتمسك هذه الروح التائهة بغرس مخالبها، ثم أدخلتها إلى قلب الساعة عنوة لتنطق (صوفيا): يوم!

ثم خرجت الأرواح تباعاً وبالمقابل الأيادي تلتقط أي روح هائمة في الأفق و(صوفيا) تبتسم وتقول: يومان، ثلاثة.. (ماثيو) فاغراً فاه: ما يحدث؟

(صوفيا): عزيزي «ماثيو» إنه الخلود المشروط، لا نعيش في برزخنا هذا إلا في وقت معلوم، منذ منتصف الليل إلى شروق الشمس كما تعلم، لكن ما يوقظنا من سبات الموت هي الساعة بذاتها، فلها القدرة على أن تحيينا جزءاً من اليوم.

أردفت (صوفيا) حديثها: ولكي تعمل يجب أن نغذيها بوقودها، وهنا نقصد «الأرواح» فمقابل كل روح هناك جزء من اليوم نعيشه في برزخنا بسعادة داخل أحجار هذا الفندق، (ماثيو): وإذا لم تُحصد روح؟، (صوفيا): لك أن تتخيل كم يوماً أو سنة ممكن أن نُحبس في توابيتنا وتتحلل أجسادنا، (ماثيو): هل تقتلون الأبرياء؟، (صوفيا): إذا تطلب الأمر نعم، لكن لم نلجأ إلى ذلك بعد، حيث إن الفندق زاخر بزوار غير مرغوب بهم كما ترى، (ماثيو): ولماذا لا توكلون للجنود مهمة حماية الفندق؟، (صوفيا): لأنهم جنود وليسوا نزلاء من العائلات النبيلة، وسوف يأخذون ما لا نحتاجه من قطع غيار، وَكلنا لهم حماية الأدوار العليا فقط ولنا الباقي من الفندق لكي لا يشاركونا الثمين من أجساد المتطفلين.

خرجت الأرواح جميعها، والتقطتها الأيادي السوداء تباعاً ليدخلوا الباب الذي لا يفتح إلا للداخلين في غيابات ساعة تستخدمهم وقوداً لتوقظ الموتي.. ومع آخر روح متجهة إلى الأيادي السوداء الغاضبة انتفض جسد «ماثيو» لينظر إلى كفيه والظل الأسود الذي يضغرهما حجماً، يحاول أن يخرج منهما، نظرت (صوفيا) كذلك بدهشة: ماثيو هل أنت بخير؟، ما هذا السواد الذي يخرج منك؟، هنا فهم (ماثيو) أن ما يحدث له غير طبيعي: لا أعلم، زاد انتفاضه إلى أن خرج ظل يشبه «ماثيو» إلى حد كبير، لكنه يضغره في الحجم، اتجه بكامل طاقته إلى الروح الأخيرة التي التقطتها الأيادي السوداء قبله، كاد أن يمسكها لولا أن الباب أغلق في وجهه، فغادر إلى السقف مخترقاً الفندق إلى الأفق!

(ماثيو): هل ما حدث طبيعي؟

(صوفيا): بالطبع غير طبيعي، سوف نبحث في الأمر فيما بعد..

بعد سكوت عصف بأذهانهما

قال (ماثيو): الآن لدينا أسبوع لنعيش في حياة البرزخ، (صوفيا): بالفعل..

دنا وقت شروق الشمس، توجه الأفواج تباعاً على السلالم والمصعد إلى غرفهم، وما زال «ماثيو» سارحاً بعقله وحيداً في بهو الفندق ينظر إلى تروس الساعة من خلف الزجاج، وهي تتشابك مع مثيلاتها لتستمر في تعاقب عقاربها، و«هايدي» ما زالت كذلك تركض في بهجة، بيدها لسان يقطر لُعاباً مخلوطاً بالدماء، وبخدها انتفاخ من عين لا تستطيع أن تلوكها بسبب حجمها.

دخل أول خيط للنور من النافذة الكبيرة التي تعلو باب الفندق، فمسك «ماثيو» الشقية «هايدي» ليذهب بأسرع وقت ممكن إلى غرفة رقم ٦٠١ ثم إلى تابوته، وضع «هايدي» على صدره، واحتضن رأسها الصغير..

ثم أغلق الباب مودعاً يوماً من أبدية مجهولة في فندق المقبرة.

في الصباح دخل «الحارس» إلى البهو ليجد الفوضى العارمة في الفندق وتحت قدمه هناك فروة رأس شقراء تخص أحد المقتحمين، بطريقة آلية ربط شعره الطويل ثم بدأ عملية التنظيف وختاماً التقط فروة الرأس والأشلاء الأخرى ليكون مصيرها إلى المحرقة في قبو الفندق.

الباب الخامس

(النجم الثاقب)

(ليست الكتب كلها على الرفوف، بل هناك كتب محفوظة في الصدور وهناك كتب تسبح في الأثير..)

«ريكي» ما زال في ذاكرة التبت، عام ١٩١٥م:

يتأمل المُتأمل الذي لا ينطق ولا يتكلم، فقط يتنفس برتم متوازن، أصوات خطوات راكضة باتجاه الغرفة، (أحد الرهبان): من الأحمق الذي فتح الباب على المعلم «لي» وهو في تأمله السنوي؟، أدخل طرف رأسه لخطف نظرة سريعة في الداخل، ثم أغلق الباب من الخارج.

(الراهب): أحضروا لي عارض الباب الخارجي، معلمنا يعرف كيف يفتحه إذا انتهى من تأمله.. وما هي إلا ثوان ليصبح الباب موصداً من الخارج بعارض خشبي كبير مسند على الأرض والطرف الآخر على الباب، وما زال «ريكي» متخشباً على الحائط وقطرات العرق تسحبها الجاذبية إلى نحره.

انخفضت الأصوات المحيطة من حوله، لا يوجد غير الخواء والسواد والهدوء إلا من صوت أنفاس المعلم «لي» الباعثة للراحة، رغم الخوف من المجهول المنتظر على يد كبير المعلمين «شانغ»

جلس في ركن الغرفة يقلب الأفكار في رأسه الصغير الذي دائماً يوقعه في مصائب لها العواقب الوخيمة، يندب حظه، يلوم نفسه.. ماذا يفعل؟، هل يطرق الباب صارخاً لينقذوه من هذا الظلام؟، ام ينتظر لعل المعلم «لي» ينتهي من تأمله، ثم يوبخه في مكانهما هذا، لعله ينجو من عقاب كبير المعلمين.

لكن المعلم «لي» على جلسته هذه لمدة أسبوعين، إلى متى سوف تستمر؟، بسبب الهدوء والعتمة وزخم الحوار بينه وبين نفسه الأمّارة بالسوء الذي لا يحمد عقباه، نزل جفنه ليغطي محجر العين، وينتقل به من ظلام إلى سواد أعتم من الذي قبله ليدخل في سبات يطفئ عقله عن العمل ولو لبضع دقائق.

استيقظ ولا يعلم كم لبث، ساعة أم يوماً، والمعلم «لي» على هيئته لم يتحرك قدر أنملة.. فرقعات يرتحل صداها في فراغ الغرفة، نعم إنه بطنه الذي يدق طبوله لكي يتغذى، لكن لا غذاء هنا..

جلس القرفصاء في ركن الغرفة متأملاً معلمه، وينتظر بنفاد صبر الحل الذي سوف ينتشله من هذا المكان، لعل أحدهم يفقده فيبحث عنه في الأرجاء ويجده هنا، سوف يهرب مجرد أن يُفتح الباب، يريد أن يعود إلى بيته في برشلونة.. عقله يسأل والنفس تجيب بالعقاب الذي لا مفر منه!

إذاً لا يوجد غير الصمت والانتظار.. مر الكثير من الوقت، وغفت عيناه مراراً والجوع قد هزم طاقته، يظن أن يومين قد مرا وهو بين أحضان الفراغ المظلم، من شدة الملل سار في أنحاء الغرفة، حاول لمس المعلم «لي» لكن لم يطاوعه جسده رهبةً منه.. جلس مقابله متربعاً، ثم وضع يديه على ركبتيه وهو ينظر بين عينيه لعله يشعر أن هناك عيناً تنظر إليه فيصحو من تأمله هذا.

نظر إلى صدره كيف يمتلئ ثم ينخفض، حاول أن يتنفس بالرتم نفسه، تغلغله الاسترخاء في جسده، وجرت بين أحضان الراحة الداخلية، صفاء ذهن كما تدرب من قبل، بات ريشة تهيم وسط الأفق، أغمض عينه، فصفعه الوميض المشع على وجهه.

صخب عال في محيطه، الكثير من البشر يتحدثون بوقت واحد، إزعاج شديد، طنين المتحدثين يخترق رأسه، يريد أن يفتح عينه لكن دون جدوى، هناك يد ممتدة له، ناولها يده بعد تردد، مسكت ساعده لتسحبه بعنف إلى الأعلى.. (ريكي): المعلم «لي»؟!

مسك يده متأملاً وجهه بذهول، فقال المعلم (لي): هالة نجمية.. مستحيل!، ماذا تفعل هنا يا أحمق؟، رد عليه بخوف ظهر على شفتيه المرتجفتين: أعتذر لتطفلي، إنه الفضول يا معلمي، ثم أنزل رأسه معبراً عن أسفه، فكاد قلبه أن يتوقف عندما نظر إلى موقعه، قائلاً: أنا أطفو في الفراغ!
كانا يسبحان في محيط الغرفة، وينظران إلى أجسادهما التي جلست بعضها مقابل بعض بسكينة مطلقة، لا تفعل شيئاً غير التأمل والتنفس.. (ريكي): هل أنا ميت؟، (لي): كلا يا أحمق، لقد قطعت تأملي وترحالي بين الأثير.. كاد أن ينهال عليه بالأسئلة، لكن المعلم لم يمهله وأخذ بيده ليطيرا إلى الفضاء.

(ريكي): أنا أطير!، قد كان جسده خفيفاً كالريشة التي اتخذت الريح دفة لتغير مسارها إلى جميع الاتجاهات إلا الأرض، لا جاذبية قادرة ولا رغبة للرجوع، مر على أعالي الجبال، ووصل لقمتها دون عناء ولا اختناق من نقص الأكسجين، نظر إلى التبت الجميلة من نقطة شمولية، فكان اللونان الأبيض والأخضر يمتزجان بألفة محببة إلى عينه، وما هي إلا ثوان لينظر إلى الأرض بأكملها وهو في رحابة فضائها.

ما زال المعلم ممسكاً بيده، (ريكي): معلمي ماذا يحدث؟،

(لي): ما كان يجب أن تدخل في هذه الحالة وأنت في هذه السن الصغيرة، لكنه القدر الذي لا مفر منه، نحن الآن نخوض مرحلة «الإسقاط النجمي» أرواحنا تحررت من الجسد مع كامل وعينا وإدراكنا، نرحل إلى ما نريد وقت ما نريد، سنوات من التدريب والتجرد من بذخ الحياة والصوم عن ملذاتها لكي أفعل ما أفعله أمامك، وتأتي أنت بغضون أيام لتدخل في الإسقاط بكل سهولة، صام جسدك، وتخلص عقلك من كل شيء لتدخل في حالة من السكون؛ ومن ثم إلى تطبيق الإسقاط، يا لَعجائب القدر!

أردف المعلم (لي) حديثه وهو ينظر إلى الأرض من الأفق البعيد: حالتك يجب دراستها من كثب، لديك هالة هائلة تسمى «بالهالة النجمية»، وهي أقصى درجات القدرة الروحانية، وإن لم تحسن استخدامها فستكون وبالاً على البشر، وليس عوناً لهم.. ترك يده ونظر إليه، وكأنه يختبر توازنه إن كان يستطيع أن يدبر أمره.

اختل توازنه في البداية، لكن استجمع أمره مع نظرات الذهول على وجه معلمه، نظر إلى الأرض وعقله ذهب دون ناظريه، ليست كل علامات القدر ظاهرة، فهناك الجميل لكن لم يحن أوانه، وها هو يعيش جزءاً من هذا الجمال، يطير وينظر إلى الأرض الخلابة وعن يمينه البدر يبتسم ليبادله الابتسام مُرحباً.

المعلم (لي): هيا إلى المعبد، لحقه ليعبرا الأفق في دقائق معدودة، ويكونا في سقف المعبد يسبحان بين الغيوم، قال المعلم (لي): انظر لكبيرنا الذي يتأمل في حضن البستان، وانظر إلى المعلمين الذين يمارسون التأمل من أمامه، وقد زخرف الشيب جزءاً من رأسهم، ولم يصلوا إلى مرحلة خروج الروح من الجسد بعد، وها هي روح معلمنا «شانغ» تسبح فوق جسده منتظرة أحدهم يتقن فن التحليق.. فن الإسقاط النجمي، لكن لم ينجح أحد منهم بعد، وتأتي أنت يا عقلة الإصبع، وتتقنها بعد أيام من وجودك في مكان تأملي!

(لي): إن لديك نعمة عظيمة، وسوف أريك ما هي في الرحلات القادمة على أن تعدني أن تستخدمها بما ينفع البشر ولا يضرهم، وإن قررت العكس فتذكر أن كهنة التبت سوف يكونون لك بالمرصاد، (ريكي): أعدك بأن لا أستخدمها في ضرر، (لي): كن خلفي ولا تحِدْ، انطلق إلى الأعلى و«ريكي» من خلفه بسعادة لم يشعر بها سابقاً.

يمارس شعور الحرية، الهواء ونسيمه يمسح على وجنتيه، ويتخلل خصلات شعره، مجرد من الأوزان جميعها حتى الهموم لا وزن لها هنا، بين السماء والأرض، فوق البشر وتحت القمر، هدوء لا تثريب به، عينه لا تنظر إلا للجمال، يداعب بؤبؤها بخار الغيوم المثقلة بالمُزن.. خرجا من الأرض إلى عنان الفضاء مجدداً، إلى أن أصبحت أرضنا بحجم حبة البازلاء.

تتخطف النجوم من حولهما ببريق وهاج يدور من حولها والغبار الضوئي زاد سطوة جمالها الخلاب، ابتعد معلمه بسرعة، وفعل مثل فعله، ليمر بجانبهما نيزك كاد أن يهشمهما، هناك من بعيد نور يحارب قبة الظلام السرمد، مجموعة شعلات متلاصقة على شكل كتلة تتراقص وتطلب المزيد من الصخور التي تأجج لهيبها، الشمس المضيئة رغم السواد المنتشر، ومن شعاع نورها يظهر جمال القمر، وتتلألأ ذرات النجوم.

توقف معلمه، وكاد أن يصطدم بظهره الذي حجب عنه الرؤية، تنحى جانباً لينظر بذهول إلى هذا الاندفاع الهائل إلى فم الفضاء، (ريكي): ما هذا يا معلمي؟، (لي) بعد أن صمت لوهلة، ودون أن يحيد بناظريه عن المنظر الغريب من أمامه: هذا «الثقب الأسود» الذي يأكل شوائب الفضاء ويلفظها في المجهول، وسوف يُكْتَشَف قريباً، لا يعلم بحقيقته غير رهبان التبت، وسوف تعرفه أنت أيضاً بعد دقائق.

شبّك المعلم «لي» أصابعه في أصابع «ريكي»، ثم انطلقا إلى فم الفضاء يتخطيان الصخور الفضائية باحترافية هل كان هناك من يدفعهما بهذه القسوة أم أن الثقب قد غضب من دخولهما عنوة في جوفه، دفع أم شفط.. لا يعلم، ولكنه مؤلم وإن كان جسده طيفاً أثيريّاً، حتى طال الألم عينه التي تنظر إلى السواد الذي يمران من خلاله بهذه السرعة التي كادت أن تذهب ببصره.

توقفا في الفضاء، فجلس معلمه متربعاً مغمض العينين منتظراً، فجلس مثل جلسته، ولا يعلم كم استغرق من الوقت في كل ما مرا به أو لماذا جلس معلمه، ولكن كانت السعادة تغمره من المجهول الذي أصبح مكشوفاً أمامه.

(صوت ظهر من العدم): مرحباً بك يا «لي» ومرحباً بالقادم معك.. فتح عينه لينظر إلى هذا الشيخ البراق، نور يغزو العين ويشير بهجتها، جميل المحيا رغم التجاعيد التي حفرت الأخاديد على وجهه، شعر أبيض لا سواد فيه، مفترق الوسط ينزل كالنهر الجاري على كتفيه، متناسقاً مع لحيته البيضاء الناعمة التي تستقر على صدره، يلتحف ثوباً أبيض طويل الأكمام، لكن ليس هذا ما شد انتباهه، بل البريق الذي يخرج من جميع أجزاء جسده وهالة النور التي بددت الظلام من حوله.

فتح (لي) عينيه بابتسامة هادئة: أهلاً بك يا «أمين الأثير»، جئتك من جديد لكي أكمل بحثي الذي قطعه هذا المتطفل الصغير، والذي أظن أن له مستقبلاً باهراً بطاقته تلك، إذا استغلها بما ينفع البشرية كما هي عادة رهبان التبت، (الأمين): نعم بالتأكيد هالته باهرة، وأرجو ما ذكرت، ندخل إلى السجلات الأثيرية؟، (لي): بالتأكيد أيها «الشيخ الأبيض».

أشاح «الشيخ الأبيض» بكفيه في الأفق، فانفلق السواد ببابين عظيمين ظهر النور من بين فرجة في وسطهما.. زادت الفرجة، وزاد انبثاق النور من الداخل، تزامن تقدم «الشيخ الأبيض» مع اتساع الفرجة وهما يسيران من خلفه بوقار انتقل منه إليهما، إلى أن غدوا في قلب المكان.

عقله أصابه الذهول مما يراه، أم أنه في حلم يطفو، في قلب المكان هناك الكثير من الشيوخ الذين يشبهون الأمين في هيئته، لكنهم أصغر منه سنّاً، يسيرون وسط قاعة ضخمة، لا ينظر إلى نهايتها التي يمكن أن يفنى عمره وهو يسير في أرجائها، تحمل في أركانها الكثير من الكتب، وفي وسطها رفوف حملت الكثير من المخطوطات الملفوفة، وهناك أيضا يجلس الشيوخ على مكاتب خشبية غير مصقولة، وكأنها جذوع أشجار وُضعت على عجل لكي ينجزوا أعمالهم، لا يفعلون شيئاً غير التدوين، مخطوطات ومحبرة وريشة، تغطس ثم تحيك الخطوط على الورق، عازفة لحن الشوق إلى قلوب القراء المتلهفين إلى المعرفة.

وليس هذا فقط، فمن فوقه دوامات صغيرة لمخطوطات تتقطع أوراقها، وتلتحم بدفتي كتاب مع خياطة أطرافه، ينغلق وحده دون لمس، ثم يرحل إلى أحد الرفوف البعيدة، وكتب في الأفق القريب والبعيد ترفرف راحلة إلى رفوفها وأخرى إلى مكاتب الشيوخ المدونين، عالم من الكتب المتحركة بطريقة انسيابية رتيبة، دون أن يصطدم كتاب بآخر، ابتسم (الشيخ الأبيض) موجهاً أنظاره إلى وجهه المذهول: أعلم أن لديك الكثير من الأسئلة، وسوف تعرف كل شيء في حينه، ونبدأ في هذا المكان.

أردف (الشيخ الأبيض) حديثه: أنت الآن في قاعة «سجلات الأثير» فيها تم تدوين كل ما حدث منذ بداية الخليقة، إلى يومنا هذا، بل إلى الثانية التي نتحدث بها، ماضٍ أدبر ولا رجعة فيه، وحاضر أسفر عن أحداث جارية، ومستقبل محتمل، وهنا نتحدث عن الأفعال التي لها ردة فعل مستقبلية، أي كامل الاحتمالات التي من الممكن أن تحدث، على سبيل المثال لو أنك تزوجت بإحداهن أو قررت عدم الزواج بها فما هي الاحتمالات التي يمكن أن تحدث.

والآن دعنا نجرب أن نعطيك من علمنا، ماذا تريد أن تعرف.. وضع (ريكي) يده تحت ذقنه مُفكراً بسؤال مباغت لا يخطر على بال، طرق ما بين إصبعيه السبابة والإبهام ناطقاً بالسؤال المطلوب: من هو المخترع الأصلي للمصباح الكهربائي؟ هل هو «توماس أديسون» كما يقدسونه في المناهج الدراسية؟، ابتسم بخبث وهو ينتظر الإجابة من «الشيخ الأبيض».

نظر «الشيخ الأبيض» بين عينيه، ثم لوح بيده اليمنى (لأحد الشيوخ) الجالسين في مكاتبهم، قام الآخر من مقامه تاركاً ريشته في قلب المحبرة، ثم وقف أمام «ريكي»، ووضع إصبعيه السبابة والوسطى على ناصيته برفق وقال: أغمض عينيك

وما أن أغمضهما إلا ونظر إلى العجب، كيف صُنِع المصباح الكهربائي ونظر أيضاً إلى صانعه الأصلي «نيكولا تسلا» وكيف «أديسون» سرق اختراعه بالإكراه، ثم هجر صاحبه في غيظ الغدر.

رحل «الشيخ المدون» إلى مقعده، ونظر «ريكي» إلى «الشيخ الأبيض» بتعجب، كيف انتقلت الإجابة المطلوبة إلى عقله مباشرة؟، رد (الشيخ الأبيض) مع ابتسامته التي لم تفارقه: هنا تجد الإجابة عن كل سؤال، المعرفة لكل جهل، لا عناء في نقل المعلومات المطلوبة، كل ما عليك هو السؤال.. وفي المستقبل القريب، ومن بعد أن تحصل على الطريقة من المعلم «لي» سيكون الحصول على ما تريد من معرفة يسيراً بمجرد أن تفكر بالمطلوب، تحصل عليه وأنت في وسط «السجلات الأثيرية».

نطق (ريكي) بلهفة: أريد أن أعرف شيئاً آخر، قاطعه (معلمه): كلا، توقف الآن، إذا كنت تريد أن تغذي عقلك، يجب أيضاً أن تغذي بدنك، علينا العودة الآن، ارتسمت الخيبات على محياه التي لم يكترث لها «لي» ومسك يده مودعاً «الشيخ الأبيض» ليرحلا من هذا النعيم، وتوصد الأبواب من خلفهما.

لم تكن رحلة العودة طويلة.. ينظر الآن «ريكي» إلى جسده المادي ما زال يتنفس برتم متوازن، جالساً مقابل «لي»، نظر (المعلم) لتلميذه المستقبلي مخاطباً: الآن عليك الرجوع إلى قالبك وفتح عينيك مع الاستمرار في التنفس، لا تتكلم مباشرة إلا عندما تستجمع نفسك، وترتاح في الدقائق القادمة، أومأ موافقاً فترك يده.. تربع في الهواء، ثم أغمض عينيه بجسده الأثيري، ونزل بكل هدوء إلى جسده المادي، ففعل «ريكي» مثل ما فعل «لي».

فتح عينه بعد دقائق، ليجد (معلمه) ينظر إليه بذهول: لا أرجو غير أن تستخدم ما لديك من هبة عظيمة في أعمال صالحة ونفع للبشرية، يا بني لا أحد لديه هالتك هذه إلا أشخاص معدودون، ولا أعلم الحكمة وراء دخولك إلى غرفتي في فترة تأملي، وهل هي المصادفة التي أجبرت طاقتك على الاستيقاظ أم هي الأقدار التي لا نعلم مصايرها بعد.

أردف (المعلم لي) حديثه: خلوتي لم تنته، لكن يجب أن أقطعها لسببين، أولهما يجب الاجتماع مع كبير المعلمين في الحال، الثاني هو أهلك الذين سوف يقلبون الدنيا رأساً على عقب لغيابك عنهم لمدة أسبوع، رد عليه (ريكي) مع توقف ريقه في البلعوم: أسبوع ؟!

(لي): نعم رحلتنا هذه لم تكن خلال ساعات، بل أيام، اشرب من هذا الماء المقدس لتستعيد طاقة جسدك الواهن، ثم امضغ كسرة الخبز التي سوف تجعل جسدك يتحمل ما هو آت من عقاب مزدوج، لن أتركك وحدك فأنا معك ما دمت حيّاً، أرشدك للطريق السوي الذي لا ضرر فيه عليك، أو على البشرية جمعاء، وهذا بعد أن عرفت ما تحمله من طاقة عظيمة.

طرقا الباب أكثر من مرة إلى أن جاء أحد الرهبان لينزع عارض الخشب المسند خلف الباب، خرج «ريكي» من خلف معلمه ساتراً نفسه في ظله لعله ينجو من القادم، إلى أن آل بهما الحال في حضرة كبير المعلمين الذي اتسعت عيناه منذرتين بألم سوف يحل عليه لا محالة!

الباب السادس

(خادم الموتى .. حارسهم)

(أنتظر بفارغ الصبر موتي لكي أكون في كَنَف الأحبة أنعم!)

فندق كازاميلا - سبتمبر ١٩٥٢م:

انتهى «الحارس» من تنظيف الفندق وأخذ يجر الخطا إلى غرفته مرهق الفكر والجسد، يدّعي الصمت وهناك صخب الحديث يدور في خلده، حديث.. جل البشر يخوضونه بينهم وبين النفس وكأن كوكبنا مزدوج، يحمل البشر ويحمل داخلهم أنفسهم، شخصان في جسد واحد، أحدهما يحاول الحياة، والآخر ينغصها عليه.

اتجه إلى قوارير المسكرات الزجاجية، فهي الحل الوحيد للطنين المزعج في رأسه، للحد من اشتياق من فاض الشوق للقائهم..

وجد رسالة جديدة مثبتة تحت القوقعة سحبها برفق، ثم استلقى على السرير، ووضع ذراعه خلف رأسه ليقرأ حروفها بكامل انتباهه..

«محتوى الرسالة»

عزيزي ملاكنا الحارس.. لا أريد أن أرى ضرّاً قد مس قلبك النقي، وإن كان لا بد منه، أرجو أن يمسني أنا ولا يصيبك، ابتهج وأرح قلبك فلقاؤنا قريب.

هناك حاجة ملحة للخيوط الجراحية غير القابلة للامتصاص لكثرة الترميمات البدنية بين الموتى، وهناك طلب آخر كذلك.. نريد دكتوراً جراحاً يعين الدكتور الذي يحتاج إلى جراحة كذلك، ويمد له يد العون في الطلبات المتكتلة.

ملاحظة:

مُلِئَت القوارير من خمر الفندق المعتق، لاتحاول معرفة مكانه؛ لأنك سوف تشرب المحيط، ولن تنسى اشتياقك إلينا..

ذُيل أسفل الرسالة:

« أحبك حتى «ذُيل أسفل الرسالة: أحبك حتى وإن كان قلبي لاينبض، فأنت له الحياة..»

فتح الصندوق، ووضع الرسالة فوق كومة من الرسائل المكدسة مع ابتسامة جانبية لا تظهر أسنانه، ثم سكب من المسكرات ما يُسكن ألمه، لكن لم يُكثر؛ لأن لديه ما ينجزه في ليلته.

دقت عقارب الساعة ناقوس دخول منتصف الليل، لتنفتح التوابيت وتتمدد الأذرع، إلا «ماثيو» الذي ما زال محتضناً «هايدي» التي رغم شقاوتها الشيطانية، دخلت قلبه دون استئذان مسبق.. عندما فتح عينيه وجدها راقدة على صدره وهي تسند ذقنها على ظهري كفيها، وتنظر إلى عينه مباشرة في براءة مطلقة. لم ينطق بحرف، بل احتواها بين ذراعيه وصدره، (هايدي): أحبك، (ماثيو) مقهقهاً: لم نلتقِ إلا منذ أيام معدودة، وأحببتني بهذه السرعة؟، وأنا أحبك، (هايدي): أعدك ألا أخطف عينك.. إلا إذا كرهتك مرة أخرى، (ماثيو) وهو يبعد شعيرات سقطت على عينها، ويضعها خلف أذنها: شكراً لك يا جميلتي.

خرج الجميع إلى بهو الطابق الأرضي مصطفين مقابل غرفة الدكتور الذي يكابد لتنظيم المتجمهرين، (المديرة) مخاطبة «ماثيو» الذي يحمل «هايدي» بين ذراعيه: يا لعجب مفاجآت الدنيا التي تجمع شيطانة بملاك تحت قبة واحدة؟، (هايدي) وهي تنظر «للمديرة» نظرة شر: تمسكي بعينيك جيداً يا شمطاء، فاليوم أنتِ أحد أهدافي.

وقف «الحارس» مقابل المرآة ليأخذ شعره الطويل في قبضته، ويربطه من الخلف، وهو ينظر إلى هندامه الذي لا يتخلله لون غير السواد القاتم، رفع بنطاله لينظر إلى السكين التي ثبتها على ساقه..

لبس نظارته السوداء، ولف الوشاح الأسود حول رقبته ليخرج من بوابة الفندق بخطاً ثابتة، وهو يخفي كفيه في جنبي بنطاله.

نسمات باردة تداعب خصلة تتأرجح ما بين وجنتيه، ينظر إلى الأمام، لدوامة صغيرة تلهو مع أوراق الأشجار المتيبسة، ترفعها إلى الأعلى وكلما دنت إلى الأرض رفعتها من جديد، اخترقها وأكمل مسيره إلى المستشفى الذي اعتاد زيارته متخفياً بين الفينة والأخرى تلبيةً لرغبات موتي كان يحبهم والآن يحطمه هذا الحب اشتياقاً للقاء.

يسير على طريق معبّد بصخور مصقولة، وشجر الصنوبر يحجب الجانبين، ويُظهر المستشفى الضخم من أمامه، توقف بمحيّاً يملؤه الجمود رغم ما ظهر من أمامه.. أوقفته كف وُضِعت على صدره محاولةً ثنيه عن الاستمرار قدماً، يد مرتبطة بجسد طيفي هلامي تستره خرقة لُفت على وسطه وما تبقى منها رُميَ على كتفه الأيمن.

نطق (الطيف) قائلاً: لا تفعلها، ألم تكتفوا من سفك الدماء وهدر الأرواح لفندقكم اللعين؟، لبرزخكم الوهمي؟، ألا يكفيكم تغيير الفطرة الإنسانية، حياة مؤقتة لموتي ممكن أن يبيتوا في توابيتهم مدى الدهر إن لم تتغذَّ ساعة البرزخ بروح جديدة؟، نظر «الحارس» بغير اكتراث لما يُلقى على مسامعه، أكمل خطاه مخترقاً الجسد الهلامي إلى حديقة المستشفى.

يسير باحترافية على عشب الحديقة، ولا يظهر صوتاً يمكن أن يفسد خطته قبل إتمامها، ينظر إلى نقطة قابلة للاختراق، يتخيلها في رأسه، يُقلِّب الموازين لعله يجد فيما يرنو إليه خللاً، فكر وقدر، ثم حسم وأقدم.. ركع ثم هرول إلى نافذة الدكتور المناوب الذي بدأ وقت راحته لينعم بكوب قهوة وكتاب، جلس تحت النافذة متعمداً تكسير أوراق الأشجار المتراكمة من تحته. بعد لحظات مسك حفنة من أوراق الأشجار، وكسرها بين يديه، لينفد صبر الدكتور من هذا الإزعاج الذي شوه خلوته الهادئة، وكما هي عادة البشر، يجب أن يبحث لكل شيء عن تفسير، ومن الممكن أن يتجاهل كل هذا، ويغلق باب النافذة، ويكمل فترة راحته، لكن هناك الكثير من بني جنسنا هلكوا بسبب «بلاغة الشف» أو التفسير المنطقي لكل حدث في حياتهم.

«الحارس» في وضعية الاستعداد بانتظار دخول الفريسة إلى المصيدة، وبمجرد أن أخرج الدكتور رأسه من النافذة، إلا وكانت إصبعا «الحارس» السبابة والوسطى في وسط حنجرة الدكتور، ما هي إلا وخزة لتخور قواه فاقداً للوعي، معلقاً من منتصفه على النافذة.

وخزة نافذة كفيلة أن تعطيه دقائق يُجَهِّز بها نفسه، دخل «الحارس» برشاقة إلى غرفة «الدكتور»، انتشله من مكانه، وأجلسه على الكرسي مكتفاً يديه وقدميه، ثم وضع اللحاف على جسده والكتاب على وجهه، أخذ ملابس «الدكتور» الاحتياطية، المخصصة للمستشفى، ثم وضع فوق جسده المعطف الأبيض والكِمامة على الوجه.

اتجه «الحارس» إلى غرفة السجلات، وهو يسير في أروقة المستشفى بخطاً لا تعطي مجالاً للشك، وصل وطلب من «الممرض» المسؤول عن السجلات أن يعطيه ملفات المرضى في وحدة العناية المركزة.. بهذه الوحدة تجد من مات وفي الوقت نفسه هو حي سريريّاً، ومنهم من يئس من الشفاء، ويوجد من لديه بصيص أمل، سوف يختار «الحارس» الأنسب في الأحوال كلها.

فنّد الملفات مع كامل تركيزه لعله يجد ضالته، وقد كان حسب خبرته السابقة ومروره الدائم على فترات متفاوتة للمستشفى تلبيةً لطلبات نزلاء «فندق كازاميلا»، يعلم أن هناك دكتوراً من «عائلة بورجيا» النبيلة في حالة مستعصية، وقد أجري له العديد من الجراحات في المخ على أمل أن يعيش أياماً زيادة في عقده السابع.

وها هو يظهر من بين ملفات مرضى العناية المركزة، يرقد في السرير الثامن، تفحص ملاحظات الأطباء عن حالته، وقد كانت النتيجة كما توقع، ميت سريريّاً ولا جدوى من عمليات جراحية بوقت وجهد لا طائل منهما، لكن لا يمكن فصل الأجهزة بسبب مكانته المرموقة في المجتمع ومنصبه في القطاع الطبي.

قلب الورقة لعله يجد ما ينهي معاناته، وجدها ما بين الكلمات، «جرعة إنسولين» يجب أن يأخذها الدكتور «دافيد بورجيا» بشكل منتظم، وموعدها خلال الدقائق القادمة.. أغلق الملف ودلف إلى وحدة العناية المركزة.. فتح «الممرض» الباب من الداخل ليسمح للدكتور «الحارس» بالمرور الدوري على المرضى في الوحدة.

بنظرات جادة وبرود في طرح السؤال، سأل (الحارس): هل يوجد أي مضاعفات للمرضى؟، وهل أظهر أحدهم تحسناً عن ذي قبل؟، رد (الممرض) المرهق وهو ينظر إلى ساعته منتظراً انتهاء ورديته في القريب العاجل: حال المرضى جميعهم كحالهم منذ شهر دون أي تغيير، (الحارس): المريض رقم (٨) حقن جرعة الأنسولين؟، تعلم أن هناك توصيات كثيرة بالإبقاء على حياته، وسُكّر الدم لديه غير منتظم.

(الممرض): سوف تجهَّز الحقنة بعد خمس دقائق، ومن بعدها يستلم الممرض البديل مكاني، وقد سجلت في الكشف موعد الحقنة القادمة، (الحارس): يبدو عليك الإرهاق، أبليت بلاءً حسناً اليوم، ارحل لترتاح وأنا سوف أحقنه بالجرعة المطلوبة، وأبلغ الممرض المناوب بالموعد القادم.

وقف «الممرض» مندهشاً من قلب هذا الدكتور العطوف، رغم جدِّيته.. أشفق عليه لأول مرة من تاريخ تعيينه في هذا المستشفى، لم يصدق خبراً لكي يرحل من المكان مكتسباً دقائق زيادة في وقت راحته حتى مناوبته القادمة، وإن كان وقت راحته جميلاً، لكن هذه الدقائق المجانية لها طعم آخر، وإن انتهت فكأن المتعة تنتهي معها!

دخل «الحارس» إلى الغرفة المبردة، ولبس قفازين مطاطيين ليس من أجل سلامة المريض ويديه، بل ليكون تصرفه طبيّاً بحتاً في حال دخل عليه أحدهم، فتح الثلاجة ونظر بين العقاقير المصفوفة، فوقعت عيناه على قارورة الإنسولين، فتح حقنة جديدة، ثم غرسها برأس القارورة الزجاجية ذات الغطاء المطاطي، وسحب ضعفي الجرعة المطلوبة، ثم أرجع المتبقِّيَ من المحلول إلى الثلاجة.

لم يضرب الحقنة ليخرج فقاعة الهواء من محتواها، بل استفاد من هذا الأمر كذلك، إن لم يتوقف قلبه من الجرعة الزائدة فممكن أن تكون فقاعة الهواء هذه سبب وفاته، خرج بكامل ثقته من غرفة الأدوية الباردة متجهاً إلى السرير رقم (٨) الذي يرقد عليه من كان يعالج المرضى والآن ينتظر من يعالجه ولا علاج لأرذل العمر، لا شيء أقوى من الساعة الرملية التي تنتهي حبيباتها ولا تعود، منذ ولادة الإنسان يتناقص عمره إلى أن يعود طفلاً كما بدأ.

غرس دبوس الإبرة في المحلول المعلق بجانب المريض والمتصل بوريده، بدلاً أن يغرسها في منطقة أسفل البطن المتكتلة فيها الدهون، وضع الإبهام أسفل الحقنة، وقبل أن يبدأ بالضغط، ظهر «الطيف» على الطرف الآخر من سرير المريض، وشعر «الحارس» به لكنه لم يكترث، مع الضغط رحلت الفقاعة الهوائية أولاً من الحقنة إلى الوريد، (الطيف): ما زال القرار بيدك، لا تُطِع الشر وإن كنت تحبه، لا تكن في حزبه، وأنت تعلم ضرره على الخليقة، لا تكن عبداً له ولقلبك الذي عشقه.

أردف (الطيف) حديثه: لم يكترث لك يوماً، وقلبك ينزف دماً خارج شرايينك شوقاً إلى لقائه، لا تقتل بريئاً لم تحن ساعته بعد، نظر (الحارس) ببروده المعهود بين عيني «الطيف» وقال: لن يحيدني حديثك عن تلبية طلبات من أحب وكذلك لم يحرك في شعرة، (الطيف): تعلم أن عاقبة هذا الأمر هي العقاب الذي سوف يحل عليكم ممن لا تطيقون مواجهته، هذا الإنذار الأخير وعليك التوقف الآن.. ران الصمت بينهما للحظات، ثم أكمل (الطيف) حديثه: تعلم أنك لو لوّحت بيدك في الغرب فسوف تغير المناخ في الشرق، (الحارس) بابتسامة جانبية تعبر عن الاستهزاء: «أثر الفراشة»، مفهوم الفوضى الذي دائماً تعولون عليه لن يجدي معي نفعاً، وحكمتك غير مطلوبة هنا، استخدمها مع القادمين الجدد لأعالي الجبال لعلهم يفهمون فيما بعد أنها لن تقدم أو تؤخر شيئاً في حياتهم، مجرد أهازيج وترّهات لكي تطمئن النفس المرهقة مؤقتاً، ثم تعود إلى كآبة الحياة عندما تكون وحيداً تاركاً حديث النفس ينهش داخلك.. أكمل (الحارس) الضغط على الحقنة ليهرب السائل في سباق إلى الوريد: وصلك الرد؟، لن أتوقف!

(الطيف): انتهى وقت الحكمة، وبدأ وقت الفعل، قد فتحت على نفسك ومن تحب أبواب الجحيم، (الحارس) ببروده المعتاد: افعل ما شئت وخذ كامل وقتك به، فمصيرنا الجحيم في الأحوال كلها.. تلاشت ذرات «الطيف» إلى أن اختفت من الأفق، وغادر «الحارس» وحدة العناية المركزة إلى وجهته القادمة.

وهو يسير باتجاه السلالم سمع جلبة، لكن لم يولها أي اهتمام ممكن أن يحيده عن أداء مهمته، ظهر من العدم «ممرضون» يناشدونه لعمل اللازم بسبب استلام مرضى قادمين في عربات الإسعاف التي تجرها الخيول المرهقة، منذرة بليلة طويلة من إنقاذ الحيوات، (الحارس): ماذا هناك؟، (الممرض): أضرمت النار في مخيم كشافة طلاب المدرسة الثانوية، في الخارج يوجد خمسة مرضى بحروق بليغة، وما زلنا ننتظر القادمين؛ حيث إن عددهم أكثر من عشرين مريضاً حسب إفادة سائق عربة الإسعاف.

سأل (الحارس) بتوجس: مخيم كشافة؟، ومن أين هم قادمون؟، (الممرض): من الغابة التي بجانب فندق مقبرة العائلات النبيلة، اتسعت عينا (الحارس): اذهبوا الآن لعمل الإسعافات الأولية وأنا قادم من خلفكم بعد دقائق، تحرك «الممرضون» إلى غرفة استقبال المرضى وهمّ «الحارس» مهرولاً إلى السلالم نزولاً.

وصل إلى السرداب ليجد أمامه باباً تتوسطه لوحة كُتب عليها: «المشرحة»، فتح الباب ليدخل على عجل متجهاً إلى الدولاب الذي طالما أخذ حاجته منه فيما سبق، فتحه وملأ جيوبه بالخيوط الجراحية المطلوبة، ثم شعر بحركة مباغتة من حوله، نظر إلى الجثث التي تنتظر دورها في التقطيع ويده مازالت على باب الدولاب.

تحركت إحدى الأقدام لجثة مستلقية بجانبه، مربوط على إبهام القدم شريط مطاطي موسوم برقم، ذهب إلى الرقم ومسكه لينظر إلى وقت الوفاة الذي كان قبل ساعة من الآن، همهم ناطقاً: تشنجات عضلية.. ترك كل شيء على حاله ليخرج بسرعة من المستشفى مع إلقاء المعطف الأبيض والكِمامة في أقرب قمامة لعله يصل في الوقت الملائم لفندق المقبرة!

الباب السابع

(قبيلة القردة.. بشر!)

(لا تنصت للهمسات التي تلقنك العلم، فإنك قد تكون البيدق الذي يدمر العالم!)

لا يزال «ريكي» في ذاكرة التبت سنة ١٩١٥م:

وقف مقابل كبير المعلمين، وهو يقلب الأفكار في رأسه، سوف يبدأ بعقابه أولاً أم سوف ينظر إلى سبب اختفائه؟، جلس المعلم «لي» مقابل كبير المعلمين، و«ريكي» يقف من خلفه احتراماً وخوفاً مجتمعين، وأخبره بكل شيء منذ انطلاق هالة «ريكي» التي أثّرت في رحلته، وأرجعت طيفه إلى الغرفة، وكيف تحرر طيف «ريكي» من جسده إلى أن انتهى الحال لكليهما بين يديه، سكت (كبيرهم) مفكراً، أغمض عينيه ثم زأر بشدة: اغرب عن وجهي فوراً، ولا تحضر إلى المعبد إلا من بعد أن نرسل في طلبك.

رحل وعقله ما زال في الأفق، في تلك المكتبة السماوية، في الشيخ الأبيض الملقب «بالأمين»، لكن تذكر المصاب القادم، فأصبح قلبه بين يديه يخفق متراقصاً خوفاً وحزناً؛ مما ينتظره في الكوخ الذي سوف ينهار على رأسه، من ذلك الأب الذي لا يسمع قبل أن يفرغ غضبه على بدنه، لا يراه في مراحل حياته، لكن إن رآه يجب أن يحفر ذكرى سيئة في ذاكرته، همس (ريكي): ماذا تفعل يا أبي؟، قد ملأت مخازن عقلي حزناً.

يسير بين البحيرات ولا يرى ماء، وبين البساتين ولا يرى زهراً، وها هو الإنسان لا ينظر إلى الجمال من حوله، ولا ينظر إلى الألوان التي بسطت الأرض وزخرفت السماء، بل يبحث عن الرماديات من حوله التي تلائم مزاجه، ظهر كوخهما في اللوحة التي يسير بها، صغير الحجم لا يلائم العملاق الغاضب بداخله.

فتح الباب فوجده جالساً ويداه مشبوكتا القبضتين فوق الطاولة، وعيناه مثبتتان على الأصابع الملتحمة، قال (ريكي) والخوف لا يمكن أن يخفيه بين ذبذبات صوته: أبي، أرجوك اسمعني ومن ثم افعل بي ما شئت، (والده) بحنق مكبوت: أسمعك.. تحدث وشرح وفسّر بحديث دام لساعات، لكن دون ذكر الهالة والإسقاط النجمي وسجلات الأثير، في نهاية المطاف كان حديثه دون جدوى لتصديقه، ما زال هناك غضب، ويجب أن يخرج، قام من مقامه لينهال على ظهره بحزام بنطاله، وكان من شدة الضربات تظن أنها لمغتصب أو مجرم أو حتى كلب، لم تكن من أب لابنه، لم تكن لتربية أو حب، بل لكراهية وغضب متراكم.

لم يتحدثا بعدها إلا للأمور الضرورية والأوامر المعتادة من مثل: «اذهب للنوم.. وقت الغداء قد حان..» وإذا خرج والده من المنزل: «لا تخرج أبدا.

كان حبيس المكان لمدة ثلاثة أيام، إلى أن جاء الوقت لينظر إلى بشر غيره، حينما خرج «والده» في اليوم الرابع، طُرق الباب وسأل «ريكي» من خلفه عن هوية الطارق، ليجيب ذلك الصوت الذي اشتاق أن يسمعه، من لديه الإجابات عن الأسئلة التي تأكل أحشاءه.

أجاب (الزائر): المعلم «لي»، هل لي أن أجلس معك في الخارج؟، فتح الباب، فاحتضنه بشدة وكأنه الملاذ من مصيبات الدنيا، وبالمقابل وضع «لي» يده على ظهر مُحتضِنِه مربِّتاً ويده الأخرى يمسح بها على رأسه، لكن لم يدم هذا الحنان؛ لأنه وضع يده على جرح ويده الأخرى على رأس مثقل بالهموم، بكى وأجهش بالبكاء لمجرد لمسة حنان من شخص بالكاد يعرفه لأسابيع معدودة.

جلسا على دكة المنزل التي تطل على كل شيء جميل في الحياة الدنيا، ويشوب هذا الجمال وجود «والد ريكي» فيه.. أخبره بما كسب من عواقب أفعاله، وبالمقابل أخبره «لي» بعفو كبير المعلمين عنه مما أذهل (ريكي) تسامح «كبيرهم»: كيف لكبير المعلمين أن يعفو عن زلتي؟، قال المعلم (لي) مجيباً: كبير المعلمين ينظر نظرة شمولية لما هو أهم، حيث إنه أعرب أن ما حدث من مقدرات القدر الذي جلبك إلى عزلتي، لتخوض الصيام مجبراً مما يؤهلك لتفعيل هالتك؛ وبالتالي خروج روحك أو بمعنىً آخر طيفك من جسدك لكي يرحل في الأفق إلى مصيره المكتوب، وأيضاً لا أحد يستطيع ولوج نقطة الثقب الأسود إلا بحالتين، إما أن يكون قد تدرب جيداً لسنين طِوال على هذا الأمر وإلا تكون نهايته للموت في حال الخطأ، وإما أن يكون مثلك، ذا هالة عظيمة تحميه من مخاطر الولوج.

(ريكي): لا أظن أن والدي سوف يصدق كلمة مما قلت، ولا حتى يساندني في هذا الحدث الذي غير حياتي للأفضل، المعلم (لي): هل تسمح للمعبد أن يتدخل لإقناعه؟، رد «ريكي» بالنفي لعلمه المسبق بردة فعل متحجر العقل والقلب!

أخرج (معلمه) كتاباً متآكل الأطراف أصفر اللون باهت المنظر، ووضعه بين يديه: إن لم أستطع أن أدربك بنفسي، فليكن كتابي من يفعل نيابةً عني، اقرأ وتعلم وإن ضاقت عليك الحياة، أو استصعب عليك أمر، فعليك أولاً بالصيام إلا من كسرات خبز تسد بها رمقك والقليل من الماء، ثم الغرفة الظلماء لتحيا في سكون من صخب الدنيا وإزعاج حديث النفس، عندها يلتقي طيفك بطيفي..

أردف (لي) حديثه: وإن لم تجد المكان المناسب في منزلك، فعليك بالساحل، انزوِ بنفسك نائياً عن البشر في بداية رحيل الشمس وانتشار خيوط الظلام، أومأ «ريكي» دون أن ينظر إليه لكي يخفي دموعه التي تهرب من مقلته رغماً عنه، فسقطت في حجره فاضحة البؤس الذي يعيشه وما زال ينتظر الكثير منه في المستقبل القريب البعيد.. ربت معلمه على ظهره، ثم رحل وخرقته البرتقالية ترفرف من على كتفه ملوحة له: «وداعاً إلى أجل غير مسمّىً».

تكملة أحداث عام ١٩١٦م:

صرير الخشب اللعين، تبخرت الذكرى في الأفق ليرجع عقله إلى مكانه الحالي في مكتبة منزله، هناك أحدهم قادم، يرجو ألا يكون من يظن، وبسرعة خاطفة وضع الكتاب الأصفر في درج المكتب ثم أقفله مع إخفاء المفتاح.

فُتِح الباب بهمجية دون استئذان مسبق لينتفض جسده الذي يولي القادم ظهره، صرخ (والده) الذي كان من خلفه و«والدته» متشبثة في كتفه من الخوف: أنت أيها اللعين، ظننا أن هناك لصّاً قد دخل المنزل، ماذا تفعل هنا؟ ألم أحذرك من الاقتراب من مكتبتي، ألم أحبسك في غرفتك لمدة أسبوع؟، لم ينطق بحرف، ورأسه مُنكّس للأسفل مع إغلاق العيون بقوة.. اقترب إليه لينظر في وجهه، فقالت (والدته) راجية: أرجوك رفقاً بالولد، لا تنهره واخفض صوتك، يبدو أن الحالة رجعت إلى نقطة البداية، كما ترى أنه يسير أثناء نومه، سوف أذهب معه إلى فراشه.

وضعت «والدته» يديها اللتين تحملان الطمأنينة بينهما على كتفه لكي تقوده إلى الطابق الأرضي ثم فراشه، لكن لم تنطلِ هذه الخدعة على العملاق لتكون يده أسرع من يديْ والدته في انتشاله من قميص منامته، يجره جرّاً عبر السلالم التي بالكاد تلمسها قدماه، فتح (ريكي) عينه مدعياً الخوف والتيه: أين أنا؟، (والده): أين أنا يا أحمق؟، سوف تعرف قريباً أين أنت.

وكما هي الهواية التي يتلذذ بها والده المربي الفاضل، دخلا في رحابة غرفته ليلقي بجسده المليء بالرضوض على سريره، وانهال بالصفعات والقليل من اللكمات، ولا تخلو هذه الليلة من بهارات البصاق أيضاً، انتهى ثم خرج آخذاً الباب بكامل قوته بيده ليهتز المنزل والمنازل المجاورة في الحي.

هل تفيد الدموع، أو تداوي الجروح، أو تسكِّن الآلام المتفرقة ما بين الجسد والقلب، طبعاً الإجابة نافية البتة، إذاً إلى النوم لنرحل إلى غد جديد لعله يكون أجمل أو أعظم ألماً من اليوم.. التحف ثم أغمض عينه لتسقط دمعة كابد أن يحبسها، لكن عصته وانهالت على وجنته، ثم تغلغلت مع البقعة نفسها التي تراكم عليها الدمع مسبقاً على وسادته..

الروتين الصباحي في الجلوس على طاولة الطعام دون حديث؛ لأن «والده» الذي يمتلكهم يحب أن يقرأ الصحيفة بهدوء، أثناء دهن «والدته» الزبدة على شرائح الخبز ليكون مصدر الإزعاج الوحيد هو احتكاك السكين الفضية بوجه الخبز وهنا تطرح معدته سؤالاً مهمّاً، لماذا يحرك هذا الصوت لعابه وتشتاق إليه معدته؟، الرائحة والطعم هما المحرك الرئيس للُّعاب وليس الصوت!

نظرات ثم ابتسامات فيما بينهما بالخفاء لكيلا ينظر الوحش الكاسر لهما، ويحول هذا المجلس الهادئ إلى معركة ضروس، خرج «ريكي» مع «والده» لكي يوصله إلى المدرسة بعربة الجامعة التي يجرها حصان عجوز لا تتناغم ضربات حوافره مع الأرض، ويرجو (ريكي)
ألا تكتشف «والدته» قطع الخبز التي رماها باتجاه قطته «لونة» بجانب باب المنزل: عذراً يا أمي، لكن ولدك لديه أعمال أهم من الأكل.
مر اليوم كأنه كل يوم، لا متعة فيه ولا زيادة إلا من تراكمات الهموم الثِّقال، بعد أن عاد إلى المنزل سيراً على الأقدام،

وكان «والده» قد أبلغهما أنه سوف يبيت خارج المنزل ليكمل أعماله المتأخرة في مكتبه الجامعي، وهل يملكان أن يرفضا؟، بل هو أمر وعليهما القبول به، وبالنسبة له شخصيّاً، عليه أن يكتب رسالة شكر للجامعة؛ لأنهم أبعدوه عنهما وعليهم أن يزيدوا الأعمال التي تجعله يرجع إلى المنزل مرهقاً لا يستطيع أن يضرخ أو يضرب أحداً، ما يهم الآن أن الوقت قد حان لكي يستفيد من هذه الفرصة التي لا تقدر بثمن .

دعته «والدته» إلى الغداء، لكن تعذّر بالفروض المدرسية المتراكمة ليفلت من قبضتها، لأن هذه المرة والده غير موجود في المنزل؛ وبذلك سيكون الطعام إلزاميّاً من الصحن إلى فمه عنوة مع لمساتها الحنونة على شعره.. قبل أن تغيب الشمس ذهب إلى مكان «والدته» التي تحب أن تجلس فيه قبل كل شفق.

تغطي نصفها السفلي باللحاف الأحمر، وتهز الكرسي الهزاز باسترخاء تام لا كلام فيه، وهذا أفضل وقت للطلب؛ حيث إن المزاج يكون في صفاء، قال لها ووجهه تملؤه البراءة: أمي أنهيت فروضي المدرسية كلها، هل لي أن أذهب إلى الساحل لألعب قليلاً؟، وأقسم لك إني لن ألمس الماء أبداً.

نظرت إليه بوجه باسم بهيّ وكأنه معشوقها الأوحد: اذهب واستمتع بوقتك، لكن لا تتأخر وتقلقني عليك، أجاب بسعادة، وهو يحضن كتفها: لك ذلك يا أجمل نساء الأرض، قَبّلت وجنته ثم رحل وهو يشعر أن هناك عيوناً تنظر إلى ظهره، وترجو الرب أن يحميه من شرور الدنيا ومن يسكنها.

وصل إلى تل يطل على البحر اللُّجّي والشمس قد ذاب نصفها في صفحة المحيط، فخلطت ألوانه ما بين الأزرق وحُمرتها، جلس متربعاً، فتأمل ثم سحب عبق أنسام الساحل في جوفه ليخرجه في بطء، ثم وضع قبضتيه على ركبتيه وأنزل جفنيه، لا أحد هنا ممكن أن يقطع خلوته، إذاً حان وقت الرحيل.

خرج طيفه متشقلباً في الهواء، فرحاً يلهو في الأفق، إنها الحرية التي اشتاق إليها، حلق (ريكي) فوق المحيط مخترقاً أضواء الشفق الخلابة قائلاً: وعدتك يا أمي أني لن ألمس الماء، ولكن كان الوعد على جسدي وليس طيفي، غطس في بقعة اللُّج لينظر إلى منبع الراحة النفسية، تناغم بين الماء وكل ما يحتويه، أقوام يسيرون في أسراب مجتمعة، والمرجان قد تنافس في جمال ألوانه، لكن من يعكر صفو هذه السعادة غير قرش ليس بجائع، لكن يجد متعته في أذية الآخرين، وكأنه سوف يحصل على جائزة متنمِّر المحيط الأول.

خرج من الماء راحلاً إلى أعالي الجبال، بل إلى قمتها ليقف على الإيفرست، وهو ينظر إلى «معبد جوكهانغ» وكأنه وجهة تحتاج أياماً متواصلة لكي يصل إليها، لكن ليس بهذه الحالة الخارقة، قفز من موضعه ليكون في دقائق مقابل بابه متأملاً السلام المنبعث من داخله، ها هو هناك في ركن منزوٍ يُقلّم شجرة عجوزاً، ينتزع عنها أشواكها وأوراقها التي عجزت أن تسقطها، وعلى يديه الحنونين سوف تعود إلى ريعان الشباب، (ريكي): كم أحبك يا معلمي وكم اشتقت إلى هدوئك.

توقف (لي) وكأنه شعر بوجود أحدٍ من خلفه، دون أن يلتفت همّ بسرعة إلى غرفته المظلمة، فجلس مع أخذ نفس عميق ليدخل في حالة الإسقاط بأسرع وقت ممكن، وما هي إلا دقائق إلا وخرج طيفه مقبلاً على طيف زائره: أهلاً بولدي الذي أفتخر به، أعلم أنك لن تطيل الغياب، لكن هذه المرة خيبت ظنوني، كيف لك أن تهملني لمدة شهرين متواصلين؟، أجابه (ريكي) ورأسه مُنكّس آسفاً: تعلم يا معلمي شدة والدي معي لم يكن لدي حيلة ولا مكان لكي أطلق طاقتي وأشد الرحال إليك، لكن ما يهم الآن أنا بين يديك؛ لأنهَل من علمك الذي اشتقت إليه.

احتضنه (لي) معبراً عن امتنانه لوجوده: ماذا تريد أن تتعلم اليوم؟، ظهر الشغف على محيا (ريكي): اليوم أريد أن أزور «الشيخ الأبيض» فلدي الكثير من علامات الاستفهام التي أصابتني بالدوار من شدة دورانها حول رأسي، (لي): لك ذلك، هيا بنا.
نور وسط الظلام الحالك، هالة مشعة من وجهه البهي، مريح للناظرين، يُعدِيك بابتسامة تخرج مرغمة بمجرد أن تنظر إليه، (ريكي): أهلاً بالشيخ الأبيض، كم اشتقت إلى لقائك، (الشيخ الأبيض): ونحن نشتاق لمن يحب لقاءنا، تفضلا أيها الكريمان.. فُتحت البوابة العظيمة لينبثق شعاع النور مبدداً الظلام من حولهما، ويرسم طريقهما للداخل.

لا يريد (ريكي) أن يخسر الوقت، فأخبره على عجل بطلبه: شيخنا هناك جدل على نظرية قد حازت انتباه الجميع، المتدينون حاربوها بكل ما أوتوا من قوة، والضالون تبنَّوها وكأنها تفسير لكل ما يقع تحت اللا منطق.
أردف (ريكي) حديثه: النظرية التي وصل المتحاربون عليها حد القضاء ويمكن أن يتجاوز ذلك، ويصل إلى حد القتل، «نظرية داروين» من كتاب «أصل الأنواع».

همهم (الشيخ الأبيض) ثم قال: سوف أجيبك لكن ما رأيك أنت بذلك؟، فاجأه بالسؤال فرد عليه مجيباً: ليس من الحكمة أن أنحاز إلى جانب، وأنا أجهل الكثير في أصل الموضوع، لكن من ناحية الفطرة، فإنها نظرية مُنفِّرة، ولا يستسيغُها عقلي.

أجابني (الشيخ الأبيض): لذلك سألتك، النظرية في مجملها أي ثلثيها صحيحة؛ لأنها تشرح وتبين كيفية تطور الكثير من المخلوقات على مر الزمان، ولكن الجزئية الخاصة بالنشوء والارتقاء البشري دمرت النظرية بالكامل.. «داروين» قد تلقاها من قوة قد أقسمت أن تدمر البشرية قبل أن تنزل إلى الأرض، كانت تأتيه في وقت خلوته وفي منامه، وتملي عليه ما يجب أن ينقله إلى العالم ليزيد تضليلهم.

أردف (الشيخ الأبيض) حديثه: الآن زاد يقيني بأنك مختلف عن البقية، مجرد نفورك من النظرية بسبب فطرتك، هذا بحد ذاته حكمة.. بدأ كل شيء يتهاوى من حول «ريكي»، مسك المعلم «لي» يده بسرعة، وعادا إلى الأرض، ولم تكتمل عودته؛ لأنه شعر وكأنه يسقط في هاوية لا قرار لها!

الباب الثامن
(غسق لُجّة)

(كأني أراكِ براقةً في عين القمر، شكراً للقدر، الذي أهداكِ لي من دون البشر..)

لقاء المصادفة المُدبّرة عام ١٩١٦م:

مستمر في السقوط وجسده ينهار، انتابه صداع شديد ووخز بسائر جسده، وميض كاد يعمي بصره، حتى بصيرته انطفأت.. فتح عينه بصعوبة ليجد أحدهم يمسك كتفه، ويهزه بقوة قائلاً: يا ولد ما بك؟، تكلم أرجوك، هل أستدعي الطبيب؟، بدأ الضباب حول مقلته يتلاشى لينظر إلى فتاة، معقودة الضفيرتين باللون البني المائل للحُمرة، ولم يرَ امتزاج ما بين لونين كما هو لون شعرها وعينيها اللتين ينظر إلى انعكاس وجهه داخل خلية عسل، ها هو شاب صغير الوجه، يميل إلى إعطاء انطباع بعمر أقل من عمره، شعر مُظلم مصفوف الجانب، عينان مكحولتان بسبب كثافة رموشه التي تطوقهما وكذلك الحاجبان الأسودان على بشرته البيضاء.

فقال (ريكي) في خلده: هل أنا جميل أم عيناها من جمّلني هكذا!

تأمل الفتاة البيضاء، إنها كغيمة يشوبها المُزن، بسبب وجهها الملطخ بحبيبات النمش المنتشرة حول أنفها الطويل الذي زاد تناسق وجهها، لكن يرى أن هذا النمش زادها حُسناً وجمالاً، صوتها الذي خرج من شفتيها الورديتين الصغيرتين يخترق أذنه، وما زالت تهز جسده بقوة يرتج معها المخ في مائِه.. قال لها (ريكي) بغضب: ماذا تفعلين يا حمقاء؟، (الفتاة) عابسة الوجه:

أقسم سوف أصفعك على وجهك القبيح، هل أنت مجنون؟، ماذا تفعل هنا طوال هذا الوقت؟، أجابها (ريكي) بالحدة نفسها: لا دخل لك، أقلتِ كل هذا الوقت؟، كمِ الساعة الآن؟، أخرجت (الفتاة) ساعة مكسورة الزجاج الأمامي معلقة بسلسالها في جيب فستانها الأزرق: الحادية عشرة مساءً، منذ غروب الشمس إلى الآن وأنت جالس بالهيئة نفسها، والدايَ شكّا في أمرك، وظننا أنك ميت ومتحجر في مكانك، حتى كاد والدي أن يحضر الشرطة، لكن قررنا أنا ووالدتي الانتظار لعلك تفيق مما تفعله..

وصل إلى منزله وهو يلهث بجبين مُندّىً، خفف خطاه لأن «والدته» كانت جالسة على الهيئة نفسها التي تركها عليها، اقترب بحذر فوجدها مائلة الرأس، وقد أخذتها السِّنة بفم مفتوح، ولعاب ما زال يجاهد ملبياً طلب الجاذبية للسقوط، تسلل إلى داخل المنزل، واغتسل ثم لبس منامته، وبعثر شعره ثم خرج إليها مرة أخرى، هز (ريكي) كتفيها منادياً: أمي.. أمي، انتفضت وكادت أن تسقط من على الكرسي، (والدته): ماذا؟، هل أبوكـ رجع إلى المنزل؟، أجابها بالنفي وقال: ساعتان وأنت نائمة في الخارج، ولم يطاوعني قلبي أن أوقظك من سباتك الذي لطالما نغصه عليك والدي، هيا إلى سريركـ، أوصلها ثم ألقى عليها اللِّحاف وقبّل ما بين عينيها، خرج من غرفتها وهو يبتسم ابتسامة النصر الخبيثة.

دلف إلى سريره ليسترجع أجمل ذكريات اليوم ما بين الطيران والعلم ولقاء الأحبة، نام بعد الذكرى قرير العين في براءة مطلقة.. في الصباح الباكر تجهز للمدرسة، ونزل بسرعة من السلالم التي كادت أن تغدر به لولا الدرابزين الذي أوقف الكارثة المحتملة،

وجد «والدته» قد أعدت الإفطار، وكانت ترتشف من الشاي في كوبها المزخرف بكل هدوء، وقد حضر من بعثر هذا الهدوء إلى إزعاج، قبّلها (ريكي) مُرحِّباً: صباح الخير أمي الغالية، ثم مسك كسرة خبز مولياً الطاولة ظهره للمغادرة، (والدته): انتظر، أعلم أنك لن تأكل كعادتك، خذ هذه الشطيرة لتأكلها في طريقك، أخذها وخرج على عجل، لأنه سوف يذهب هذه المرة بكرامته للمدرسة سيراً على الأقدام، خيراً من توصيلة تملؤها المهانة، وإن كانت وسط صمت!

على الشارع يسير بسعادة وهو ينظر إلى على الشارع يسير بسعادة وهو ينظر إلى جمال الشارع لأول مرة في حياته، لأول مرة ينظر إلى أشجار الصنوبر بأغصانها التي تتمايل مع النسمات وهناك قوالب على شرفات المنازل مُلئت بالورد بجميع ألوانه، وهو يوزع ناظريه بين درجات الألوان من حوله، وقع بصره على «فتاة» تنظر إليه مرسلة غضبها عبر الأثير، كراهية قلبت المزاج الجميل إلى شعور متبادل، إنها مدمرة اللحظات الجميلة، هادمة اللذات، إنها من كادت أن تفصل طيفه عن جسده دون التحام إلى الأبد.

حدّث (ريكي) نفسه: إنه منزل «آل فيرنانديز»، أظنها ابنتهم، أكمل طريقه وما زال يشعر بنظراتها تنهش ظهره، وصل إلى المدرسة، وكان يوماً عاديّاً مِلؤه التنمر والفروض المنزلية مُنقِصة لذة الحياة.. لم تخرج تلك «الفتاة» من باله؛ ولذلك صب أنظاره باتجاه منزلها وهو في طريق الرجوع، ولم يخب ظنه لأنها تنظر إليه من النافذة وكأنها لم تتزحزح منذ اللقاء الأول.

بادلها النظرات التي نطقت بمكنون القلب: أكرهك، أمقتك، ليتك أمامي لأصفعك.. نكس رأسه للأسفل، وأكمل طريقه ويداه في جيبَيْ بنطاله، فَتحت «الفتاة» النافذة ولم يعرها انتباهاً.. توقف «ريكي» لأنها أصابت ظهره، توقف والغضب قد تمكن منه، حاول أن يسيطر عليه، لكن سطوة الغضب كانت أكبر، وكم من مصيبة حلّت بسببك يا غضب.

التف جسده لينظر إليها بشرر متطاير، نزل وأخذ ما رمته به، أرجع قبضته للخلف ليرميها به لولا أنها وضعت يديها على فمها ثم لوّحت بلا تفعل، دُهش من فعلها، نظر لما بين يديه وإذ بها ورقة وبداخلها كرة من الصوف تم استخدام معظمها حتى تقلصت.

أغلقت النافذة، ورحلت عن الوجود، وضع الكرة في جيبه وبيده الرسالة التي أصبحت كرة أصغر من ذي قبل، أكمل طريقه إلى أن وصل إلى شرفة منزله، جلس على الكرسي الهزاز، ثم فتح الرسالة:

«محتوى الرسالة»

صديقي الأحمق كدت أن توقف قلبي خوفاً عليك، ماذا كنت تفعل في الأمس وحدك في هذا الظلام؟، أظن أنك دخلت في مرحلة الجنون، والسبب واضح حيث إن والدك لم يتوان في أذيتك في المنزل وخارج أسواره.. هذه أول رسالة من بعد سنة من مراقبتك وأنت لم تعرني انتباهاً.. يا.. صديقي.. الأحمق!

«بالمناسبة: اسمي «فلوريا فيرنانديز»

دمت بخير وسعادة..

أغلقت النافذة، ورحلت عن الوجود، وضع الكرة في جيبه وبيده الرسالة التي أصبحت كرة أصغر من ذي قبل، أكمل طريقه إلى أن وصل إلى شرفة منزله، جلس على الكرسي الهزاز، ثم فتح الرسالة:

«محتوى الرسالة»

صديقي الأحمق كدت أن توقف قلبي خوفاً عليك، ماذا كنت تفعل في الأمس وحدك في هذا الظلام؟، أظن أنك دخلت في مرحلة الجنون، والسبب واضح حيث إن والدك لم يتوان في أذيتك في المنزل وخارج أسواره.. هذه أول رسالة من بعد سنة من مراقبتك وأنت لم تعرني انتباهاً.. يا.. صديقي.. الأحمق!

«بالمناسبة: اسمي «فلوريا فيرنانديز»

دمت بخير وسعادة..

فتاة مدللة حمقاء.. قالها (ريكي) في همس، ثم أرجع الرسالة إلى قبضته، ومنها إلى جيب بنطاله، وأكمل طريقه إلى داخل منزل الكآبة ومصدرها «والده» المتعلم المثقف مربي الأجيال،

حدّث (ريكي) نفسه: يا ليته يختفي أبد الدهر، لأن الحياة جنة من دونه، وجد «والدته» منهمكة في ترتيب المنزل فسألها: أين «والدي»؟،

(والدته): حضر في الصباح الباكر بعد رحيلك، أخذ احتياجاته الضرورية، ثم رحل في رحلة عمل إلى مدينة تحمل في بطنها تاريخاً، تهلل وجهه وابتهجت أساريره من هذا الخبر الذي بدّل مزاجه من الخوف إلى السعادة.

دعته إلى تناول وجبة الغداء، لكنه أخبرها بأن شطيرتها قد ملأت فراغات معدته ولا مكان لطعام، والحقيقة أن الشطيرة كانت من نصيب «حارس المدرسة» لعل هذه الرشاوى تفيده وقت الحاجة.

مستمر على الصيام إلا من قليل الماء وكسرات الخبز التي تسد رمقه، أنهى فروضه المدرسية، ثم استأذن «والدته» للذهاب إلى الساحل، وأثناء المشي إلى وجهته، حاول جاهداً عدم النظر إلى نافذة منزل «فلوريا» القريب من منزله، لكن عينه كانت تعصيه بكل جبروت، ينكس رأسه فترتفع عيناه مرغمتين، ينظر إلى اليسار لمفاداة موضع النافذة، فتستغل عينه الزاوية المقعرة في البؤبؤ لتختلس النظر، استسلم وأطال النظر مع تقارب الخطا، ليجدها جالسة في شرفة الطابق الثاني بكل استرخاء وبين يديها كتاب.

رفعت «فلوريا» رأسها، فاستقرت الأعين بعضها في وسط بعض، كانت العيون تصرخ لهفة لا مبرر لها، أغلقت كتابها، ثم وقفت تنظر إليه في بلاهة، أنزل رأسه ووضع يديه في جيبي بنطاله وأكمل الخطا، لكن ليس كما خرج من منزله أول مرة، لأن قلبه بعد هذه النظرة يكاد أن يخرج من قفصه!

(ريكي): لمِ هذه المشاعر المربكة؟، لا أعلم!، وصل إلى طرف الساحل والشفق في أولى مراحله، جلس متأملاً جمال الطبيعة البحرية، وأخذ عقله في طرح التساؤلات الغريبة وكأنه في حضرة «الشيخ الأبيض»، لماذا البحر مصدر راحة في هدوئه؟، كمِ من أقوال وشكوى قد سمِع؟، كمِ مقدار الهموم التي قُذِفت في جوفه؟، هل المحيط بهذا الحجم بسبب الماء أم بسبب وزن الألمِ الذي تركه البشر من خلفهم قبل أن يرجعوا إلى حياتهم الطبيعية؟!

ذبذبات اخترقت خلوته لخطوات خجولة من خلفه، نظر إلى القادم الذي قال: صديقي الأحمق، ماذا تفعل هنا وحدكَ؟، أم أنكَ على موعد مع أحدهم؟، قال (ريكي) بلا مبالاة، وهو ينظر إلى البحر معرضاً عنها: لا دخل لكَ، ماذا تريدين؟، (فلوريا): وكأنكَ تملكَ البحر وساحله، أريد أن أجلس هنا، ووجدتكَ في طريقي مصادفة، (ريكي) قهقه: مصادفة!، وأين والداكَ؟، (فلوريا): لا يعلمان بخروجي، سوف أعود إليهما قريباً.

جلست (فلوريا) بجانبه دون استئذان: صديقي الأحمق، ماذا كنت تفعل في الأمس قد أقلقتني عليك؟، (ريكي): لا دخل لك في أفعالي، منذ متى وأنت تراقبينني هكذا؟، (فلوريا): أحمق، وغبي!، لا ألوم والدك إذا عنّفك، قلت لك برسالتي منذ سنة، أعلم أنك من آل بوربون فوالدتي دائماً تزور والدتك وأحياناً أحضر معها، لكنك لم تخرج يوماً من غرفتك لأنظر مباشرة إلى وجهك البغيض، آخر مرة زرنا منزلكم كانت قبل يومين للاطمئنان على حمل والدتك، (ريكي) وقف ريقه في بلعومه، واحتبس معه النفس: والدتي حبلى؟!

(فلوريا): والدتك ولا تعلم أخبارها؟!، تجمد الوقت وران الصمت في المحيط إلا من صوت مداعبة الموج للصخور المحيطة..

(فلوريا): حان وقت الذهاب، قالتها وهي تنظر إلى وجهه الذي بالمقابل ينظر إلى نقطة اللا نهاية ما بين الشمس المغادرة واللُّج العميق.

(فلوريا) مدت يدها: هل من الممكن مصافحة صديقتك؟، صافحها والتردد واضح من اهتزازات يده التي تكابد للثبات، صافحته لكن لم تصافح يده، بل مسكت قلبه بيدها الناعمة، حدّث (ريكي) نفسه: لم هذه المشاعر؟، لم قلبي يرقص فرحاً؟، نظرت في عينيها اللتين طغى جمالهما على جمال المحيط بلونه البرتقالي، وها أنا في وسط محيط العين أغرق، أحاول الثبات لكن كان قلبي قد تغلب على عقلي.. نادت (فلوريا) اسمي لأول مرة، ولأول مرة أحب سماع رنين اسمي من صوت أحدهم: ريكي.. إلى متى تريد أن تمسك يدي.. فك قبضته على عجل، لتقوم من مقامها وهي توليه ظهرها: إلى لقاء قريب يا صديقي.. الأحمق!

أغلق عينه مع تنظيم الشهيق والزفير للدخول في حالة الاسترخاء.. إلى أن وصل للمحاولة الخامسة دون جدوى، عندما ينزل الجفن ليدخل في غرفة الظلام من خلفه، يظهر بريق عينيها فيتبدد الظلام بنور محياها، لا إسقاط اليوم ولا متعة في سجلات الأثير، (ريكي): تبّاً لك يا «فلوريا».

رجع إلى منزله خائباً من يوم ذهب سدىً، ولم يستفد منه، وفي الصباح أكمل صومه مع الأعذار المعتادة التي يمليها على «والدته» التي ما زال ينتظرها لكي تخبره عن حبلها الذي تخفيه، (ريكي): ولماذا تخفيه على يا ترى؟!، خرج من المنزل ليجدد الهواء في رئتيه ويلمس شعاع الشمس بوجهه مع قشعريرة الصباح اللذيذة التي لا يفسدها إلا ذات الضفيرتين التي تنتظره على الشرفة وهي بكامل أناقتها، (ريكي): ولماذا هي متأنقة هكذا للمدرسة؟!، رمته بورقة جديدة، حملها ثم أومأ لها، وردّتها عليه بتلويحة من يدها الصغيرة، انعطف مبتعداً عن نظراتها التي شعر بها تلاحقه، وفتح رسالتها:

«محتوى الرسالة»

صديقي الأحمق قد استمتعت بالحديث معك في الأمس، هل تبادلني الشعور؟، وهل تحدثت مع والدتك وعن سبب إخفائها خبر الحبل عليك؟، ولا تنس أن تربط خيط حذائك لكيلا تسقط وتنكسر رقبتك الهشة، وإذا كنت لا تعرف كيف تربطه فأبلغني لأعلمك في لقائنا القادم.

صديقتك «فلوريا فيرنانديز»

ختاماً: اختر السعادة دوماً، فإنها مُعدية لمن حولك..

ابتسم من شدة السعادة التي غمرته، (ريكي): أهي أمي أم صديقتي أم أختي أم ماذا؟!، لا أعلم.. لكن كل ما يهم أنني أشعر بالسعادة من تصرفها، وفي الوقت نفسه أريدها أن تبتعد عن طريقي؛ لأنها من يشتت انتباهي عن الإسقاط والسجلات الأثيرية، سواءً في حضورها وحتى في غيابها مرتكزة في الذاكرة لا يغادرني محياها أبدًا.

الباب التاسع
(صغير القوم .. شيطانهم)

(لا تغرِك البراءة، فتقع في فخها، إما عاشقاً لها، وإما فريسة بين أحضانها..)

حريق غابة الكآبة بجانب فندق كازاميلا - سبتمبر ١٩٥٢م:

رغم موجة البرد العاصفة التي اكتسحت الأفق وصل «الحارس» إلى مشارف الفندق ليتحقق من سلامة نزلائه، كان كل شيء على ما يرام، ما عدا باب السور الذي كان مفتوحاً على مصراعيه، تقدم إلى وسط الحديقة ليجد هناك بقعة سوداء من أثر الحريق والرائحة معلقة في الهواء من حوله، فنطق بهمس: «شيطانة الموتي»!، بالتأكيد هناك من أطفأها، نظر إلى تمثال الرجل العملاق الجالس على عرشه ليجد عليه كلمات بذيئة مكتوبة حديثاً بالصبغ الأحمر، رحل إلى غرفته ليأخذ قسطاً من الراحة؛ لأنه كما هو الحال، لديه أعمال تنظيف وتشذيب في الصباح الباكر.

حدث قبل ساعة من حضور الحارس:

جميع نزلاء فندق كازاميلا في قاعة الطابق الأول في رقص وسمر على أنغام الموسيقى للفرقة التي تهيّج أبدانهم طرباً، مع أنها ما زالت الخيوط تحاول جاهدةً على التماسك لربط أعضائهم بعضها ببعض، والبعض الآخر ما زالوا في صف الانتظار مقابل العيادة التي اكتظت بالحالات المستعجلة والدكتور يصرخ غاضباً من الفوضى في محيطه.

تقدمت (صوفيا) إلى طاولة «ماثيو»: تعال لتراقصني، ثم مدت يدها بدلال، ليقطفها «ماثيو» بنعومة لا تخدش جلدها الباهت، وضع يده على خصرها ممسكاً بيدها الأخرى، وبدأا بالتمايل على أنغام الإيقاع الذي هدأ ليوصل الحاضرين إلى درجة عالية من الرومنسية، اقتربت «صوفيا» بجسدها أكثر ليلتصق الصدران بعضهما ببعض، ثم مسكت يده لتضعها خلف ظهرها؛ مما اتسعت معه عينا «ماثيو» دهشة وخجلاً.

(صوفيا) وفمها على أذن «ماثيو» تهمس مع نفث الهواء بداخلها مما قشعر بدنه: أخبرتك مسبقاً أنني سوف أحكي لك حكاية فندق كازاميلا الذي بات فندق المقبرة، مقبرة تليق بالأسر النبيلة، حكايته بدأت من الحب، لكنه حب لا ينتهي على مر الزمان، بل مستمر إلى نهايته، اشتراه «المدير» ذلك النبيل جميل المحيا الجالس هناك، من أجل معشوقته.

أردفت (صوفيا) همسها: ولأجلها أكمل صنع ساعة البرزخ بتروسها التي أضفت جمالاً فوق الجمال، بسبب تروسها الحديدية المتعاضدة من خلف الزجاج التي تعمل دون توقف، ويا ليت القلوب كذلك!

(صوفيا): لكن ما جعل عمل ساعة البرزخ صعباً إلى درجة القلق هو تغذيتها بالأرواح التي تعطينا يوماً واحداً نعيشه مقابل كل روح تبتلعها، لعنة لكن فيها حياة لنا جميعاً.. أبعدت فمها عن أذنه لتنظر وسط عينيه بأنوف شبه متلاصقة، ثم قالت: ألا تشعر بالحب في محيط كازاميلا؟، «ماثيو» ينظر إلى عينيها، دون أن ينطق بحرف واحد، لكن عينيه قد فضحتا مكنون قلبه.

التساؤلات ما بين كتفه الأيمن الذي يحمل ملاكاً والأيسر الذي يجلس عليه شيطان ذو قرنين، أحدهما يسأل عن خطيبته «ماتيلدا» والآخر يوسوس بشغف للدخول بأحضان من هام القلب لها، أبعد عينيه عنها قبل أن يقع في الخطيئة، حيث إنه لم يحسم أمره بعد..

وزّع أنظاره للجميع إلى أن سقطت عيناه على «المدير» الذي جلس بكل شموخ في زاوية القاعة واضعاً رجلاً على رجل لكن كان جل انتباهه على البريق الذي يشع من عيون «ماثيو» و«صوفيا»، لكن عندما تلاقت عينه بعين «المدير» لم يعطِ أحدهما للآخر أي انطباع.

أبعد «ماثيو» عينيه عنه، ونظر إلى «المديرة» المبتهجة بترتيباتها للحفل، وكأنها فراشة تنتقل من بستان إلى آخر، تنثر المكان من حولها سعادة، تراقص هذا وتلعب مع الطفل ذاك، ثم تذهب مقابل «المدير» لترقص من أمامه، وتحتضنه بكل حب وهو جالس على هيئته، فبادلها الاحتضان بذراعه، تتركه وتكمل رقصها إلى أن اقتربت من «صوفيا» و«ماثيو»، ومن غير أن تنطق بحرف، احتضنتهما مما ألصقت معه شفاههما دون انتباه.. ابتعدت «المديرة» لكن لم تبتعد شفاههما، في لحظة توقف فيها الزمن والصخب، وكل شيء من حولهما، بلحظة وقع المحظور الذي كان «ماثيو» يضارع جليس كتفه الأيسر لكيلا يلبي نداءه!

ما قطع هذا الالتحام هو صرخة من الطابق الأرضي؛ مما جعل الفوج السعيد يهرع إلى الأسفل من المخارج جميعها للنظر إلى الجلبة التي حدثت، نظر الثنائي من النافذة المطلة على الحديقة وإذ برجل يشتعل صارخاً مهرولاً إلى خارج أسوار الفندق.

قبل قليل.. أثناء الحفل:

تنظر (هايدي) نظرة الصقر الذي انتهى من سن منقاره في حينه، ويريد أن ينقض على فريسة طالما اشتاق أن يلتهمها: حان وقتك يا عجوز النار، وأخذ لسانها يخرج ويدخل كالأفعى الرقطاء، تنتظر لحظة الغفلة لكي تقتلع عينها.. تنظر إلى المتراقصين تارة، ثم تنظر إلى العجوز تارةً أخرى.. لكن شعرت بحركة غريبة، وهي تقف بجانب النافذة.

هرولت إلى أحد الكراسي، فدفعته إلى النافذة لكي تكون الرؤية أوضح من منتصفها، تنظر إلى المخيم الذي صخب بالغناء من الغابة القريبة من الفندق، وهناك من سعّر ناراً، ومنهم من يجهز قطع اللحم للشواء، والآخرون يرقصون على أنغام مسموعة.

انتقلت الرؤية إلى المحيط، هناك اثنان انشقا عن صفوف المخيم، متجهين إلى الفندق. تركت مكانها لتنتقل إلى الطابق الأرضي خلسة، وبسرعة وضعت الكرسي لتنظر من طرف النافذة إلى هذين اللذين تسلقا السور، ثم هبطا إلى داخل الحديقة يوزعان أنظارهما في محيط الفندق وكأنهما يبحثان عن شيء...

وقعت أنظارهما على التمثال العملاق للرجل المبجل، سارا بحذر إلى أن وصلا إليه، فقام أحدهما بفتح حقيبة الآخر المعلقة على ظهره ليخرج علبة دهان صغيرة وفرشاة.. نزلت (هايدي) من مقامها، ثم ذهبت لساعة البرزخ، وهي تبرز جميع ملامح الشر على محياها الضاحك وحاجبيها اللذين نزلا على عينيها، قالت مخاطبة الساعة: هناك من يهين صانعك، إذاً فلتغذِّ روحه جوفك.

فتحت باب العيون الراصدة بهدوء، ثم ركضت إلى المطبخ مقهقهة، فتحت الخزانة على عجل، والتقطت علبة معدنية كُتب عليها «جازولين سريع الاشتعال» تعلم مكانها مسبقاً؛ لأن «المديرة» تستخدمها أحياناً لتحرق الرسائل التي تكتبها ولا تكملها، وبالمقابل لا تريد لأحد أن يطلع عليها.

ثم بحثت في الأرجاء عن أعواد الثقاب، فوقعت عينها عليها، هرولت وأخذتها والعلبة المعدنية في إبطها، وهمّت إلى المصعد ثم إلى الطابق الخامس، وسحبت الكرسي إلى النافذة المطلة على رأس الشابين، ثم فتحت النافذة لتنظر إليهما بسرور الانتقام، شر متطاير من وجه بريء.

سكبت محتوى العلبة على رأس أحدهما مع ذرات متطايرة على ثياب الآخر، مما أفزع الاثنين لينظرا إلى موضع الانهمار، لكن «هايدي» لم تمهلهما هذه النظرة؛ لأن هناك شعلة قد هاجت من بعد الاحتكاك، قادمة من الأعلى تحمل بين طياتها عقاب الانتقام من طفلة أبت أن يُنتهك منزلها، وحتى إذا لم ينتهك فهي تتلذذ بالانتقام من الجميع!

مع تلامس عود الثقاب المشتعل طرف الجازولين المسكوب في محيط الاثنين، غدا جنين الشعلة في لمح البصر في سن الشباب، تعاظمت النار الصغيرة لتصبح شعلة من النور أضاءت المحيط، اللهب يتراقص في بؤبؤ أخضر بريء، ينظر إلى هذه اللوحة بكل حب من مرتفع الانتصار.

صرخات الألم من شاب يشتعل من أعلى رأسه إلى أسفله والآخر يريد أن يساعده، لكن النيران التي غطت ملابسه جعلت الأولوية في النجاة لنفسه قبل غيره، زادت صرخات الألم من الأول ليسقط على الأرض يتلوى بين التراب لعله يستطيع أن ينجو من مهد النار، والثاني قرر أن يرجع إلى المخيم راكضاً، وهو يطفئ النار التي وصلت إلى وجهه.

التحام القُبلة انفك بعد ما سمع الجميع الصرخات القادمة من الأسفل، نزل الجميع من كل المخارج القريبة منهم ليجدوا روحاً هائمة في محيط الطابق الأرضي وظلالاً سوداء تمد أيديها ذوات الأظافر المسنونة لتلتقط غذاءها، نظروا للباب المفتوح وإذ بجثة متفحمة على الأرض ثم نظروا إلى المصعد الذي فُتح لتخرج «هايدي» وبيدها علبة الجازولين، قالت (المديرة): حتى أمير الظلام لا يفكر مثلك، ردت عليها (هايدي) بصوت يشبه الفحيح: عينك لي يا شمطاء!

كانت «صوفيا» بالمقابل تنظر إلى «ماثيو» الذي كان يقاوم بقوة ظلاً يحاول أن يغادر جسده، وقد نجح «ماثيو» في حبسه هذه المرة.. توجهت الأعين إلى النافذة بسبب الصرخات المستمرة من مكان قريب، كانت النار قد وصلت إلى المخيم، من ذهب لطلب النجدة، ذهب لينقل عدوى النار إلى أعداد أكثر، حيث إنه أشعل المخيم كله عن بكرة أبيه؛ بسبب الخيام الرديئة القابلة للاشتعال.

وبسرعة أطفأ الجميع الشموع المشتعلة داخل الفندق، ثم أوصدوا الباب ذا الأعين الراصدة، وتمركزوا على النوافذ في الطوابق جميعها، (المدير): إياكم ثم إياكم أن يخطئ أحدكم، فتكون نهايتنا كلنا!.. مرت الدقائق وكأنها دهر على المحترقين، وعلى نزلاء الفندق كذلك. وصلت عربات تجرها الخيول محملة بالماء من المدينة، وتعاون معها المدن المحيطة بالغابة لإخماد النار التي كادت أن تلتهم الغابة، وتتعاظم إلى أن تصل إلى مدنهم معلنة الهلاك العام للجميع، وتزامن ذلك مع وصول الشرطة وعربات مخصصة لنقل المرضى المحروقين إلى المستشفى لتلقي العلاج أو لإعلان الوفاة!

أفراد من قوى الشرطة تقدموا متتبعين خط النار إلى أن قادهم الأثر إلى فندق كازاميلا، والنزلاء ينظرون مترصدين من زوايا النوافذ، يتقدم أفراد الشرطة بتوجس من منظر الفندق المرعب، ونسمات الريح بدل أن تشعرهم بالراحة، كانت تزيد الرعب في قلوبهم بسبب الصفير القادم من شرفات الفندق، فإن الهدوء المقيم في الحديقة رعب بحد ذاته.

استغلت «هايدي» انتباه الجميع على الحدث في الخارج، لترجع بخطواتها إلى الخلف وابتسامة الشيطان على محياها، ومخططاتها لرجال الشرطة قد قد اكتملت برأسها، ومع آخر خطواتها اصطدم ظهرها في عائق وقف في طريقها.

مسكت (المديرة) كتفي «هايدي» برفق، ثم قالت بهمس: ليس الآن يا شيطانة الموتي، شقاوتك ممكن أن تكون نهايتنا، قالت (هايدي) بهمس: ثقي بي، وتعالي معي بسرعة، غادرتا إلى الطابق الخامس من خلال السلالم لكيلا تفتعلا أي جلبة ممكن أن تفضحهما سواء أمام الشرطة أو النزلاء الموتي.

مروراً بالجنود الذين كانت مهمتهم هي الاستناد إلى الحائط منتظرين الأوامر من شخص واحد لا غير، لأن المهام المناطة لهم هي استقبال الموتي الجدد بما يليق بهم وحماية الفندق من الأخطار، لكن من بعد أخذ الأمر من قائدهم الأعلى كما هي تدريباتهم العسكرية قبل موتهم، لا فعل من غير أمر.

تقدم أفراد الشرطة وسط الظلام إلى رائحة قادتهم بخيوط الدخان إلى موضع الجثة المتفحمة، أغلقوا أنوفهم من رائحة اللحم المشوي العطن، وأخذت عقولهم في التفكير بالمرحلة القادمة، هل ننتظر العربة لكي تتقدم وتحمله أم نحمله إلى خارج الأسوار لكي نسهل الأمر على سائق الإسعاف؟، لكن لم يطل أمر التفكير كثيراً، حيث إن هناك صوتاً قادماً من الأعلى ينذر بليلة من وصب.

همسات بلغة غير مفهومة بصوت طفولي، يرد عليها فحيح من صوت عجوز مرعب، ومنها تنتفض أوصال رجال الشرطة مع التجمد في أماكنهم وهم ينظرون في الأرجاء إلى الهامسين في الظلام دون الاستدلال إلى مصدرها، نظروا بعضهم إلى بعض لعل أحدهم ينطق بالحل السريع ليغادروا هذا المكان الملعون بأسرع وقت.

رمت (هايدي) دُبها المحشو بالقطن على رأس أحدهم ثم قالت: العبوا معي، إنني وحيدة ثم ضحكت بصوت حاد، مما جعل رجال الشرطة يخلعون قمصانهم بسرعة ليضعوها على أطراف الجثة، ثم يحملوها على عجل مهرولين خارج أسوار الفندق، والجثة بين أيديهم ينفصل لحمها المشوي عن العظم من سرعة الحمل والركض.

نظرت (هايدي) إلى عيني «المديرة» لترجع الأخرى خطوتين للخلف خوفاً من ضياع عينيها، فقالت الشيطانة: عفوت عنك عمتي الجميلة؛ لأنك ساعدتني على التخلص من هؤلاء المتطفلين، فضحكت ضحكات شريرة من غير أي موقف يدعو لذلك، وهمّت راكضة إلى الطابق الأرضي لتنضم إلى الاحتفال القائم بمناسبة مرور يوم كاد أن يكون نهاية فندق المقبرة!

أثناء عمل «هايدي» و«المديرة»، كان (ماثيو) أيضاً يضدر فحيحاً التقطته أذن «صوفيا»: اقترب.. اقترب!

الباب العاشر

(تراشق المشاعر)

(لماذا تعشق دائماً من يستحيل أن يكون لك في يوم من الأيام، لتعيش الألم الدائم؟!)

هيام «ريكي» و«فلوريا» سنة ١٩١٦م:

هناك عربة ركبها «والد ريكي» مرتدياً معطفه والوشاح الذي يلف رقبته يتطاير مع النسمات، مرت العربة بجانبه لينظر إلى الجالس في مقصورتها وهو يحدق في عينيه، ابتسم «ريكي» ابتسامة خوف من غضبه، ثم لوّح بيده مودعاً، وبالمقابل نظر «والده» إليه بلا أي مشاعر تُذكر..

وكان هذا آخر لقاء مع «والده» الذي رحل لمدة شهر متواصل لإكمال أبحاثه في التاريخ والآثار.

هل من الممكن لـ «فلوريا» أن تجعله يستفيد من هذه المدة ليكمل أبحاثه أم تكون له شوك السمك في البلعوم؟

رجع إلى المنزل، ونظر إلى «والدته» التي جلست مقابل المدفأة المشتعلة بالنور البرتقالي والأحمر المريح للعين والذهن المثقل بالصخب.

جلس «ريكي» بجانب قدميها، ثم وضع رأسه على حجرها، دون أن ينطق، ليكون الفعل هذه المرة أكثر جاذبية من الكلمات، والأخرى لم تنبس ببنت شفة كذلك، وضعت يدها الباردة الحنون مقابل فمها لتنفخ فيها، تنوي أن تدفئها قبل أن تصيبه بصقيع بردها، «الأم» لن تجد مثل قلبها في مشارق الأرض ومغاربها.

خلّلت أصابعها بين خصلات شعره، ثم سرحته بأظافرها الناعمة، فعلتها أكثر من مرة، وفي كل مرة ترجعه سنة من عمره إلى الخلف إلى أن غدا طفلاً في مهد بين أناملها، تركت شعره لتضع يدها على بطنها وهي تعصر ثوبها ألماً، فقال لها: ما بك يا أمي؟، (والدته): لا شيء، لا تقلق، (ريكي) سكت لثوانٍ ثم قال: أمي أتُخفين عني شيئاً؟، نظرت أمه إلى اشتعال اللهب، ونظر له كذلك في انعكاس عينيها.

أغلقت عينيها ثم قالت: أنا حبلى يا بني.

احتضنها (ريكي) بحب ثم قال: مُبارك لك يا حبيبتي، دُهشت (والدته) من فعله وقالت: ألم تتضايق من هذا الخبر؟، قال: لم أتضايق وسوف يكون لي من أرعاه وأهتم به ليكون أخي أو أختي وسندي عندما تضيق بنا الحياة؟!

قالت (والدته) بصوت يكاد يكون مسموعاً من شدة انخفاض صوتها وهي تضع أصابعها على فمها: إذاً لماذا حذرني أبوك من إخبارك؟!، تكلم خَلدِه نيابةً عنه قائلاً: هذا ليس أباً الذي يظن أنني الشر لوليده القادم، قلب من حجر يجلس بين صبار.

اهتم بصحة والدته وأصبح يعينها على جميع المهام المنزلية بعد إتمام فروضه، وعندما يدق الجرس كان يخرج من غرفته كالمجنون لكي يكون أول من يفتح الباب، هل هذا اهتمام بوالدته أيضاً؟، أم اشتياقٌ لأحدهم.. فتح الباب فكان «أحدهم»!

(ريكي): «فلوريا»!، كانت فلوريا ومن خلفها (والدتها) التي قالت: إذاً هذا صديقك الذي لا تكفّين عن الحديث عنه، ابتعد عن الباب، تعبيراً عن فتح المجال لهما للدخول، توجهت والدة (فلوريا) إلى والدته ومع مرورها قالت: أمي هل أذهب للعب مع صديقي في غرفته؟، أجابت بنعم، لتمسك يده وتجره جرّاً إلى غرفته.

دخلت ثم أطبقت الباب ولم تعطِه مهلة ليعيد اتزان عقله؛ لأنها احتضنته بشدة ويداه ما زالت تثبّتهما الجاذبية الأرضية وميزان عقله تاه بازدياد بين عطرها.. (فلوريا): اشتقت إليك بشدة يا صديقي الأحمق، من بعد ثوان مرت وكأنها دهر، نطق (ريكي): هل أنا صديقك الأحمق؟، (فلوريا) بهمس: بل أنت الشمس وأنا القمر الذي لا نور له من دونك!

لا يعلم كيف يداه انجذبتا لتبادلاها الاحتضان، دون أن يمتلك حق التصرف بهما، وطالت مدة الاحتضان دون الكلام، إلى أن أفلتت «فلوريا» يديها لتذهب وتلقي نظرة على غرفته، وإلى الرفوف التي امتلأت بالكتب المدرسية والتاريخية، ولا شيء غيرها، غرفة بسيطة جدّاً، سرير ودولاب ورفوف كتب.

(فلوريا): ماذا تفعل هنا طوال الوقت، ولا يوجد شيء غير الكتب؟، (ريكي) بهدوء من لم يخرج من الصدمة بعد: أتأمل، (فلوريا): تتأمل!، تقصد تفعل مثل ما فعلت بجانب الساحل؟، لكن لماذا؟.. لم يجب لأنه غرق في بحر عطرها ونظراتها وضفيرتيها.

مسك كلتا يديها فنظرت إليه بعيون يملؤها موج يسبح بين جفنيها، (ريكي): لماذا تفعلين معي ما تفعلين؟، (فلوريا): أحبك، لم تفهم إلى الآن؟، إنني أعشقك، أنتظرك في كل صباح لأنظر إلى وجهك المكفهر خوفاً من والدك، وأفرح عندما تذهب إلى المدرسة وحدك لأرى السعادة مرسومة على محياك الجميل، وأنتظر الفرصة التي تزور والدتي فيها منزلكم لكي أذهب معها لعلي أنظر إليك، وأخزن صورة جديدة لك في خزانة ذكرياتي التي لا يوجد غيرك بها.
تعالى صوت والدتها التي تناديها، فشد من قبضته على يديها، لا يريد أن يترك من سرقت قلبه، وضمته إلى قفصها، قالت (فلوريا) بدلال: لا تنظر إليّ هكذا، أبعد ناظريك إلى اليمين، فعل كما طلبت، لتقبل خده قبلة طويلة ذابت بها جل مشاعره.

تركت يده ورحلت مع والدتها، رحلت لكن لم يرحل طيفها، الذي عصاها وبقيَ معه يحوم حوله، قُبلتها وسَمت خده بوسام الحب، لهيب الحب، الذي يشعر به لأول مرة يدب في حياته، فتولدت مشاعر متداخلة بالخوف والسعادة مجتمعين، رغبة جيّاشة في وجودها الدائم حوله، (ريكي): أريدها، نعم أريدها أن تكون الدنيا التي أعيش فيها.. أنا أحب «فلوريا».. نعم أحبها أكثر من نفسي!

الآن عليه الرحيل إلى معلمه وصديقه الأول والأخير، جلس في غرفته يتنفس بعمق، وأصدر من فمه همهمة برتم وحيد، لعله يصل إلى درجة الصفاء المطلوبة للدخول في الإسقاط، محاولات جمة لكن لا يستطيع عقله أن يدخل في الصفاء وهو يهيم في بساتين الربيع.. ومن بعد التركيز العميق دخل في مرحلة الصفاء أخيراً، ليخرج طيفه من قالبه راحلاً إلى الطبيعة ومحيطاتها، ومن بعدها إلى الجبال ومرتفعاتها، إلى أن صار في معبد جوكهانغ، بحث عن معلمه ولم يجده.

اتجه إلى غرفته التي يتأمل بها، اخترق الباب بجسده الطيفي ليجد جسده دون روحه، اخترق السقف وطبقات الجو والسماء إلى رحابة الفضاء.

وظهر من بعد عبور الثقب الأسود هالة نور (الشيخ الأبيض): حللت أهلاً يا من سوف يزهر ويدمر محيطه، تغيرت ملامح (ريكي) من سعادة مطلقة إلى شحوب مما سمع، وقال: يدمر!، لماذا أيها الأمين؟، (الشيخ الأبيض): قلت لك، نتنبأ بما سوف يحدث بناءً على المعطيات، ونضع الأحداث الحالية في الحسبان، وننتظر إلى أن يختار الإنسان طريقه، نرى لك مستقبَلين، مستقبلاً في بساتين الزهر، ومستقبلاً في ظلمات القهر، والخيار لك في نهاية المطاف.

حاول أن يتقبل كلامه، لكن لم يستطع أن يجعله يمر هكذا، لكن ليس الآن، (ريكي): شيخي أين معلمي؟، (الشيخ الأبيض): تعال معي للداخل لنبحث في سجلات المدونين، فُتح مصراعا الباب العظيم ودخلا في جوفه، فنادى (الشيخ الأبيض): يا شيوخ سجلات الأثير، يا مدوني الزمان والمكان، أجيبوا السائل بما سأل ولا تُكثروا في الإجابة، بلمح البصر صار (أحد الشيوخ) مقابلهما وبيده مخطوطة مفتوحة وقرأ منها: المعلم «لي» رحل في مهمة لتجنيد بعض طلبة التبت الذين سوف يحاربون الشر في فندق كاز.. رفع (الشيخ الأبيض) كفه وقال: كفى.. (ريكي): تجنيد، لماذا؟!،

(الشيخ الأبيض): من الاحتياطات التي اتخذها معلمك في حال اختار طالبه طريقاً غير الذي رسمه له معلمه، هل فعلها كرهاً له؟، بل حبّاً فيه، ليعيده إلى طريق الصواب وإن كان وقتها ميتاً!

(ريكي): لم أفهم شيئاً، سوف أرجع إلى المعلم «لي» بهذا الموضوع، لكن سبب حضوري هو، أريد أن أعرف ما هو الحب؟، (الشيخ الأبيض): الحب هو مُزن يقف فوق صحراء قاحلة فتزهر، نسمة باردة في جفاف الصيف، محيط مظلم فتشرق الشمس من داخله، قلب ينبض لحامله فيصبح النبض لساكنه، تتغير المشاعر إلى التضحية والوفاء، الإخلاص والعطاء، الشوق والهيام، النظر إلى الدنيا بعين لم ترها من قبل، تنظر إلى جمال الألوان من حولك بطريقة لم تختبرها من قبل، لكن احذر لا حب من غير ألم، ألم يحّول كل ما سبق إلى اللون الرمادي، الضبابي الذي يجعلك تتخبط في كل شيء، إن أحببت فهنيئاً لك، لكن احذر التسرع في كل شيء يخص هذا الحب.. فتندم!

رجع طيفه من عالم السجلات إلى الأرض مروراً بالشارع الذي يقطن فيه، وسأل (ريكي) نفسه: هل أنظر «لفلوريا» نظرة خاطفة، أم أرحل إلى قالبي؟، قال (قلبه): كيف لك أن تمضي بجانب منزلها، ولا تكسب نظرة تجدد بها طاقة الحب؟، في نهاية المطاف قوة الحب لا يغلبها عقل!

وقف طيفه مقابل نافذتها ينظر إليها وهي تُسرح شعرها العسلي الذي نزل على كتفيها كالنهر وهي تنظر إلى أجمل فتيات العالمين في مرآتها، (ريكي): كم أحسد تلك المرآة التي أصبح لها الحق في انعكاسها، وكانت عيني هي الأحق بذلك.

اخترق غرفتها ووقف بجانبها، وتوقفت هي الأخرى عن تسريح شعرها وكأنها شعرت بوجوده جانبها، وزعت أنظارها حول الغرفة الزهرية، ثم أكملت (فلوريا) عملها قائلة: هل جننت أم أني أشعر بوجود حبيبي بقربي؟.. ولماذا جننت، بل هو بجانبي، «وضعت يدها على قلبها»، بل في داخلي.

تدثّرت «فلوريا» ما بين لِحافها وسريرها، واقترب «ريكي» بدوره بجانب وجهها الذي يعشق، ثم قَبّل رأسها وهي مغمضة العينين، رَفَعت «فلوريا» كفها ووضعتها مكان القُبلة تلمسها باستغراب، ثم ابتسمت لتنام بسلام.

رحل وهو لا يطيق الرحيل، يريد أن يكون بجانبها طَوال الوقت، وهو بين يديها يشعر بالسعادة التي لا تفارق قلبه، وبمجرد النظر إليها يشعر أنه ملك الدنيا بما فيها، (ريكي) أثناء التحليق للمنزل: تصبحين على.. حب.

في الصباح خرج والابتسامة لم تفارق محياه، ولم تتوزع أنظاره هذه المرة في الحي الذي يقطنه، بل تمركزت على شرفتها، وكانت بالمقابل تنتظره بشوق العاشقين، وما أن رأته إلا وقذفته بمشاعرها، بل برسالة تحمل مشاعرها التي اشتاق «ريكي» إليها، فتح الرسالة على عجل، وهو يقف مقابلها.

«محتوى الرسالة»

كلمة جمعت الكلمات كلهن، جل اللغات، مشاعر العالمين:

«أحبك»

فلوريا فيرنانديز

أخرج قلمه ليكتب على الورقة نفسها، ثم أخرج كرة الصوف التي رمته بها من قبل.. كوّر الرسالة عليها ثم رماها بالقرب منها، أخذت «فلوريا» كرة الصوف التي علقت بها رائحة يديه، فاستنشقت عبقها، ثم فتحت الورقة بلهفة.

«محتوى الرسالة»

صباحي الذي لا يبدأ إلا بك

«أحبك»

ريكي بوربون

الباب الحادي عشر

(القمر الدموي)

(اليرقة التي أخرجت من بطنها فراشة.. خنّاسة!)

حدث في عام ١٨٦٧م:
في «قصر دامبيير» وبالتحديد غرفة الزوجين اللذين ينعمان بنوم هادئ من بعد ليلة صاخبة في حفل عيد ميلاد ابنتهما «ميلا» الذي احتوى جميع العائلات النبيلة.. وسبب حرص تلك العائلات على الحضور ليس حبّاً في «ميلا» ووالديها، بل لأن والديها يملكان معظم عقارات برشلونة ومدريد، وللإعلان الهام الذي لمّح له «ميغيل دامبيير» والد «ميلا» من قبل.
بعد أن أطفأت «ميلا» شموعها السبع، قام (والدها) عن كرسيه وبيده الكأس والسكين، ضرب السكين بخفة على كأسه ثلاث مرات ليصمت الجميع الذين كانوا من أرقى العائلات النبيلة ومن بينهم عائلة «دامبيير» وعائلة والدتها «لاسيردا»، وولوه جل انتباههم: أعلن لكم عن هديتي لابنتي بمناسبة عيد ميلادها السابع، أهديك يا قرة عيني «فندق كازاميلا» الذي نسبته إلى اسمك منذ أن كان تصميمًا على ورق، الفندق وريعه بالكامل لك..
صفق الجميع تهليلاً لهذا الخبر، لكن ملامحهم فضحت الغل والحسد المتدفقين من عيونهم..

ولو كانوا أغنياء، ومن عائلة نبيلة، بالنهاية هم بشر لا يَملأ عينهم غير التراب، لا يكتفون بما غنموا من ملذات الدنيا، بل دائماً ينظرون لما بين يدي الغير، ويطمحون أن يكون ملكهم، وإن كانوا لا يحتاجونه.

شعر (ميغيل) بحركة غريبة أثناء نومه، فتح عينيه ولبس نظارته، نظر إلى النافذة بحركة لا إرادية؛ بسبب الأمطار التي تنهال على زجاجها، ثم نظر إلى الباب المفتوح لغرفته وهو من أغلقه بنفسه قبل أن ينام، سأل: من هناك؟، الإجابة كانت صمتاً إلا من صوت قطرات المطر والرعد كذلك يزأر بكل قوة ليزيد رهبة المشهد، اعتدل في جلسته استعداداً للنهوض وإغلاق الباب مجدداً.

لكن قبل أن يقوم من مقامه، ومض البرق الخاطف، فدخل وميضه من نافذته ونوافذ الممر الذي يؤدي إلى غرفته، ولمح مع الومضة «كياناً» يقف على الباب، ظهر من العدم وأصبح أمامه، بل كان موجوداً منذ البداية ولم يره لأنه كان مستوراً في عباءة الظلام.

(ميغيل) بشفاه مرتجفة: من أنت؟

فتحت زوجته (هيلدا) جفونها على فزع: ماذا هناك؟، لم تكن الإجابة من «ميغيل» بل كانت من «الكيان» نفسه عندما ومض البرق من جديد ووجداه هذه المرة يقف على طرف الفراش لتتعالى الصرخات من الاثنين.

أخذ «ميغيل» عود ثقاب، وأشعله بيدين مرتجفتين ليوقد فتيل شمعة بقربه، ويوجه اللهب «للكيان» لعله يفهم ماذا يحدث في عقر داره، فتاة شعرها المظلم اللزج قد غطى كامل وجهها، رأسها مائل لليمين، ويداها للأسفل، قالت (هيلدا): «ميلا» ما تفعلين، أرعبتِنا حتى كادت قلوبنا أن تقف؟!

لم ترد «ميلا» وما زالت واقفة دون حراك، قامت «هيلدا» من سريرها، ثم أبعدت الشعر الأسود الذي غطى وجه ابنتها الأبيض، لتجد عيونها وقد اتخذت البياض الكامل، ومن فمها ينزل اللعاب دون توقف، ضربت خدها برفق، وهي تنادي اسمها وبالمقابل لا يوجد استجابة، نظرت إلى البلل أسفلها، فنزلت لتتحقق منه، فكان خليطاً من ماء وطين وبول.

(هيلدا): أكنت بالخارج وحدكِ؟، لا يوجد استجابة من «ميلا»، أخذتها والدتها إلى الحمام، ومنه إلى حوض الاستحمام، خلعت ثيابها المتسخة، ثم صبت الماء فوق رأسها لتنتفض (ميلا) وتقول: ماذا هناكِ؟

(هيلدا): يا إلهي رجعتِ إلى السير أثناء النوم؟، لكن لماذا هذه المرة عيونكِ تحولت للبياض الكامل؟!

في الصباح الباكر كان الزوجان على مائدة الإفطار دون حديث، «هيلدا» تصب الشاي لزوجها، و«ميغيل» يقلب الصحيفة في هدوء، نزلت الخادمة ويدها بيد «ميلا» ذات الضفيرتين السوداوين بوجهها الأبيض جميل المحيا وعيونها الصغيرة المسحوبة من الطرفين وشفتيها الصغيرتين المكتنزتين، نزلت وهي تلبس ثوباً رأته على إحدى عرائسها لتطلب من والدتها أن تخيط مثيله، وهل كان الطلب عسيراً على «هيلدا»؟، بل نُفِّذ فورا من قبل خياطة العائلة وبنفس الألوان والنقوش وحتى الحذاء.

أردفت (ميلا) سرد حلمها: ما أن خرجنا من باب غرفتي إلا وتحول النور الجميل الذي يحيطه إلى دخان مظلم، ثم تشكل هذا الدخان إلى أفعى سوداء ذات قرنين ملتويين صغيرين، دارت حول ساقي وكأنها تريدني أن أتبعها، امتثلت وسرت خلفها، لم يكن الممر في قصرنا هذا، ولم تكن الرائحة كذلك، لأنني كنت أشتم الرطوبة من حولي، أسمع لقطرات الماء تتهاوى من السقف على الأرض والصدى من حولي يتداخل من القطرات التي تنزل بكل بطء.

ممرات صخرية مظلمة إلا من نور يخترق الصخر من جوانب السقف، كفيل أن ينير جزءاً من الطريق، كنا نسير في كهف انتهى بنا إلى حديقة القصر، توقفنا مقابل الشجرة العملاقة التي تحاول جاهدة أن تظلنا عن الماء المنهمر، تكلم (لوي) بفحيح مرعب: هنا تجدين ما يجعل «والدك» أشهر مخلوقات الأرض، سلميه المخطوطات لكي يحبك وتكوني له كل شيء في الدنيا، (ميلا): لكن والدي يحبني وأنا كل شيء له في الدنيا بالفعل

(لوي): بل ستكونين نقمته قريباً، وسوف يبيعك مقابل هدوء نفسه المتعبة، (ميلا): متى؟

(لوي): عند اكتمال دورة القمر الأحمر!

(ميلا): ومتى تكتمل دورته؟، وما هو القمر الأحمر؟، (لوي): بعد ثلاثة أيام، تطلقون عليه يا معشر البشر «خسوف القمر الدموي» الآن احفري هنا عند جذور الشجرة وأخرجي الصندوق الذي دفنه سيدي بنفسه، وسلميه لوالدك..

حفرت وأخرجت الصندوق الذي أحاطه الطين من كل جوانبه، وسرت في الحلم إلى فتحة خلف جذع الشجرة العملاقة تؤدي إلى عمق الأرض، ومنها إلى ممرات الكهف الذي ينتهي بمكتب والدي في الطابق الأرضي، وهنا ينتهي الحلم عندما سكبَت «والدتي» الماء على رأسي.

قام (ميغيل) واتجه إلى غرفة المكتب، وأغلق الباب من خلفه، نظر على مكتبه، ولم يجد شيئاً، وزع أنظاره ليجد صندوق الوحل، وقد وُضع على مخطط مبنىً جديد كان يعمل عليه لمدة شهر متواصل، لكن لم يعبأ بسبب الفضول الذي تملكه، فتح الصندوق ليجد في بطنه مخطوطات مرسومة بعناية، مجموعة تروس بأحجامها الدقيقة، وعقارب ساعة، وباب صغير فوق الرقم ١٢ فنطق بهمس: ساعة!، أخرج آخر مخطوطة، فوجدها مكتوبة «باللغة السريانية» ، اتجه إلى مكتبته، وأخرج كتاب الترجمة ليخط على ورقة جانبية الحرف السرياني، وترجمته في الإسبانية، حتى ظهرت ترجمة الكلمة «ساعة الخلود»!

قبل أن يغلق الصندوق وجد في قاعه رسمة لشخص غير واضح الملامح لكنه لم يكترث، وضع المخطوطات في قلبه ثم أغلق الصندوق، وعاد إلى أسرته، دون أن ينطق بحرف.. وبالمقابل أكملت «ميلا» تحريك قدميها وهي تأكل شطيرتها، وعلى حين غفلة من الجميع تحولت عيناها إلى البياض الكامل، وأنزلت رأسها مع ميلان نحو أبيها.

بعد انتهائها من الأكل تقدمت الخادمة لتأخذها وتترك المجال للأبوين في الحديث، (ميغيل): أظن أن الأعراض بدأت تظهر مجدداً على «ميلا»، (هيلدا) وهي تمسح دمعة هربت من مقلتها: كنت على وشك أن أخبرك بذلك، لكن لساني لم يطاوعني على البوح، أرسل في طلب القسيس «لويس».. وبالفعل تحرك أحد خدام القصر لطلب القسيس بصفة مستعجلة.

ركبتاه على الأرض مشبوك أصابع اليدين بتضرع، يدعو الرب راجياً العفو والمغفرة ومباركة يومه، سمع صوتاً أتي من خلفه، لمن كان يركض والآن يحاول أن يلتقط أنفاسه، توقف عن صلاته مع إيماءة تعطي الإذن (للقادم) بالكلام: أبانا «لويس»، سيدي «ميغيل» يطلبك بصفة مستعجلة، إن الشياطين عادوا إلى منزله!.. حاولت أن أصل إليك بشتى الطرق، لكن هناك من كان يمنعني من الوصول، نظر «القسيس» إلى «الخادم» ليجده قد مُلئ بالطين في أنحاء جسده وكأنه خرج من مستنقع.

ذهب «الخادم» وقام «القسيس»، حمل كتابه والماء المقدس ثم عدل هندامه مع موازنة وشاح القسيسين الذهبي الذي ينزل من رقبته إلى صدره، وختاماً لبس نظارته الطبية للانطلاق إلى وجهته، وما أن وضع قدمه خارج باب الكنيسة إلا وأرعدت السماء بنذير شر قد حل، تتبعه ومضات البرق الخاطف.. الشجر يتمايل بترنيمة الريح وأوراقها تلتف حول ساقه بشكل دوامات يافعة.. أكمل طريقه بعزم الإيمان، بثبات من سلّم قلبه لنصرة المساكين، لانتشالهم من ظلمات الشياطين، ذهب وهو يعلم إلى من هو ذاهب.. ذهب ليكمل معركة لم تنتهِ مع «لوسيفر» بذاته وأتباعه الذين سكنوا جسد رضيعة كل ذنبها أنها الوحيدة التي تزامن موعد ولادتها مع اكتمال «القمر الدموي» في ليلتها المشؤومة، لتتجرع الفتاة وعائلتها أشد أنواع الغموض منذ أول ليلة لها في قصرها.

حديث (لويس) ونفسه أثناء السير لوجهته: وكما جاء في أساطيرنا أن القمر الدموي صُبغ بالحُمرة بسبب تجمع السحرة لطمس نوره، وذلك تلبيةً لأمير الظلام وأوامره، فأخرجوا أعظم كتبهم، وقربوا الكثير من القرابين، وترنموا بأقوى الطلاسم، ليخرج من وسط جمعهم سبعة مردة عِظام حاملين سيوفهم متجهين بكامل شرهم من الأرض إلى السماء، قاصدين القمر، لكن لم يصلوا إليه بسبب الشُّهب الراصدة التي دافعت عن قمرنا ضد طغيانهم، فأصبح القمر يتصبغ باللون الأحمر كعادة سنوية سماوية، بسبب غضب الرب على هؤلاء المردة الذين يحييهم في هذه الليلة من كل سنة ليموتوا بالشُّهب أنفسها، ويتصبغ القمر بدمائهم!

بحثت في المراجع جميعها عن صحة هذه الأسطورة، ولم أجد لها دليلاً إلا في الروايات الخيالية وبعض المؤلفات التي تهاجم السحرة، ولا دليل آخر في كتبنا المقدسة إلا من تلك المخطوطة التي لمحتها مصادفة في درج مكتب معلمنا الأسقُف، ولم يسمح لي بالاطلاع عليها وعند استفساري عن السبب كان رده: لحمايتكم من شرها!

ما زال يسير في وجهته، وما زال الكون يمنعه بكل ما أوتي من قوة، رعد يصرخ ويتبعه البرق الذي يحول السماء الدنيا من ليل سرمدي إلى ليل منير بأشعة البروق التي تعمي البصر، وأوراق الشجر المتيبسة تركت ساقه، وبدأت تلطم الجسد بتراشق جارح.. تزيد سرعة الريح كلما دنا من هدفه، سقط الوشاح ونزل ليحمله فضرب وجهه شيءٌ لم يستدل عن كينونته.

هشم بتلك الضربة زجاج نظارته الطبية للجهة اليمنى وجرح حاجبه، لكن هل كل ما يحدث سوف يمنعه من إتمام واجبه ومساعدة «ميلا»؟، بالطبع لا.

كان من عمّدها في مهدها، ومن سهر معها الليالي لمحاربة من يسكن جسدها الصغير.. منذ اللقاء الأول الذي جمعه بها في عام ١٨٦٠م، حيث جاءه «ميغيل دامبيير» بنفسه طالباً أن يأتي معه في الحال إلى قصره، وكان له ما طلب وكان «للويس» العجب.

دهشة ظهرت على محياه عندنا دخل على «هيلدا» التي كانت نائمة مجهدة من آلام الطلق والولادة العسيرة التي دامت لساعات، ولم تكن «ميلا» بجانبها، بل كانت تسبح في فراغ الغرفة وكأن لا سلطة للجاذبية عليها، ومن خلفها النافذة مفتوحة على مصراعيها واللوحة المرسومة من أمامه، «طفلة» تطفو وسط القمر الدموي الذي يظهر في الأفق!

حينها مسك «لويس» الكتاب المقدس، وفتح مزامير طرد الشياطين، وتلا الذكر بتكرار، مع محاولات «ميغيل» لإنزال ابنته الرضيعة، لكن دون جدوى كأنها مثبتة بمسامير على دولاب الحظ الذي يدور بشكل مستمر لكن لا أحد منهما يراه.

سكب في الهواء الماء المقدس ومع التلاوة المتكررة بصوت يتعالى تدريجيّاً، هوت الفتاة بين ذراعيْ والدها.. مسح عرق جبينه، ونظر إلى المذهول «ميغيل» الذي لا يجد كلمة ينطق بها، لكن عينيه عبّرتا عن رجائه بإنقاذ طفلته.. فأخبره (لويس): لا تقلق سوف أبيت الليلة في منزلكم لعلي أعرف أسباب ما حدث.

قرّب الأريكة بجانب سريرهما، وطلب من «ميغيل» الخروج ليرتاح في غرفة أخرى، بعد ساعة نظرت «ميلا» في عينيَ «لويس» مباشرة، ثم تحولت عيناها إلى البياض الكامل.. تجمع جميع قاطني القصر بجانب الغرفة، فتخطاهم سيدهم لمعرفة ما هذا الصخب الذي زلزل الأرض ومن عليها، فتح الباب ليتفاجأ، أنها «ميلا»، التي كانت تضحك ضحكة صاخبة لا تناسب عمرها!

صاح (لويس) في الخدم: أحضروا لي سطلاً فيه ماء.. يجب إجراء طقوس المعمودية الآن، لا يمكن الانتظار ثمانين يوماً لتعميدها.. بعد دقائق التف الجميع حولهما، «ميلا» بين يدي «لويس» والماء أسفلها، لن يضع الماء على رأسها، بل يجب أن يدخلها بكامل جسدها.. حاول تغطيسها لكن لم يستطع، فساعده والدها، وكانت «ميلا» تقاوم وكأنها أقوى منهما مجتمعين.

غطست الغطسة الأولى ثم أخرجها، فلطمته وتسقط على إثرها من يده ويلقفها والدها، وضع «لويس» يده على وجهه ثم نظر إلى كفه التي صُبغت بالدم، كُسرت نظارته وشج وجهه، وكأن الضربة ضربة رجل حرث الأرض لسنين عجاف من شدة يدها، قام وحملها ليغطسها الغطسة الثانية،

خرجت من الماء بعيون بيضاء قائلة: عليك اللعنة، إنها لسيدي العظيم، أبعد يدك المدنسة عنها، فأدخلها للثالثة، خرجت حمراء وكأنها عفريت من الجن، تنتفض في مكانها.. مهّدها «لويس» على عجل ثم احتضنها وهو يردد التراتيل من الكتاب المقدس في أذنها حتى هدأت.

الباب الثاني عشر

(«ثالث» الحبيبين... من؟)

(كنا نحن «الحب» نفسه..)

«ريكي» في عام ١٩٢١م:

مع كل غياب «لوالده» الذي ما زال على معاملته السيئة له، والتي يرجو أن تنتهي في القريب العاجل إما برحيل «ريكي» مدى الدهر أو الانتهاء بأجل «والده»، ومع انشغال «والدته» مع أخيه الأصغر «سيزار» الذي سوف يكمل عامه الخامس قريباً.. في هذا الوقت، أكمل تعليمه من الكتاب الأصفر الذي لم يجده (والده) بعد، بسبب القفل الذي كلما قال: سوف أكسره، أتته بعثة من الجامعة لرحلة تاريخية أو تنقيب آثار، وذلك من حسن حظ «ريكي».

بهذا الكتاب وضع المعلم «لي» جل أفكاره وملخصاته من كتاب كهنة التبت السري «ديزان» الذي تم تناقل علم هذا الكتاب من كبير معلمين إلى كبير آخر ينقله إلى صفوة تلاميذه، وها هو معلمه أخذ هذا العلم من كبير المعلمين «تشانغ» ونقله بهذا الكتاب الأصفر ليسلمه إلى تلميذه «ريكي»، وذلك لإيمانه به وأيضاً هناك رسالة مبطنة من وراء فعله،

ولا يفهمها إلّا المتأملون في الخلوات، من يحللون الأحداث ويتفكرون بالنتائج، معلمه يريد أن يجعل منه أحد كهنة التبت أو ممكن أن يجعله الكاهن المتنقل في أنحاء العالم، ينشر تعاليم التبت ذات مبدأ السلام ليعم على البشرية جمعاء.

انتقل إلى السجلات الأثيرية، وتعلم الكثير ليصبح عمره العقلي أكبر من عمره الحقيقي، وكما قال الحكماء: «بالعلم ترتقي عقولنا، ويضلح لساننا ليكونَ منبع الحكمة في كل موقف».. وهناك الجدل القائم ما بينه وبين معلمه «لي» لمعرفة سبب تجنيد طلبة التبت وما هو السر وراء ذلك، مع رفض «معلمه» التام الإفصاح بأي شكل من الأشكال وكذلك رفض «الشيخ الأبيض» بطريقة حيادية، فباءت جل محاولاته بالفشل.

خرج في طريقه إلى الساحل قبل غروب الشمس، وجل أنظاره على الشرفة التي حملت أجمل مخلوقات الأرض، فتاة النمش جميلة المحيا، بعمر الأربعة عشر ربيعاً، وفي كل يوم يزيد رونقها حُسناً..

هي من جعلت قلبه ينبض بغير نبضه المعتاد، ينبض ناطقاً باسمها، فمن بعد عشقه لها، لم يكترث لشيء آخر ما دامت هي بخير، حتى تصرفات والده لم تعد تهمه كما كانت في السابق، فلقاؤها فلقاؤها دواؤه، وهي قوته في مواجهة أمواج الحياة العاتية.

لم تكن على الشرفة هذه المرة، فأبطأ في خطاه لعله يلتقيها.. لكن لم تظهر فأكمل طريقه بهيئة مختلفة عن الهيئة التي خرج بها من منزله، لهفته تبعثرت في الأفق، وتبعثر معها عقله الذي كان يفكر فيها والآن بدأ يقلق من تخلفها عن اللقاء اليومي.. جميل أن تعيش الحب، لكن ما يتخلله من ألم وقلق ممكن أن يفقدك اتزان يومك وممكن أن يضل أيضاً إلى بعثرة اتزانك الكلي.

ها هي اللوحة التي زينت أرضه وسماءه، الشمس قد غطس نصفها في المحيط، ونزل لونها مخلوطاً بلون البحر على خطوط متعرجة، وشعاعها الأحمر اخترق الغيوم، وطيور النورس راحلة من الساحل إلى يابسة لا يحكمها بشر،

وقارب يتيم في وسط الماء يتراقص بخفة من مداعبة الأمواج، ومحبوبته وسط هذا كله توليه ظهرها والنسمات تعبر من خلال خصلات شعرها المتطاير.

وقف بجانبها، دون أن ينطق لكي يترك المجال لقلوبهما أن تتحاور، لكنها لم تترك المجال لهذه اللحظة أن تكتمل أركانها الجميلة، بل رفعت يدها، وضربته بشدة على كتفه، (فلوريا): أيها الأحمق لقد أقلقتني عليك، أين كنت طوال هذا الوقت؟، حسب رسالتك يجب أن تكون هنا قبل عشر دقائق من الآن؟، (ريكي) وهو يمسح على كتفه: لقد أبطأت الخطا على أمل أن أراك في شرفتك، لم تخبريني أنك سوف تأتين إلى الساحل، أنا من قلق عليك.

(فلوريا): أخي الأكبر قد أحكم عليّ وثاقه، منعني من الخروج إلى الشرفة عندما رآني أطيل الجلوس فيها وكأنه قد شعر بشيء، انتظرته إلى أن خرج ثم أتيت إليك، لا يكفيني لقاء الشرفات، بل أريد أن أملأ عيوني بجمال تلك العيون الكحيلة..

احتَضنته وأطالت مدة الاحتضان حتى ذاب قلبه، وذابت مشاعره وذاب هو من بعدهما.

(ريكي): يا لـ «أليكسندر» الأحمق، ألم يكن مشغولاً في الخيول وتدريباتها، ما له وما لك؟، (فلوريا): اتركه عنك الآن، هذه لحظتنا ويجب أن نعيش جمال كل برهة فيها.. جلسا على حافة الصخر متأملين رحيل الشمس، وهي تحتضن ذراعه ورأسها مسند على كتفه، وفي لحظتهما تلك تضرعا للرب أن تتوقف الأرض عن الدوران، وتقف الشمس في مكانها، لعل هذه اللحظة تدوم إلى الأبد.

(فلوريا) وهي تربط حذاءه كعادتها: هل ستتأمل اليوم؟، (ريكي): بالطبع، (فلوريا): هل ممكن أن تطلب من شيوخ سجلات الأثير أن يمسحوا ذاكرة أخي، ولا يعرفني في المستقبل؟، ضحك (ريكي) حتى سعل: لا يمكن أن يفعلوا شيئاً كهذا فمهمتهم هي التقاط الحدث ثم تدوينه.. قامت «فلوريا» بعد أن لثمت خده، ورحلت إلى أن اختفت في الأفق، بحث عن قلبه، وتذكر فيما بعد أنه بين يديها في أمان.

ها هي السنون تمضي ويكبران معها وهناك عشق يكبر معهما إلى أن تخطّيا مراحل الهيام كلها.. من الحب، إلى العشق، إلى المرحلة الأصعب وهي مرحلة التعلق، وهذه المرحلة بالذات الأخطر على النفس البشرية، عندما لا يكون الكمال إلا بوجود من نحب بقربنا، عندما يسعد نسعد معه، وعندما يحزن وإن كان لا وجود للحزن في حياتنا نحزن مرغمين بعاطفة المُحب، يتألم فتكون قلوبنا من تعتصر، قد صنفها الدارسون في علم النفس أنها من أسوأ مراحل الحب إطلاقاً رغم جمال الحب، فإن التعلق هو الخطاف الذي ما أن ينغرس بقلبك إلا ويدميه بجرح غائر لا يندمل إلا عندما يضع المحبوب يده على الجرح فيسكن نزيفه، لكن لا ننسى أن الخطاف ما زال مغروساً والألم متزايد بلا انقطاع.

ما حدث في سنة ١٩٢٥م، هو الفاصل الذي غير مسار القصة، من قصة حب ولدت من قلبيْ «فلوريا» و«ريكي»، وكبر معهما إلى أن شهدت منازلهما والساحل والطريق إلى المدرسة كل لحظاتهما الجميلة.

بل «برشلونة» بأركانها تشهد على الشوق في لقاءاتهما، ولمسة اليد التي تبهج القلب، وتنتج هرمونات السعادة لتنتشر عبر مجرى الدم في أجسادهما وكل من يقابلانه في محيطهما.

حاولا ستر النظرات واللهفة إلى الاحتضان في حضور أهاليهما بالتجمعات العائلية، وبالأخص عند وجود «والد ريكي» الذي ما زال يكرهه دون سبب، و«أليكسندر» أخي «فلوريا» الأكبر الذي يشك في علاقتهما وما يثنيه عن التصرف هو الدليل فقط لا غير، لكي يقتل «فلوريا» ويجعل «ريكي» يموت ألماً لفقدها.

وبسبب سفر الاثنين، «فوالد ريكي» قد ذهب في بعثة، و«أليكسندر» قد وجد جواداً ذا مواصفات مميزة، وقرر أن يسافر ليحضر مزاداً قد جهز له نفسه بكل ما أوتي من قوة.. هذه فرصة الغياب التي تجمع الأحبة، فلا يوجد وقت ممكن أن يجمعهما ولا يستغلانه، وإن كان هناك وقت ممكن أن يجمعه «بمعلمه» الذي ما زال يرى فيه تلميذه الأقوى، فقد أصبح وقته مع «معلمه» بعد وقته مع قلبه الذي بين يديها.

وكما تم الاتفاق مسبقاً مع توأم الروح أن يتم اللقاء الطويل في طرف الساحل، الذي لطالما تبادلا فيه المشاعر، وغذّيا بها قلوبهما.. حضرت فكان أول اللقاء نظرات مع احتضان الكفوف في بواطن أيديهما، ثم احتضان الجسدين ليتحدا في جسد واحد. تحدثا عن آخر الأخبار، وتطرقا إلى بعض الذكريات الجميلة التي جمعتهما، إلى أن هاجت المشاعر بلغة الحب، كلمة منها تجعل القلب ينبض، وكلمة منه تجعل رغبتها تلتهب.. فكانت هذه الشرارة التي أطلقت القُبلة الأولى، التي لم يكتفيا بها، ولم تُرضِ حاجتهما بعضهما إلى بعض.

أمسك يدها، ورحلت معه بكامل رضاها، دون أن تنبس ببنت شفة، وكأنه قد مَلَكها وهي من سلمته صك ملكيّتها بيدها.. كان أقرب الأماكن المستورة هي سفينة مهجورة يتيمة على طرف الميناء بجانب الساحل، دخلا في قلب ظلامها وموسيقاهما دقات القلوب مع مداعبة الأمواج لطرف السفينة لتخلق جوّاً رومانسيّاً خلاباً.

قُبلة على الساحل، قد جرّتهما إلى ظلمات الهوى، لتذوب فيه ويذوب فيها، وأصبح الرمش فوق الرمش، لتتحد أجسادهما مُخلّدة ذكرى جميلة لكليهما، ومنها انفتح الباب لرحلة جديدة في علاقتهما، مرحلة الرغبة، وفي هذه المرحلة إما أن يكونا زوجين، فيُفرغ كلٌّ منهما رغبته في الآخر، وإما ما يفعلانه الآن وهو انتظار الفرصة لكي يريحا الجسد من رغبة مؤجلة إلى حين الوقت المعلوم.

هل كانا يفكران بالمستقبل؟،

هل درس أحدهما عواقب هذه الفعلة؟، هل اهتم أحد الأطراف بما سوف تؤول إليه الأمور؟، بالطبع لا، إلا عندما وقع الفأس المسنون المعلق فوق رؤوسهما قاصداً قطعها لكن بالمقابل، ضرب الرأس وفعّل العقل الذي انطفأ مرغماً من هيمنة القلب عليه.

عندما جاءت «فلوريا» في يوم وعلامات القلق على محياها لتخبره بعد حين، أن الطمث انقطع لشهريين متتاليين، وهو يعلم ما هو المقصود بهذا، وإن كان صغير السن، لكن عقله قد نهل من علم الدنيا الشيء العظيم بسبب السجلات الأثيرية..

ها هي العاقبة قد برزت في الأفق، لكل خطيئة ثمن وها هو الثمن يأتيه على حين غِرة لكي يقلب حياته رأساً على عقب.. ومن هنا تنبع التساؤلات التي تجعل الرأس في دوامة عاصفة لا تنتهي، مسك يدها وهو ينظر إلى وجهها، لكن عقله هناك في الأفق يطرح ويجمع.. وأول الأسئلة المطروحة في خَلده: أهرب؟، أقنعها بإسقاط الجنين؟، أنتحر؟، لا يمكن أن أنكر أنني والد هذا الطفل الذي يأكل من أحشائها، هل أتخلى عنها بعد أن سلمتني قلبها ونفسها؟، هل أنا بهذه الدناءة؟

(فلوريا) والخوف ظاهر من ارتجاف شفتيها: لماذا الصمت الآن؟، قل شيئاً أرجوك،

(ريكي) وعلامات الذهول مرسومة على محياه: أنا.. لن.. أتخلى عنك، سوف نجد حلاً لا تقلقي..

ثم ران الصمت في المحيط الذي يجلسان فيه، ويتأملان لوحة الشمس المغادرة والخوف ينهش دواخلهما.

ودعته ورحلت، وكانت تريد أن تزيح جبال الهم من قلبها، لكن بكل أسف لم يستطع أن يزيح عنها حبة رمل واحدة، عقد لسانه وشُل عقله عن التفكير الحكيم.. حاول أن يسترخي ليدخل في الإسقاط لعل «معلمه» يفيده بالحل، لكن من منا يستطيع أن يسترخي وقريباً سوف يصبح أباً، ولن يستمتع بأبوته؛ لأنه سوف يُقتل من الجميع بضربة واحدة من نصولهم.

فكر (ريكي): أنا رجل، وأتحمل عيبي وما يأتي من بعده من سبات ولعنات، وبسرعة سوف ينسى الناس خطئي، وتذهب حكايتي في طي النسيان، لكن «فلوريا» كيف لها أن تخفي عيبها وأنا من دنسها بيديه، سوف ينتفخ بطنها، ويظهر حبلها في القريب العاجل لتكشف وصمة العار للجميع، وتوسم بوسام المجون، ويُمحى اسمها ليكون اسمها الجديد في الأرجاء.. الفاجرة!

بعد تفكير طويل لم يجد إلا الهرب، نعم الهرب، لكن ليس هو من عليه أن يهرب، بل جميعهم يهربون وليكن ما يكون، عندما تحين الساعة التي يكبر فيها بطنها، ويضبح ظاهراً للعيان، حينها سيجد المكان الذي سوف يؤويهم «هو وهي وجنينهما».

في اليوم التالي، حضرت «فلوريا» إلى الساحل، وتناقشا في مسألة الهروب، ولم تجادل بها لأنه ليس هناك من حلول أخرى، لكن المهم في الأمر، الهروب إلى أين؟، (فلوريا) من بعد صمت طويل: أفضل مكان ممكن أن يؤويني إلى حين الولادة هي مزرعة الأعناب في «فالنسيا» وأنت تعلم كيف أن أهلي توارثوها أباً عن جد، لكن والدي أهملها مع استمرار استلام ريع حصادها.

(ريكي): فكرة باهرة، لكن هل العاملون عليها يعرفونك؟،

(فلوريا): بالتأكيد فقد زرتها مع أهلي أكثر من مرة، لكن عندما كنت صغيرة ومنذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا يدير المزرعة «خوسيه»، «والد» خادمتي «لاتويا»،

(ريكي): هل لديك مال مُدخر؟،

(فلوريا): بالتأكيد، (ريكي): جيد، مالي فوق مالك، وسوف نحقق المطلوب، ولذلك الحين أريدك أن تسيئي المعاملة مع أخيك «أليكسندر» لأنه من سوف يُسهل عملية الهروب وهو من سوف يُطلق شارة الانطلاق.
(فلوريا): لم أفهم، هل سوف تخبر أخي بعملية الهروب، إذاً لماذا نهرب وقد انكشفنا؟، (ريكي): بل أخوك من سوف يجعل للهرب سبباً.. وهناك حل آخر، قالت (فلوريا) بلهفة: أسمعك، (ريكي): أن نتزوج، (فلوريا): لا يمكن أن أتوّج حبنا الذي نبت في قلوبنا صغيراً، وغدا شجرة عملاقة، وها هي جذورها تكبر في بطني، بهذا الشكل، فهمت مقصدك، تريدنا أن نتزوج سرّاً، لن أقبل إلا بزواج يحتوي على حفل من ألف ليلة وليلة، (ريكي): إذاً أنسي الأمر، تعلمين الخلاف الذي بين والدي ووالدك بكل شيء، في الجيرة، في الشراكة بأعمال بيع الآثار التي آلت إلى قتال بالأيدي، وفي كل محفل يجمع الأسرتين لا تجدين أحدهما من الحاضرين بسبب كرههما بعضهما لبعض.

أردف (ريكي): ارحلي الآن ولكل حادث حديث، قاما من مقامهما ولم ينتظرها تطلب احتضانها، لأنه سحبها من ذراعها، واحتضنها احتضان الرجل، الرجل الذي لن يخذلها، الرجل الذي لن يتركها تجابه خطأ ارتكباه هما الاثنان مجتمعين، مثلما قررا أن يخوضا الحب، إذاً السعادة مناصفة بينهما والشقاء أيضاً..

رحلت «فلوريا» وهو ينظر إلى ثوبها وشعرها قد مال إلى اليمين من فعل الريح.. فقال (ريكي): لن أتخلى عنكِ يا من لها القلب ينبض.

الباب الثالث عشر

(المعركة لم تنتهِ)

(أعلم أنك تتألم وليس بيدي حيلة،

هل الحضن يكفي؟)

ما زال «لويس» يسير لنجدة «ميلا» وذاكرته تراجع ما حصل منذ ولادتها:

فتح باب القصر والعرق ينهمر من جبينه، بسبب (ميغيل) الذي جاءه للمرة الثانية في وقت صلاة خلوة الليل ليقول: أبانا «لويس»، «ميلا» في خطر!، فسبقه «ميغيل» إلى القصر ليحمي ابنته إلى حين وصول الأب «لويس».. وها هو الآن يصعد السلالم لإنقاذ «ميلا» ذات السنوات الثلاث التي عمّدها بنفسه، وحماها بفضل الرب من مسّ أمير الظلام قبل بضع سنين.

وهو يصعد السلالم بالطاقة المتبقية لديه من بعد الهرولة من الكنيسة إلى القصر، هبّت ريح مجهولة المصدر، وأطفأت نور الشمعات التي تضيء الممرات والسلالم، فتسمر في مكانه خشية الاصطدام لعدم استدلال الطريق كما هو حال أهل القصر.

بعد التوقف لدقائق اشتعلت الشمعات جميعها بلهيب شديد، ثم تهادت إلى أن استقرت بوضعها الطبيعي، نظر إلى الأعلى للاستمرار في التقدم،

وكانت «ميلا» ساترة نفسها بطرف الحائط ونصف وجهها على السلالم تنظر إلى القادم بشرر، ثم سمع أصوات ركضها متجهةً إلى اليمين، باتجاه غرفتها.

لم يرهبه الأمر؛ لأنه يعلم هلوسات الشيطان، ولن يسمح له بالتلاعب في عقله، فإيمانه بالرب أكبر..

ركضت «ميلا» أو ما يتشكل بجسدها الصغير، من أقصى اليسار إلى اليمين، وعندما وصل «لويس» إلى الدرجات الأخيرة، ركضت مجدداً من اليسار إلى اليمين، هرولة خاطفة الواحدة تلو الأخرى، نظر إلى هرولتها الأخيرة التي انتهت في غرفتها، أكمل العزم على إنقاذها، وصل إلى منتصف الطريق إلى غرفتها ذات الباب المفتوح، فظهرت «ميلا» فجأة بمنتصفه وهي تنظر إلى وسط عينه بتحدٍّ ورأسها للأسفل وعيناها شبه مستورتين من حاجبيها المعقودين.

تقدم بكل ثقة، رغم الرعب المنتشر في الأرجاء من الأحداث الخارقة للطبيعة،

وما زاد الأمر هو ضرب مدوٍّ من النوافذ المطلة على الحديقة ومع مروره بكل نافذة يزيد الضرب واحتكاك أظافر الأغصان الملتصقة بالنوافذ.

موقعه قاب قوسين أو أدنى من باب غرفتها، فدخلت «ميلا» وأغلقت الباب بشدة لا تناسب عمرها، حاول فتح الباب، لكن دون جدوى، إلى أن تقدم (ميغيل) راكضاً إلى موقعه: أبانا.. كنا بانتظارك، هل أغلقت الباب مجدداً؟، حاولنا فتحه إلى أن اضطررنا إلى كسره مسبقاً، لكن من أصلحه؟!

دخلا واتجه كل واحد منهما إلى جهة، لأن «ميلا» كانت نائمة على السرير، وأخرى تجلس على الكنب وهي تبتسم ابتسامة شر مُنذرة بليلة لا شمس بعدها، «لويس» هو من اتجه إلى سريرها، فأبعد اللحاف وسكب الماء المقدس لتختفي في حينه، ثم اتجه إلى الأخرى التي حاولت الهرب، لكن يديْ «ميغيل» كانتا أسرع وأيضاً فمها كان أسرع من يدي «والدها»، زمجرت فعضت ساعده، قاطعة جزءاً من اللحم، وأخذت تلوكه بسعادة والدماء تسيل من بين شفتيها.

لم يتمالك «ميغيل» الغضب والألم، فقذفها على السرير، الأب (لويس) بنبرة حازمة: لا تغضب، وكتّفها فوراً.. بالمقابل أخذ الماء المقدس، ثم سكبه على أطراف جسدها وهو يتلو المزامير المقدسة، و«ميلا» تصرخ ملء فمها بأبشع السبات واللعنات بصوت الشياطين التي تسكنها، لم ينفع صراخها معه، فقذفت كل ما في معدتها بشلال أخضر منهمر من مستنقع جوفها على وجهه، لكنه لم يتوقف واستمر في التلاوات مع طبقات صوت أعلى من صراخها.

استمرت بالسبّات واللعن والبصق الذي لم يمنعه عن إنقاذ فتاته، إلى أن لجأ من يستحوذ عليها إلى حيلة سَحَرة موسى، فضرب غصن غاضب نافذة الغرفة لتنتشر حبيبات الزجاج المكسور في أنحاء الغرفة، ومعها دخل طرف الغصن داخل الغرفة، وهذا الجسر المطلوب لكي تنتقل الأفاعي السوداء الفحيحة إلى عقر دارهم.

صرخ (لويس): لن أتوقف.. واستمر في التلاوة، ونثر ذرات الماء المقدس على الشياطين المتشكلة بزواحف الأرض لتحترق الواحدة تلو الأخرى،

ومع موت الأخيرة فتحت «ميلا» فمها على مصراعيه، فخرج منها دخان أسود تشكل على شكل غيمة مُثقلة بالسواد العظيم فوق رؤوسهم، ومع نثر آخر ما تبقى من القارورة إلى السقف، خرج الدخان الأسود من النافذة هرباً من حتفه،

وما يهم في هذا الموقف هو الهمس الذي سمعه «لويس» وحده: «أبانا المبجل، المعركة لم تنتهِ بعد، هذه الفتاة مِلكٌ سيدنا، كما نصّت مخطوطة الأسقف فلا تتعب نفسك!».

وصل «لويس» لنجدتها للمرة الثالثة ولم يطرق الباب، بل فتحه بكل قوته تلبيةً لنداء الواجب، الواجب الذي أتمه قبل أربع سنوات عندما كانت في الثالثة من عمرها، والآن يعود لمن قال له ذات يوم: «المعركة لم تنتهِ» بل سوف تنتهي بمشيئة الرب، لم تكن هذه المرة في غرفتها، لأنها كانت وسط غرفة المعيشة الضخمة، وكل نزلاء القصر من أهلها والخدم ملتفّون من حولها، وهم بلا حول ولا قوة، وكأنهم عبيدها المستخدمون لإتمام تعويذتها.

الأب (لويس): عليك اللعنة، إنها الحرب التي أنا فارسها الأول، أذود عن فتاتي كل شر، وإن كان ذلك سوف يكلفني سنوات عمري المتبقية، لن تصل إلى مرادك أيها اللعين، ضحكت (ميلا) ثم وضعت عينها وسط عين الأب «لويس»: أنت لست سوى إنسان قد صدّق وآمن وأنا عصيت وخذلت، لن أدخل النار وحدي، يجب أن يكون هناك الكثير من بني جنسكم، أكون عليهم أميراً في الدنيا، وأميراً في الدار الآخرة.

الأب (لويس): ولماذا هذه الفتاة؟،

(ميلا): لأنها ولدت في ليلة القمر الدموي، مما أمدها بقوة تمكنها من تنفيذ مرادي.. لك أن تتخيل ماذا سوف يحدث إن اتحدت قوانا، ستكون الأداة لهزيمة البشر الذين لا يذعنون لحكمي.

الأب (لويس): أنزلها واخرج من جسدها وتعال لمواجهتي، إن كنت أميراً بالفعل، فلا تتخذ الأطفال حصناً لك،

(ميلا) بغضب شديد: لست سوى حشرة، وإن ظهرت أمامك فسوف أصرعك بلمح البصر، (لويس) وهو يمد إصبعه السبابة في وجه الشيطان المعلق بين السماء وثراها: لك ذلك إن استطعت أن تلمس شعرة من رأس.... «لم يكمل جملته لأن إصبعه قُطع وطار في الأفق مارّاً بين مجال رؤيته»، ونزلت «ميلا» في هذه اللحظة لتقف مقابل يده الممدودة الخالية من إصبعه، تزفر الدماء على وجهها المبتسم ملء شدقيها.

هنا تدخل الأدرينالين ليضخ الدماء النضّاحة في جسد الأب «لويس»، وينسيه الألم ليحل مكانه الغضب والعزم على إنهاء هذا الهُراء، كانت القارورة مفتوحة بيده الأخرى، فسكب محتواها حين المواجهة على رأس «ميلا» التي ما أن نزلت أول قطرة إلا وسقطت تتلوى من الألم.

أنزل عليها أقسى المزامير كالوبال على رأسها بكل ما أوتي من قوة في صوته، انتفضت مكانها، ثم أخرجت الزَّبَد من أطراف فمها كالمصروعة، لتنتهي إلى جسد ساكن بلا حراك، ومن هنا فُتحت أغلال الظلام التي كانت تقيد نزلاء القصر أجمعين،

نظر بعضهم لبعض لكي تفهم عقولهم ما حدث لهم من استحواذ كامل، فنظروا إلى الدماء التي لوثت سجاد غرفة المعيشة وإصبع الأب «لويس» المرمي على بعد أمتار منه، وإلى «ميلا» التي تلون فمها بالزَّبد الأبيض.

هرولت «هيلدا» لكي تنقذ وحيدتها، وضعت جسد «ميلا» على جنبها الأيمن، ورفعت ذقنها للأعلى لكي تساعدها على التنفس، وما أن مال جسدها إلا وبدأ ظفر إبهام القدم اليسرى بالتحرك، وكأنه باب أبى أن يُفتح.

بدأ جسد «ميلا» يسخن بحرارة يشعر بها من بقربها، فرقعة كسرت حدّة الصمت؛ مما جذب انتباه الجميع إلى أصبع «ميلا»، انكسر ظفرها ليخرج من كان تحته، «ظل» تشكل من دخان هارب من إصبع قدمها، وما أن خرج إلا فر هارباً مخترقاً جسد «لويس» الذي سقط أرضاً من قوة وسرعة الاختراق.

«لويس» الذي ما زال على الأرض ينظر إلى السقف وهو يلف مِنديله على بقايا إصبعه المبتور.. ما لا يعرفه الحاضرون أن الشيطان الذي فشل في تلبسه لجسد «ميلا» قد اخترق جسد «لويس» لكي يهمس له رسالته التي كان فحواها: «ميلا لنا، وسوف تكون يوماً من الأيام المبعوثة لإنجاز أعمالنا، الحرب مستمرة والانتصار قريب»!

بعد مرور أيام على الحادثة الأخيرة ورجوع المياه إلى مجاريها في أسرة «دامبيير» بعد أن تعافت ابنتهم التي يرون السعادة من خلال ابتسامتها، زار الأب «لويس» القصر قاصداً الجلوس مع «ميغيل» وذلك لأمر قد أرّق منام الآخر لأيام متتالية..

الأب (لويس): يجب أن ترحل «ميلا» من هذا المنزل بأسرع وقت ممكن،

(ميغيل) بغضب حاول أن يخفيه: لماذا؟، واسمح لي يا أبانا، لكن هذا قرار يرجع إلى أهلها، وليس لأيٍّ من كان الحق في أن يطرد ابنتي من منزلها، أو من المدينة برمتها.

جمع (لويس) كفيه، ووضعهما بين فخذيه علامة على الإلحاح بالطلب وأيضاً على صعوبة شرح ما يريد أن يوصله: إن ما يمس طفلتك البريئة، شيطان وليس أي شيطان يا «ميغيل»، وهذا الشيطان لا يريد أن يتركها في حالها، ويغادر إلى الأبد، بل إن لديه إصراراً على إكمال ما بدأه، وإن كلفه حياته، إلى الآن قد خسر في هذه الحرب عدة جنود من جنوده المقربين، ولن يحيده ذلك عن الاستمرار، بل زاده إصراراً أن يربح هذا الكنز حسب ما همس لي من يسكن جسدها في السابق.

وضع «ميغيل» يده تحت ذقنه مع الإنصات الكامل الذي بدأ ينتقل من عقله إلى قلبه الذي سوف يحوّل دفة القرار من المنطق إلى العاطفة، أردف (لويس) حديثه: قد خاطبت رئيسة الراهبات «ماريا دي سيرا» وأوصيتها ألا يعلم أحد بما ورد برسالتي التي شرحت فيها بالتفصيل كل ما يحدث لـ «ميلا»، (ميغيل) وقد هدأت أوداجه: وأين المكان الذي سوف تتولى الراهبة «ماريا» فيه شؤون ابنتي؟

(لويس) مجيباً: «كنيسة سانتا ماريا ديلو» في جزيرة صقلية الإيطالية، وتوجد الراهبات والطالبات في «دير بالما» الذي تم تخصيصه داخل الكنيسة، بل ثلث حجمها خُصِّص للتعليم، ورحيلها هناك لتكون في رعاية الرب في دار العبادة وأيضاً لتتعلم أصول الرهبنة، وتهب نفسها للرب بدل أن يستحوذ عليها الشيطان، وتنخرط في التعاليم الدينية التي سوف تحصنها من عدوها وعدو البشر أجمعين..

لم يكمل الأب حديثه؛ لأن الجالسين في غرفة المكتب المخصصة للاجتماعات قد سمعا دبيب هرولة لأقدام يافعة.

قام «ميغيل» ليفتح الباب، ولحقه «الأب» ليتحريا أمر الضيف غير المدعو إلى اجتماعهما، تبِعا صوت الركض الذي انتهى في آخر درجات السلم، المنتهي إلى الطابق الذي تقطن فيه «ميلا»، صعدا وهما في صعودهما نظرا إلى الحائط الملاصق للسلم، وقد كُتب فيه بحبر الدم الذي انزلق من جميع حروفه دموع حمراء لزجة ومستمرة في نزولها إلى الأرض: «ميلا مبعوثة لوسيفر».

وصلا إلى غرفة «ميلا» فتقدم الأب «لويس» وفتح الباب وما أن انفتح إلّا وطار أحد الصلبان الحديدية المعلقة في الحائط متجهاً إلى وسط عينه، وبسبب رحمة الرب الذي جعله ينتبه ويميل رأسه قليلاً ليستقر الصليب كالخنجر المغروس في الحائط.

وكانت «ميلا» بكامل براءتها تحت اللحاف متزملة، في سبات عميق، نظر الأب «لميغيل» الذي أومأ له بالموافقة على الانتقال إلى الدير لعلهما يحافظان على هذه الفتاة البريئة من وطأة شيطانٍ لا يريد أن يتنازل من دون حرب ممكن أن يكون الخسران الوحيد فيها «ميلا».

لكن لا يوجد سعادة مكتملة، لأنه بعد ثلاثة أسابيع، وصلت رسالة من «دير بالما» موجهة للأب «لويس»، المنهمك في استقبال صف المستغفرين، الذين أتوا لكي يملوا عليه خطاياهم وهو بالمقابل يسمع بكل إنصات، ويعطيهم بالمقابل صك الغفران، فيخرجون من الكنيسة بصفحة بيضاء نقية خالية من الخطايا، لكن هل يدوم بياضها أكثر من ثوان معدودة؟!

دخل إلى مكتبه، وعندما وجد الرسالة على مكتبه تقدم بلهفة المشتاق لسماع أخبار جديدة قد تنقذ من سكنت الشياطين جسده، قرأ فحواها فهوت قبضته على سطح المكتب قائلاً: اللعنة.. لقد وافقت رئيسة الراهبات «ماريا» على طلب الأب بكل سرور، مع الالتزام بقوانين الدير، أي من الممكن استقبالها والشروع في تدريبات الرهبنة من بعد أن تكمل عامها العاشر! حمل نفسه، وخرج من الكنيسة قاصدا قصر «دامبير».

استقبله «ميغيل» الذي كان ينتظر الموافقة كما كان ينتظرها الأب، وتعكر مزاجه كذلك بسبب وجوب الانتظار إلى ثلاث سنوات إضافية يمكن أن تكون كفيلة بفقدان «ميلا» إلى الأبد.. ودعه «الأب» الذي بانت الخيبات على محياه، مع طلب إبلاغه بأي أمر مستحدث في حالة «ميلا». وقد استحدث الأمر قبل أن تكمل عامها العاشر بشهرين، عندما كان الأب «لويس» خارج المدينة، وضاقت السبل في الأسرة التي لا تعرف كيف تتعامل مع ظواهر خارقة ميتافيزيقية من عالم ما وراء الطبيعة!

الباب الرابع عشر

(قرين حي .. لإنسان ميت)

(كل من عليها لديه جانبه المظلم،

حتى أنت!)

حدث في فندق «كازاميلا» بعد حادثة الحريق بيومين - عام ١٩٥٢م:

وصلت عربة الجنائز السوداء حاملة في بطنها «المنتظر»، انتظر سائق العربة إلى أن خرج (الحارس) للنظر في مستندات المتوفى، التي ظهر فيها سبب الوفاة «انخفاض حاد في مستوى السكر بالدم واعتلال الدماغ مما أدى إلى توقف في دورة القلب والرئة»، ابتسم (الحارس) ابتسامة خفية خلف خصلة سوداء من شعره الناعم.

فتح البوابة الكبيرة ليدخل الفوج الباكي لوفاة كبير عائلة «بورجيا» وأثناء مرورهم قال لهم: تضعون التابوت في الطابق الرابع في الأجنحة المخصصة لعائلة «بورجيا» لكن ليس لديكم الكثير من الوقت، لأن المتبقي إلى منتصف الليل هو خمس عشرة دقيقة.

أومأ أحد الرجال، وتقدموا إلا (الأخير) الذي اعتمر قبعة دائرية صغيرة باللون البني، مر بجانب «الحارس» ثم بصق بين قدميه قائلاً: لقيط كريه الرائحة..

لم يرد (الحارس) الذي ما زالت يداه في جيبي بنطاله ثابت الهيئة، لكن عندما غادر من الأفق قال: «أليخاندرو» مدلل آل بورجيا، موتك على يدي في القريب العاجل.. ترك المكان وعاد إلى قواريره التي يجب أن ينهيها قبل شروق الشمس. دخلوا إلى وجهتهم في الطابق الرابع ونواح النساء يدوي صداه في فراغات بهو الفندق، توقف «أليخاندرو» مقابل الساعة وعيناه تتبعان سيقان ثوانيها، ابتسم باستهزاء ثم أكمل طريقه لكي ينهي هذا اليوم الكئيب، ويعوض المتبقي منه في مزرعة الثيران، لكن ليس للثيران الإسبانية، بل للتي تنتظره هناك بفارغ الصبر.

في أثناء توديع كبيرهم، كان (أحدهم) يضع عينيه على الساعة التي توسطت باطن يده، فقال للجميع: علينا المغادرة الآن، لم يتبق على دخول منتصف الليل إلا خمس دقائق، سمعه الجميع إلا «أليخاندرو» الذي كان ينصت بكل حواسه إلى الهمس المسكوب داخل أذنه، وكان يتبع هذا الهمس هواء دافئ يشعر به عند نطق الحروف: «اقترب.. اقترب يا مدلل بورجيا».

ملامح «أليخاندرو» أظهرت معالم الرهبة، لكن حاول إخفاءها بشق الأنفس، نزل الجميع مغادرين الفندق، وكان هو آخر من مسك مقبض الباب ذي الأعين المحفورة على الخشب، وقبل أن يغلق الباب.. شعر في بؤبؤ العين الذي بجانب يده يتحرك بطريقة بطيئة لينظر إليه ومعه نزلت أول قطرة عرق من على جبينه، سمع النداء مرة أخرى، لكن بطريقة مختلفة هذه المرة، لأن الصوت كان يأتي من أمامه، وليس همساً في أذنه: «اقترب.. اقترب».. نظر في فرجة الباب للمتقدم من بين ظلمات البهو، ومن خلفه عقارب الساعة التي تشير إلى دقيقة تفصلهم عن منتصف الليل، دخل مرة أخرى ثم قال: من أنت يا أيها اللعين؟

وهذا ما كان يحتاجه «اللعين»، لأنه عندما دخل «أليخاندرو» انغلق الباب من خلفه، وصار من أمامه «ماثيو» لكن الجانب المظلم منه، بحجم أصغر من حجمه الطبيعي، وشعر مبعثر وكأنه قد استيقظ من النوم في حينه مع مخالفة الصورة العامة لأن هندامه كان في كامل أناقته وترتيبه.

ملامح الهلع برزت في عينيه الجاحظتين، والفم في وضعية الاستعداد لصرخة طلب النجدة، لكن قبل أن تهتز الأحبال الصوتية لتخلق صوتاً يلائم الحدث، تقدم «الكيان» الذي كان يسير متبختراً إلى موقع «أليخاندرو» وبسرعة خاطفة وضع يده إلى المرفق داخل فم «الآخر»، الذي جاهد ليسحب كمية هواء تشعره بأنه إلى الآن في عالم الأحياء، وليس في عالم لم يختبره لبرهة من قبل.. عالم ما وراء الطبيعة.

سقط على الأرض جثة هامدة بفمه المفتوح.. ومن الجانب الآخر لاحظت إحدى النساء أن مدللهم غير موجود بينهم، وحاولت أن ترجع من عند باب السور، لكن كان «الحارس» السد ما بينهم وبين الفندق، أحد الموجودين اعترض ليدخل فقال له (الحارس): من أراد اعتراضي لن أمنعه، لكن في هذا الوقت، من يدخل سوف يدخل إلى حتفه، إلى جحيمه، «أليخاندرو» قد اشتاق إلى جده وبالتأكيد هو الآن في جواره، جثة هامدة، وكما تعلمون بأنه بعد منتصف الليل تظهر الأشباح في أنحاء الفندق وما سمعتموه صحيحٌ لأنني رأيتهم من قبل، سوف أتحقق من الأمر في الصباح، وأرسل لكم الخبر..

حاولوا أن يجاهدوا الخوف الذي تملكهم ليدخلوا إلى الفندق ويتحققوا من صغيرهم، لكن اختاروا السلامة والمغادرة مع الأمل المصحوب بعودته سالماً.

وفي المقابل، كان «ماثيو» يفتح باب المصعد وبجانبه «المديرة»، و«صوفيا» تقف على آخر درجات السلم المؤدي إلى الطابق الأرضي، وهي تشاهد بوابة ساعة البرزخ التي خرج منها «ظلالها» للقبض على الروح الهائمة من الجثة الهامدة التي سقطت بجانب مدخل الباب، وهناك «كيان ماثيو» الذي يحاول الوصول للروح قبل «الظِّلال السوداء».

وقف الثلاثة في بهو الفندق ينظرون إلى الحدث بكل ذهول، لأن «الكيان» قد مسك الروح من تلابيبها، وهو يضحك بسرور مرعب، وكادت «الظلال» أن تصل إليهما لولا أنه قد طار إلى سقف الفندق محتضناً الروح بأظافره المغروسة بظهرها إلى أن اختفى من الوجود.

قالت (صوفيا) للحاضرين، وذلك قبل أن ينزل الجميع: تأكّدت ظنوني، بأن هناك أمراً غريباً يحدث داخل فندق «كازاميلا» هناك من يغوي البشر للاقتراب من الفندق ليحصد أرواحهم، هل لك يد في هذا يا «ماثيو»؟ لأن ما ظهر لنا هو «قرينك»!

(ماثيو) بذهول: قريني!، أقسم أن لا دخل لي فيما حدث.

ظهر من عمق الظلام الذي نزل قبل الجميع لكي ينظر إلى الجلبة التي تحدث في الطابق الأرضي، دون أن ينطق ببنت شفة، ولا حاول أن يستولي على الروح التي يمكن أن تعطيهم يوماً إضافيّاً، روح هُدِرت من قبضة ساعة البرزخ.. سار (المدير) بوقار إلى الثلاثي الذين كانوا يحللون ما رأوه من ظاهرة غريبة بدأت منذ أن غدا «ماثيو» بينهم: كان لدي شكّ في بداية الأمر، لكن الآن تأكدت ظنوني كما هي ظنونكم، إن ما يحدث ليس لأحدكم يد فيه، وحتى ساعة البرزخ لا دخل لها بما يحدث.

يجب أن نجتمع نحن الأربعة فيما بعد لكي نبحث في الموضوع، ونحلل ما نواجه، لأن هذا الأمر عواقبه وخيمة، فساعة البرزخ غذاؤها الأرواح، وهذا «القرين» يريد أن يستولي عليها كلها، وبهذه الحالة لا برزخ لنا نحن.. وما يهم الآن، أن لدينا نزيلاً جديداً يجب أن نرحب به كما يليق بمقامه.

تذكرت (المديرة) «الدكتور بورجيا» الذي نزل في الطابق الرابع، فهرولت إلى السلالم لتصرخ بكل نشاط: أيها الجنود هيا إلى الطابق الرابع لكي نرحب بالضيف الجديد، ثم رحلت إلى المصعد ورحل معها «المدير» ليعطي الأمر للجنود الذين يأتمرون بأمره، وبالمقابل وصلت «المديرة» إلى الغرفة التي نزل فيها «الدكتور».

أصوات هرولة تأتي من السلالم إلى الطابق الأول، وصلت إليهم وهي تلهث ثم قالت متسائلة: «صوفيا»، وتبتسم ابتسامتها الخبيثة: نزيل جديد؟، أعين جديدة؟، (صوفيا): أتعلمين من هو النزيل الجديد يا شيطانة الموتي؟، (هايدي) وهي تقفز بسرور ولهفة لمعرفة من هو النزيل الجديد: من، قولي بسرعة، من؟، (صوفيا): ألم تلاحظي تابوتاً جديداً في جناحكم؟، (هايدي) وقد تبدلت ملامحها وسكن جسدها: لا، (صوفيا) بابتسامة: جدك «الدكتور دافيد بورجيا»، (هايدي): اللعنة.. كم تمنيت ألا يموت، كان لعنتي عندما كان حيّاً، يكرهني بشدة ومشاعرنا متبادلة، لا نتعامل بعضنا مع بعض إلا برسمية مطلقة، لأنه لا يقبل أن يعامله أحد بخلاف مكانته الاجتماعية، كم أكرهه، صوفيا هل من الممكن أن أرحل إلى فندق آخر؟،

ضحكَ «ماثيو» و«صوفيا»، وما زالت «هايدي» في عبوسها، وشفتها التي نزلت إلى الأسفل تعبيراً عن الحزن وبراءة الطفولة التي لا تناسب «هايدي» مطلقاً.
دلفت «المديرة» محتضنة ذراع «الدكتور بورجيا» إلى قاعة الاستقبال بكامل نشاطها المعهود وخصل شعرها المصفوف إلى الأعلى، وبعضها متدلية على وجنتيها وعينها اليمنى؛ مما أضاف لها حُسناً فوق الجمال، وعينا «المدير» تنظران إليها بلهفة لا ساتر لها، خصوصاً عند «ماثيو» و«صوفيا» اللذين ينظران إليهما ببهجة.

تجمع الموتي مرحبين بنزيلهم الجديد في حفل الاستقبال المعتاد لكل نزيل يحل لأول مرة ميتاً في فندقهم، و«الدكتور بورجيا» في ذهول مستمر والكثير من علامات الاستفهام تحوم حول رأسه.
لكن ما أفزعه هو عندما كان جالساً إلى الطاولة التي جمعته بميتان «المدير»، و«المديرة» اللذين كانا يمهدان له الطريق لمعرفة موقعه من العالم، وبعدها سارت بجانبهم «هايدي» وهي ترمي جدها بكل غيظ من طرف عينها، (الدكتور بورجيا): «هايدي».. كيف؟،

(المدير): أتذكرك عندما نزلت من جناحك ونظرت إليها وهي ملتحفة البياض والجرح الغائر برأسها، حينها كانت جسداً صغيراً لا روح فيه، وهذا ما أردنا أن نوصله إليك، أنت الآن ميتٌ، وتعيش في وقت محدود من زمن اليوم بفضل ساعة البرزخ.

دخل «دكتور الموتي» متقلداً مريلة متسخة، ومن خلفه تسير «ممرضته»: لا أصدق، «دكتور بورجيا» بشحمه ولحمه، أخذه بالحضن وكاد أن يبكي، بسبب الضغط النفسي والبدني من طلبات الموتي، ومجمل أعماله لا تتعلق بالأمراض العضوية، بل ترميم الأجساد التي استجابت مرغمة لتسويات القدر.

استحوذت «الممرضة» على يد و«الدكتور» على يد «الدكتور بورجيا» الأخرى لكي يرافقهما إلى العيادة التي سوف تكون البديل الناجح للعالم الذي لفظه من الطب الذي أفنى عمره وهو يمارسه بكل حب، لك ما طلبت يا «دافيد»، في الحياة أنت الدكتور الأول في مجالك، وبعد الموت أنت أيضاً الدكتور الأول هنا، ولا تحزن لأنك الأفضل دائماً.

همست (هايدي) بطريقتها المرعبة، ولا يعلم أحدهم لماذا تتخذ دائماً طابع الشيطنة بكل حركاتها، وإن لم تكن بحاجة إلى ذلك، فكل من في كازاميلا يتفقون على أنها الشر بعينه، ولكن في طفولة خلابة: هيا إلى غرفة المدير بسرعة، وكان الهمس في آذان «المديرة»، «صوفيا» و«ماثيو».

دخل المدعوون الثلاثة إلى غرفة المدير وما أن دخلت «المديرة» إلا وهرولت لتجلس في حجره بطريقة طفولية، طوق خصرها بذراعيه مستجيباً لها، (المدير): أهلاً بكم جميعاً، يجب أن نبحث في موضوع «ماثيو» والأحداث الجديدة التي حصلت منذ نزوله في فندقنا.

(المدير): ماثيو، ما سوف نخبرك به الآن يمكن أن يشكل لك صدمة، لكن أرجو منك أن تتحلى بالحلم إلى أن تفهم القصة كاملة.. نحن من دبرنا موتك!، (ماثيو) قام عن مقعده بذهول ومعالم الغضب ظهرت على محياه: ماذا؟!

أبعد (المدير) يده من على خصر «المديرة» التي تبدلت ملامحها للحزن، ثم لوّح بيده «لماثيو» ليجلس مرة أخرى: سوف تفهم بالقريب العاجل لماذا دبرنا حادث موتك، لكن ما نريده منك الآن، أن تخبرنا بالتفصيل كيف انتهى أجلك؟

الباب الخامس عشر

(ليلة في جُنح الظلام)

(قلب واحد؟، بل تحمل ثلاثة قلوب، ربما! قلبها وقلب جنينك وقلبك الذي بين كفيها..)

«ريكي» و«فلوريا»، وبذرة حبهما - عام ١٩٢٦م:

بدأ بطن «فلوريا» بالبروز، مع محاولاتها الحثيثة لكي تخفيه سواء بالملابس، أو من خلال ضبط التنفس لتستر خطيئتها عن الأعين الراصدة، وهذا ما ظهر في آخر لقاء مع الحبيب الذي كان مصدر الطمأنينة المطلوبة خصوصاً في هذا الوقت العصيب، لأن الزلة أو الخروج عن الخطة المرسومة هو الموت بعينه.

لكن ما حدث قبل أن يكبر بطنها هو الطريق الوعر الذي تمهّد بسبب ما فعله «ريكي»، الذي استخدم علمه، ووظفه في محله، واستعان به في وقت الأزمات.. رحل إلى السجلات الأثرية لمعرفة مكان بعض الكنوز القريبة من برشلونة، ليحصد من كنوز الأرض المنسية، ويبيعها مقابل الثمن المطلوب لإنجاز مهمته، اشترى عربة مع خيلها وسائقها لتلبي مهمة الانتقال إلى مزرعة فالنسيا، وتكون تحت طوع «فلوريا» في كل ما تحتاجه في فترة الحمل والولادة.

وكذلك استلمت «لاتويا» خادمة «فلوريا» حصتها من المال، لتسهيل أمر هروبها والسكوت على ما سوف تراه من انتفاخ البطن الذي يدل على وجود حياة بداخله، مع العلم أنها رفضت المال حبّاً في «فلوريا»

لكن «ريكي» أصر على ذلك، و«خوسيه» استلم ما سوف يبدل حاله إلى حال الأغنياء، لكنه رفض كذلك، ورفضه لم يثنِ «ريكي» عن الإصرار على استلام المبلغ، وبالمقابل «خوسيه» قد جهز المستلزمات كلها التي سوف تجعل إقامة «فلوريا» مريحة في مزرعة أبيها، بل في كوخه الخاص على أطراف المزرعة بعيداً عن أعين العاملين، على أن يقيم هو في منزل المزرعة الخاصة بأسرة «فيرنانديز».

حان الوقت المعلوم، ودقت ساعة إنجاز المهمات، إما النجاة، وإما الموت.. جلس «ريكي» في غرفته المظلمة وسحب الهواء ليخرجه زفيراً حارّاً منتظماً، ثم أغمض عينيه بكل هدوء لتنفصل الروح عن الجسد، بطيف حر طليقٍ يشاهد الأحداث من كثب، توجه طيفه مخترقاً الحائط إلى خارج أسوار المنزل إلى أن وصل إلى منزل مضيء بنور معشوقته «فلوريا»، ينظر إليها وهي جالسة بكل أناقة إلى مائدة الطعام، وترتشف حساء «الجاثباتشو» وفي وسط المائدة الطبق الرئيس المشهور «بقايا» المتناقض المكونات، وقد كان «والدها» يأخذ حصته منه منتظراً إجابتها على سؤال أخيها الأكبر المتنمر (أليكسندر).

يبدو أنه سألها السؤال المعتاد: أين ذهبت اليوم؟، على أن تكون الإجابة بالتفصيل المُمِل، بعد أن مسحت (فلوريا) فمها بالمنديل الذي في حجرها: خرجت، نظر (أليكسندر) لوالديه ثم نظر إليها نظرة غضب: أين ذهبتِ؟، والحذر من إثارة غضبي، (فلوريا) بكل برود: ذهبت للساحل، ضرب (أليكسندر) الطاولة بقبضة يده ثم صرخ: أيتها الحمقاء المدللة، أظنك اشتقتِ إلى الصفعة التي توّرِد خدك الأيمن، قامت (فلوريا) من مقامها وأولته ظهرها: لا يفيدك ضربي، فجسدي مات، لكن قلبي الحي يكرهك، لأن ضربك يجرح القلب قبل أن يترك الأثر على الجسد، وهذه الجروح لا تندمل أبد الدهر.

اعتصرت قبضة «أليكسندر» سكين الطعام، حتى انثنت في يده، رماها وقام من مكانه ليلحق بمن غدت القالب الذي يُفرغ فيه جل غضبه ومشكلاته النفسية والاقتصادية كذلك، لينام هو في راحة، وتنام هي في ألم، لا يزيحه حتى دموع القهر والإذلال، وكل هذا تحت مرأى بصر والديها اللذين لا ينبسان ببنت شفة للظلم والاستبداد داخل حدود ممتلكاتهما.

سار طيف «ريكي» بجانب «أليكسندر» ونظر إلى جانب وجهه، وفي داخله يتمنى أن يفصل هذا الرأس عن جسد لطالما آذى محبوبته، لكن في هذا اليوم بالتحديد، ما يفعله «أليكسندر» مطلوب جدّاً لكي تكتمل أركان الهروب المُدبّر.. ضربات متتالية كادت أن تكسر الباب المقفل، ولا تخلو تلك الضربات من السبّات واللعنات بصوته الأجش، اخترق «ريكي» الباب ليجد «فلوريا» بمنظر انفطر منه قلبه المحب، لأنها كانت في زاوية الغرفة ضامة ركبتيها إلى صدرها ورأسها مُنكس على الأرض وكأنها سلحفاة اتخذت قوقعتها حصناً منيعاً، لكن لا يوجد حصن يمنع أذية القلب بتصرفات كالسهام التي تخترقه وترتكز في صميمه.

بعد محاولات كسر الباب الذي أسندت «فلوريا» الكرسي تحت مقبضه بحركة ذكية منها، لأنها كانت تريد أن تنجز مهمتها بأقل إصابات ممكنة، ليس لحماية نفسها، بل لحماية طفلها الذي ينمو في أحشائها.. رحل «أليكسندر» واخترق السكون منزلهم بعد سويعات من الحادثة المفتعلة، طرقت «لاتويا» بنعومة على باب غرفة «فلوريا» التي ما أن سمعت الصوت المرتقب إلا وفتحت الباب،

فهمست (لاتويا): الآن سيدتي.. غطت «فلوريا» رأسها بخمارها وتلثمت بأطرافه، ثم حملت «لاتويا» حقيبتها لتخرجا بخفة من الباب الخلفي للمنزل.

طار طيف «ريكي» يسابق الريح ليرجع إلى قالبه، وما أن التحم الثنائي الذي لا يكون إنساناً من غيرهما، إلا وقام راكضاً إلى الخارج، دون أن يشعر به أحد، ذهب إلى أطراف المدينة في آخر السوق المغلق والخالي من البشر، لأن سائق العربة ينتظره هناك.

بعد فترة من الزمن ظهرت ظِلال مظلمة طويلة على الحائط القريب من موضع العربة، ليظهر شبيه القمر رغم المزون التي تحارب ظهوره.. ركض «ريكي» لكي يحمل الحقيبة من (لاتويا) فقالت له: أبي في انتظاركم، ركب العاشقان وسط العربة، فأعطى «ريكي» الإذن للسائق بالانطلاق إلى رحلة النجاة.

وأثناء السير بين سِتار الليل وثراها وضعت «فلوريا» رأسها على صدر «ريكي» ولم ينطق بحرف واحد بعد أن اجتمعت أجسادهما بعضها ببعض، فإن القلب هو من يتكلم نيابةً عنهما.. وما أصدق كلام القلب، حين ينبض للمحبوب ولا شيء سواه.

بعد مسير طويل ومرهق وصل طيرا الحب إلى عشهما الذي سوف يؤوي أحدهما لفترة من الزمن، وماذا سوف يحدث بعد الولادة؟، إلى الآن الصورة يملؤها الضباب، والأهم في هذه المغامرة النجاة بالجنين من خطر القتل أو التشرد.

رحلا في منتصف الليل، ووصلا قبل دخول ليلة اليوم الثاني، نزل «ريكي» من العربة، وكان الغروب قد لاح في الأفق والشمس هذه المرة لم يغطس نصفها في المحيط، لأنها قررت أن تختبئ باستحياء العروس خلف أشجار عناقيد العنب.. مسك يد محبوبته بكل حنان، وأنزلها من العربة التي ركنت بجانب كوخ «خوسيه».

كان (خوسيه) يقف مترقباً بجانب بوابة المزرعة؛ الخالية من البشر؛ لأنه قرر أن يعطي الجميع يوماً للراحة على أن يكملوا أعمالهم في صباح اليوم التالي، استعداداً لاستقبال «فلوريا»، وإن وصلت كان هو بنفسه باستقبالها، وها هي الآن بجانب كوخه: أهلاً ابنتي، تفضلي إلى منزلك، قد جهزت لكم الطعام على المائدة، ورتبت السرير لكي ترتاحي من بعد عناء السفر.. نظر (خوسيه) إلى «ريكي» ثم خاطبه: اذهب الآن لكيلا تدخل في صراعات جديدة مع والدك، وسوف أهتم بالتفاصيل جميعها لا تقلق.

من بعد الحضن الذي أخذ دقائق طِوالاً، تبين من خلاله مدى حب بعضهما لبعض ومدى خوف كلٍّ على الآخر، رغم وجود «فلوريا» في مزرعتها التي اتخذتها ملجأً من أهلها، فإن قلبها يعتصر ألماً لوداع «ريكي» والخوف قد أكل بعضها مما سوف يحدث له عندما يعود إلى المنزل ووالده في انتظاره وما هي التبريرات التي سوف يطرحها لامتصاص غضب والده.

لكن خوفه أكبر ليس على نفسه، بل عليها من وحدتها في مكان ليس مكانها ومدينة ليست مدينتها، لكن لكل حب هناك تضحية، وهذه التضحية هي اختبار الحب الذي جمعهما، والآن إما والآن إما الاستمرار وإما أن يكون خلف هذا الحب قناع، يسقط من الوجوه فتظهر الحقيقة، وما جمع هذين العاشقين هو الحب الحقيقي بعينه ولا قناع يستر من خلفه خلاف ذلك.

نزل عند قدمها، ثم قال لها: ثقي بي.. ثم وضع حجلاً نحاسيّاً على قدمها اليمنى وأغلقه بإحكام، لم تنبس ببنت شفة، فمن ضحى لأجلها بالتأكيد لا يمكن أن يؤذيها، وسوف تعرف فيما بعد لماذا وضع هذا الحجل.

ركب «ريكي» العربة بجسده الناقص، بسبب قلبه الذي تركه بين يديها، وعقله الذي أبى أن يكون إلا لها، رحل وبالمدة الزمنية نفسها التي قضاها في توصيل «فلوريا» وصل هو إلى مسقط رأسه، الذي سوف يكون هو المكان نفسه الذي سوف يكون هو المكان نفسه الذي سوف يُقطع فيه رأسه، وقف مقابل باب المنزل يفكر ماذا سوف يكون التبرير المناسب لغيابه، هل يستطيع أن يثبت على الحِلم، أم يثور غضباً من لسان «والده ويده»؟، في نهاية المطاف الموت واحد، ليكن ما يكون.. فتح الباب وخرج من عالم الظلام، ليدخل عالماً أشد ظلاماً.

وبالفعل عالم أشد ظلاماً، لا يوجد نور ولا حياة، نادى «ريكي» بصوت متذبذب من الرهبة التي تملكت عقله: أمي، سيزار؟، لا يوجد أي استجابة، تنقّل بين الغرف، لكن كان المنزل خاوياً من قاطنيه.

دخل «ريكي» للمطبخ متجهاً للثلاجة ليروي ظمأه، فوجد رسالة معلقة على بابها:

«محتوى الرسالة»

عزيزي، وقرة عيني «ريكي» والدك قد طلب منا «أنا وأخيك سيزار» أن نرحل معه إلى «مالقة» ليحضر اجتماعاً مهمّاً مع هيئة الآثار، وبعد الاجتماع سوف نقضي أسبوعاً للتنزه في المنطقة نفسها، وللعلم قد حاول «والدك» أن يدخل غرفتك ليوقظك فوجد الباب مقفلاً، ولا يوجد استجابة منك، قرر من بعدها أن يترك لك مبلغاً من المال في خزانة المطبخ ونرحل في حينه، وإن كان في وقت متأخر من الليل، فإن الرحلة طويلة.. أرجو أن تستغل وقتك فيما ينفعك، وأن تغفر لي إن كنت تركتك وحيداً، فإنك تعلم جبروت «والدك» ولسانه السليط.

والدتك التي تحبك منذ أن شعرت بقلبك ينبض في جوفها.

أسند ظهره على الثلاجة، وانزلق إلى أن جلس على الأرض، حزناً؟، بل راحة وسعادة لما آلت إليه الأمور، يا لمفاجآت القدر التي تخلق أحداثاً من المستحيل أن تُسَيّر دون خالق يدير هذه الأكوان بعظمته.. رفع (ريكي) رأسه للأعلى قائلاً: شكراً.

دخل غرفته وبين ثنايا ظلماتها جلس على الأرض ثم الشهيق والزفير المنتظم لتستقر نبضات قلبه ويصفو ذهنه، خرج الطيف من الجسد، وقبل أن يرحل إلى وجهته وجد أمامه معلمه (لي) الذي قال بمجرد التقاء البصر: تلميذي الذي أحب، لقد علِمت بمصابك، وساهمنا في إنقاذك من غضب «والدك»، ونحن من دبرنا رحيل أهلك، اطمئن، الذين يحبونك في هذه الدنيا كُثر، ولا يقتصر الحب على والدتك و«فلوريا» فإنك عندي بمنزلة الابن الذي لم أحظ به إلا عندما التقيتك ذلك اليوم السعيد، (ريكي) أسرع باحتضان معلمه قائلاً في أذنه: شكراً يا والداً تمنيت أن يكون أبي.. رحل «لي» إلى الأفق البعيد وكذلك رحل «ريكي» للنظر إلى قَمَرِه الذي رحل عن سمائه إلى أجل غير مسمّىً.

الباب السادس عشر

(ميلا.. والوحش)

(من يمس صغيرتي، سوف يراني ولا أظنكم تحبون رؤيتي!)

الحرب الأخيرة في برشلونة؟ - عام ١٨٦٩م:

من الليل قامت «هيلدا» من سريرها؛ لأن النوم أبى أن يأخذها بين أحضانه، بسبب صراخ الرعد في ليلة مُثقلة بالأمطار الموسمية.. وقفت مقابل النافذة تنظر إلى الدموع التي تسيل قطراتها من خلف الزجاج، وهناك دمعة نزلت متزامنة مع انعكاس صورتها، قالت في خلدها: حتى صورتي تبكي من جبال الهم في قلوبنا، لماذا ابنتي يا «لوسيفر» ألا تتركها تعيش طفولتها؟، أليس لديك ذُرية عاشت بسلام؟، لم نؤذِك فلماذا تؤذينا؟، لماذا لا تعاملنا بالمثل؟، أي ثمن تريد مقابل تركها؟

تغيرت صورتها إلى عينين حَمراوين برأس ذي قرنين أسودين ملتويين، وسمعت الهمس في أذنها: ابنتك لا تُقدر بثمن، ولا سلام لكم إلا حين السماح لنا بالاستحواذ الكامل عليها، انتفضت «هيلدا» وهي تمسح كفيها على عضديها من القشعريرة التي وخزت سائر جسدها.

أول ما فكرت به بعد هذه المحادثة الغريبة هو الذهاب إلى غرفة «ميلا» والاطمئنان عليها، بخطاً سريعة متقاربة وصلت إلى باب غرفتها الذي كان مواربأً وضوء الشموع يتراقص على الحائط، فتحت الباب لتجد الشموع على الأرض بشكل مثلث وعكسها مثلث آخر باللون الأحمر المرسوم بانزلاق كف يد ابنتها التي كانت جالسة بزاوية الغرفة تأكل خادمتها.. صرخت «هيلدا»

صرخة غطت على هدير الرعد؛ مما أفزع قاطني القصر أجمعين.

دخل «ميغيل» الذي يتنفس بصعوبة بسبب الرعب الذي أفزعه من صرخة زوجته، ليجد «ميلا» تقضم من رقبة الخادمة، ثم تلوك قطعة اللحم، وتبلعها كلبؤة تتلذذ بصيدها دون اكتراث لمن حولها، ومن خلفها هناك رموز مرسومة بالدم وأرقام توسطت مربعات ومثلثات لم يفقه أبوها شيئاً منها، (ميغيل): اللعنة، لم يتبق إلا شهران لتنتقل إلى الدير، يبدو أن الشيطان لا يريد أن يستسلم دون نزاع.. يا إلهي، الأب «لويس» خارج البلاد!

رحل إلى غرفته ليتقلد الصليب حول رقبته والآخر لُف على معصمه، ثم أخرج الكتاب المقدس على الصفحات التي حددها «لويس» في حال طرأ طارئ وهو خارج البلاد، عض غطاء قارورة المياه المقدسة الفليني، ثم بصقه على الأرض، وأثناء الهرولة إلى غرفة «ميلا» صرخ طالباً سطل ماء.

أبعد باب الغرفة، بقدمه، ليجد «ميلا» في ركن الغرفة وقد كشرت عن أنيابها، وتزأر بذبذبات تُرجف القلوب، وهناك خطوط الدم تقطر من ذقنها، نظر إليها وفغر فاه، لا يمكن أن تكون هذه ابنتي، قد تحولت إلى وحش ضارٍ لا يمكن أن يعيش في القصور، بل القفص ذو القُضبان هو ما يناسبه.

وصل السطل، فسكب بقلبه الماء المقدس، وأخبر الخدم و«هيلدا» أن يمسحوا تلك الرموز والدماء المنتشرة في الغرفة على عجل، وما لبث الجميع إلا ولبوا المطلوب، وبالمقابل تلوّت «ميلا» على الأرض كالملسوع بنار السَموم، وهي تصرخ ألماً، لأن «أباها» وقف فوق رأسها يتلو المزامير المقدسة لطرد الشياطين وبين الفينة والأخرى يسكب عليها من ماء السطل المخلوط بالماء المقدس..

وفي كل قطرة تنزل على جسدها يسمع من حولها صوت الشواء، ويتصاعد معها البخار الذي كاد أن يعدم الرؤية في غرفتها.

بعد ساعة من المعاناة، سكنت صغيرتهم ونامت في موضعها، ونُظِّفَت الغرفة لينتشر الجميع إلى أعمالهم؛ رغم أن خيوط الفجر قد زخرفت سماء الدنيا وهناك وقت متبقٍّ لإكمال نومهم، لكن من منهم يستطيع أن يرجع إلى النوم ويُغمض له جفناً بعد ما عاش ليلة في الجحيم مع شيطان بجسد طفلة، وهناك جثة الخادمة التي كانت تنام معها، وكانت هذه ليلتها الأخيرة لتنام ولا ترى النور بعدها.

تم التعامل مع جثتها وإكرام أهلها، وتم كذلك تقييد «ميلا» في سريرها أثناء النوم لكي تمضي المدة التي ذكرتها الراهبة «ماريا» في سلام.. وبالفعل جاء الوقت المعلوم، الوقت المنتظر من الجميع لتنتقل «ميلا» إلى جزيرة صقلية، إلى بيت الرب، إلى المكان الذي يصعب على الشيطان ولوجه بسبب الحواجز الروحانية التي تفصل بينه وبين هذه الصغيرة التي لا ذنب لها إلا اقتران ولادتها بليلة القمر الدموي!

أكملت «ميلا» عامها العاشر - ١٨٧٠م:

بعد النزول من السفينة ركب الجميع في قلب عربة الصافنات، وما زالت «ميلا» في صمت تام، رغم حديث الأب «لويس» المنهمك بشرح ما سوف تتعلمه «ميلا» من خلال الراهبات، اللاتي وهبن حياتهن لخدمة الرب والدعوة إلى صلاح العباد.

ومن خلال صمتها أرسلت الغم إلى قلبيْ والديها، اللذين لم يحسما الجدال ما بين العقل والقلب، ما بين الحكمة والعاطفة، ما بين الأفضل لمصلحة ابنتهما وسلامتها من مس الشياطين ببقائها في الدير، وبين وجودها بينهما وفي كنفهما تعيش.

بانت الأبراج القوطية «لكنيسة سانتا ماريا ديلو» بلونها الرمادي المزخرف بنقوش رمادية مائلة للسواد، التي تحتوي داخل أسوارها دير «بالما»، وفي أعلى برج منها ظهرت القبة التي عُلق في قلبها جرس ضخم لكي يسمعه سكان المنطقة أجمعون إما للقدّاس الجماعي أو لدخول وقت الصلاة وأيضاً يضدح احتفالاً بمولد المسيح، وها هو اليوم مولد راهبة جديدة يبدأ عمرها الديني في هذا اليوم بالتحديد

عندما تخطو خطواتها الأولى إلى داخل هذا الصرح الروحاني، وتستقر فيه، وإن خرجت بعد زمن فستكون راهبة تستطيع تجابه الدنيا جمعاء بحكمتها وعقيدتها المستقيمة.

وها هي «ميلا» وقفت مقابل الكنيسة الشامخة، التي ترسل ذبذبات الخشوع إلى أوصال المؤمنين، لكن ليست «ميلا» التي كانت تنظر إلى نقطة وسط الكنيسة ومشاعرها في سكون دون أي تعبير، «ووالدها» بالمقابل ينظر إليها بتوجس.

صدى خطوات قادمة من الداخل تدنو إلى البوابة، فظهرت من درفتي الباب العملاق راهبة أربعينية جميلة المحيا، ممشوقة القوام، مستقيمة الظهر، انكشف من مقدمة رأسها شعرها الأسود الليلي إلا من بعض الخيوط الرمادية، واختبأ ما تبقى منه خلف شال الراهبات، بعينين خضراوين براقتين بسبب سقوط شعاع الشمس على وجهها الأبيض، عينان جميلتان لكن هيبة الراهبات زادت حدتهما، رئيسة الراهبات (ماريا) وقفت مقابلهم، ثم قالت مخاطبة «ميلا» مع ابتسامة مريحة: أجزم أنك الجميلة «ميلا» التي سوف تكون في كنفنا، وتغدو أختاً لنا.

لم تبدِ «ميلا» أي مشاعر، ولم تبعد ناظريها عن مدخل الباب، وفي المقابل تحدث الأب «لويس» مع «ماريا» مع إبراز الكثير من التوصيات، لكي تعلم الراهبة «ماريا» كيف تتعامل معها عندما يُكمل الشيطان جولات حربه للاستحواذ على هذه الطفلة البريئة.. وبعد أن أوضحت «الراهبة» للجميع أن دورهم هنا انتهى وعليهم توديع ابنتهم «ميلا» الوداع النهائي، لأنها منذ هذه اللحظة سوف تكون إحدى أدوات الرب لنشر دعوته، وليست «فتاة» القصور المدللة ولا حتى ابنة النبلاء.

رحل الجميع، وعلى محياهم القلق، بخلاف «ميلا» التي ظهر التحدي على محياها، تقدمت إلى أن عبرت الخط الفاصل ما بين الدنيا، وعالم الرب.. سارتا في الممر الطويل المؤدي إلى الدير وصدى الخطوات يسبقهما، إلى أن بان الباب الذي يأتي من خلفه المذبح، وعلى «ميلا» تأدية الصلاة الأولى قبل الشروع في مراسيم الرهبنة.

تقدمت «ماريا» إلى المذبح، ووقفت مقابله وهي تشبك قبضتيها بعضهما ببعض، ثم نكّست رأسها لتتلو الصلاة، لكن توقفت لأن «ميلا» لم تتقدم كما فعلت معلمتها،

نظرت إلى الخلف لتجد وجهاً غير الذي ألفته منذ ثوان، كانت «ميلا» عند مدخل الباب متسمرة، ورأسها للأسفل، لكن عينيها منصوبتان إلى المذبح بكل شرر متطاير، وما زاد خوف «الراهبة» هو كيف لطفلة بهذا العمر أن تزأر زئير الليث الضاري!

ذهبت «ماريا» لتمسك يد «ميلا» وتسحبها برفق لكي تتقدم معها، وكانت تتقدم مستجيبة لمعلمتها، لكن بخطوات ثقيلة جدّاً وتردّد واضح، إلى أن وصلت إلى المذبح بمسافة بسيطة تفصلهما، حدث ما حذر منه الأب «لويس».. صرخت «ميلا» ملء فمها صرخات هزت أركان الكنيسة، وليس قاعة المذبح فقط.

صرخات من وحش كاسر منذرة بأيام سوداء لا ألوان غيرها، لكن هذا ما جعل إصرار «ماريا» أكبر لتلبية دعوة الرب، لتحارب الشيطان الرجيم، بكل ما أوتيت من قوة، قررت منذ هذه اللحظة أن تكون هذه الفتاة تحت كنفها ورعايتها، قررت أن تخلصها من معاناتها، قررت أن تكون هي فارسها ضد قوى الظلام، تذود عنها شره وجبروته.

وضعت كلتا يديها على رأس (ميلا) وبدأت تتلو مزامير طرد الشياطين، وتتضرع بقوة وإصرار في صوتها، إلى أن هدأت «ميلا» ورجع وجهها إلى براءته، رجع وتبدل إلى الدهشة في ملامحها الطفولية، وزعت أنظارها في المكان، ثم سألت: أين أنا؟، لقد كانت غائبة عن الوعي منذ أن تركت منزلها، غارقة في ظلمات الشيطان «لويثان»، الذي كان يراقب الرحلة والمكان الجديد، رغم ألمه منذ أن خطت قدماها داخل حدود الكنيسة، لكن وجب عليه الصمود لكي ينقل الصورة كاملة لأمير الظلام ولتجهيز نفسه للمرحلة الأصعب في حرب الاستحواذ على وليدة القمر الدموي التي لا تقدر بثمن. ،

قد طلبت «ماريا» من الراهبات أن يخلين الغرفة الملاصقة لها، والتي كانت تستخدم لتخزين المخطوطات والرسائل المهمة من كاتدرائية روما، وذلك قبل انتقال «ميلا» للدير.. والآن هما في وسطها و«ماريا» تشرح للصغيرة ما تحتاج أن تعرفه: عزيزتي هنا مخدعك، وهناك الدولاب الذي يحتوي على ملابسك الجديدة الخالية من الزينة وبذخ الحياة،

وأخيراً المكتب الذي سوف تدرسين عليه، ودورة المياه ستكون مشتركة بيني وبينك في آخر الرواق، وغرفتي كما ترين ملاصقة لغرفتك، إذا كان لك حاجة أو سؤال أو حتى رفقة، فلا تترددي في زيارتي في أي وقت.

أومأت «ميلا» والخوف واضح للعيان من ارتجاف يديها وشفتيها، خرجت «ماريا» ثم جلست الأخرى على طرف السرير تنظر إلى الخواء، كلا، بل كانت تنظر لطيف الأفعى الذي ظهر من العدم، يتراقص على أنغام لا يسمعها إلا هما.

دخلت الراهبة المبتدئة في الكنيسة لتعيش بها الباقي من عمرها إلى أجل غير مسمّىً، لكن لم تدخل وحدها، بل سكبت نقطة حبر سوداء في المياه النقية.. مضى أسبوع على وجودها، وبدأت تتعلم بدايات الرهبنة اقتداءً بمعلمتها «ماريا» وبزميلاتها الراهبات اللاتي يتفاوتن في العمر ما بين سنها ومن يتقدمها في العمر.

وفي هذا الأسبوع تغير السكون الليلي إلى استهجان صاخب في غرف الراهبات المتعلمات والمعلمات كذلك، ففي كل ليلة، تسمع صرخات استنجاد من خطر قد حل، فتحول مفهوم الليل من السكون والراحة إلى الرعب من المجهول، من يا ترى سوف يقع عليها الدور ليصدح صدى صرخاتها في أروقة المهجع ؟

في يوم وجدن إحداهن تحت السرير تصرخ بهلع مع إغلاق العينين بقوة، والأخرى وجدنها شبه مصلوبة على الحائط، لكن دون مسامير عملاقة لتثبيت أطرافها لأنها كانت مثبتة بأيادٍ لا يمكن للبشر أن يروها، ومع كل هذا الرعب الذي انتشر تزامناً مع دخول «ميلا» إلى بيت الرب، لم يحدث لها في المقابل أي أعراض ليلاً كما حدث لأخواتها، بل العرض الوحيد الذي كان يثير المعلمات هو عدم مقدرتها على الاقتراب للمذبح لتأدية الصلاة اليومية.
فكان الاقتراب من المذبح عبارة عن تحولها من فتاة بريئة إلى وحش كاسر، وفي كل مرة يُخرج هذا الوحش العجب من جعبته ما بين قوة بأس ورعب خارج المنطق..

فكان الاقتراب من المذبح عبارة عن تحولها من فتاة بريئة إلى وحش كاسر، وفي كل مرة يُخرج هذا الوحش العجب من جعبته ما بين قوة بأس ورعب خارج المنطق.. فكان الاقتراب من المذبح عبارة عن تحولها من فتاة بريئة إلى وحش كاسر، وفي كل مرة يُخرج هذا الوحش العجب من جعبته ما بين قوة بأس ورعب خارج المنطق.. سالت دموع الدم من آذان الموجودين، وتعلّمت أجسادهن بجروح طفيفة من الزجاج المتطاير، وكان هذا إنذاراً من قاطني الجسد، ورسالة مبطنة للحاضرين: «قابلون بوجودها بينكن، لكن إجبارها على الصلاة يعني تغير بوصلة خضوعها لغيرنا..

الآن جروح طفيفة، وبالمستقبل سوف نذيقكن البؤس الذي تتمنين أن تنتهي حياتكن من شدة آلامه النفسية قبل البدنية».

وكان هذا آخر يوم من الأسبوع الذي جعل جميع من يحبون الوجود بهذا المكان المبارك، يكرهن حياتهن وليلهن والمكان أجمع، إلى أن بادر الجميع بإظهار مقتهن «لميلا» وكأنها الشر نفسه،

لم ينظرن إليها بنظرة «ماريا» نفسها التي كانت ترأف بحال هذه المسكينة التي غزا جسدها عصبة الشياطين، ولا أظنهم سوف يشدون الرحال من جسدها بمجرد الطلب الرحيم.

بل هناك معركة محتدمة ما بين الخير والشر، ولا نعلم من الرابح في نهاية المطاف وفي الأحوال كلها سوف تخسر «ميلا» جزءاً من روحها إذا ربحنا، وإذا ربح الشيطان فسوف تخسر روحها بالكامل، ويبقى السؤال الأهم: صغيرتي في أي صف من هذه الحرب؟!

الباب السابع عشر

(في بُعدِك تغادر الروح جسدي)

(في كل صباح، أودع يوماً نقص من عمري،
خرج ولم يعد أبداً!)

من بعد العشق، الطفلان أصبحا أبوين - ١٩٢٦م:

زيارة يومية من طيف «ريكي» للاطمئنان على التي كبر بطنها، وانحنى ظهرها من ضخامته، وفي كل شهر كان يقدم لوالديه أعذاراً مدروسة بمساعدة معلمه «لي» لكي يغيب ليومين يقضيهما بجوار من أسره حبها. فتسابق العقربان أيهما يهزم الزمن قبل الآخر لتمضي الشهور، ويحين موعد الولادة بعد صرخة أفزعت الراقد على الأرض بجوارها، من حسن حظه أنه كان ليلتها راقداً بجانبها؛ لأنه كان يتحين موعد الولادة التي ظهرت علاماتها على محبوبته «فلوريا».

وقبل الولادة تكررت زيارات «ريكي» إلى سجلات الأثير ليتعلم كل ما يستطيع أن يتعلمه لإجراء عملية الولادة بنفسه وبمساعدة من التي أخذت الإذن لزيارة والدها لمدة شهر، «لاتويا» قد رابطت عند «فلوريا» لمدة أسبوعين، ولم تفارقها برهة لما لديها من خبرة مسبقة في التمريض، ليس طمعاً في مال، بل حبّاً لابنة الكرام المتواضعة، وتقديراً للحب الذي تراه بين هذين العاشقين اللذين دخلا التاريخ بقصة حب مريرة، كتجارب العشاق الذين لم يتوج حبهم بنهاية مُرضية إما جنونٌ وإما فراق وإما فقد أحد العشاق حياته بسبب الآخر.

صرخة كانت هي الإنذار ليتخذ الجميع مراكزهم، فقامت «لاتويا» بتسخين الماء، وقام «ريكي» بتجهيز السرير وتعديل وضعية «فلوريا» التي سوف تكابد أسوأ ليلة في حياتها، الليلة التي سوف يخرج فيها بشر من جسد فتاة مارّاً بعظامه بين عظام حوضها، بعد أن سحب ما يمكن أن يلتهمه من صحتها، قرر أن يخرج ليعيش حياته منفصلاً عن الجسد الذي تغذى منه، مودعاً هذا الجسد مع الشكر ويمكن مع النكران ليكون إنساناً لديه من الحقوق التي تحميه من الجميع، حتى من هذه الأم التي لولاها، هذا الإنسان لا يكون.

صرخات ألم من فتاة سوف تتغير حياتها من بعد هذا اليوم، كانت تحت رعاية أحدهم والآن هي الراعية، كانت تهتم بنفسها والآن تغيرت اهتماماتها لتكون مسؤولة عن أسرة، ألم تحاول تخفيفه بأنات معتصرة لكنه يزيد، تنهال القطرات من رأسها ما بين دموع وعرق صبّاب.
شهيق يتبعه زفير حار.. ترقب من «خوسيه» الذي يجوب ممر الكوخ ذهاباً وإياباً وكأنه والد الجميع، وهناك «لاتويا» التي تحاول جاهدةً أن تتماسك لكيلا تزيد سوء الموقف،

تمسح عرق «فلوريا» التي كادت أن تكسر ساعدها من القوة الرهيبة في قبضتها.. لكن من بهر الجميع هو «ريكي» الذي كان كالجبل الشامخ وسط عاصفة هوجاء، اقتلعت الحجر والشجر، ولم تمس منه قدر أنملة.

دلّك برفق أعلى بطنها محاولاً تسهيل نزول الطفل من أعلى الحجاب الحاجز واسترخاء عضلات بطن الأم، إلى أن سال «الماء الأمنيوسي» مخلفاً بركة أسفل منها، رحل إلى موضع الولادة ليلقي نظرة حسب ما تعلمه من السجلات الأثيرية، ظهر الانتفاخ والبروز الذي كان ينتظره فصرخ بكل حزم: «فلوريا» الآن ادفعي بكل قواك.. ثم أخبر «لاتويا» أن تكمل التدليك برفق.

ظهر طرف الرأس، فأدخل أصابعه برفق لكي يسحب الجنين مع زيادة مع زيادة الألم على الأم.. عملية الخروج وصلت إلى الكتفين، إلى أن لفظت كامل الجسد من بطنها، وما أن خرج إلا وقد صُفع أول صفعة من والده، ولا أظنها الأخيرة.

لا يوجد استجابة مما أفزع الجميع، شفط السوائل من فمه وأنفه ثم صفعه مرة أخرى على مؤخرته، فبكى بصوت أدخل السكينة بقلب والديه، صوت حرك عضلة القلب إلى أقصاها، جعل القلب ينبض حبّاً وحناناً لهذا الصغير الذي خرج إلى الدنيا، وربط الأحبة أكثر من ذي قبل.. أخرج «ريكي» المقص الطبي والكلابتين لكي يقطع الحبل السري، لكن ما أن وضع المقص على الحبل، إلا وصرخت «فلوريا» صرخة من قاع جوفها كأنها صرخة الوداع لدنو الأجل.

هنا توقف كل شيء والجبل الصامد في مهب الريح تزعزع، وكاد أن يغدو هباءً منثوراً، فقال (ريكي) مخاطباً «لاتويا»: ماذا؟، الولادة تمت على خير والولد بين يدي الآن، لماذا تصرخ ألماً؟،

(لاتويا): لا أعلم يا سيدي، لكن يبدو أن هناك خطباً،

خرج «ريكي» من الغرفة؛ لأنه لم يتحمل هذا الصخب، الذي من شدته انقطع حبل الأفكار.

خرج يسير ذهاباً وإياباً بجانب الكوخ، وهو يحادث نفسه، ويقلب الأفكار التي التقطها من السجلات الأثيرية، لكن لم يجد ما يمكنه من فهم الحدث الذي يمر به، أوقفه (خوسيه): ريكي،

ماذا هناك ؟ أخبرني لعلي أستطيع أن أساعدك بشيء ، مهما بلغت من العلم يا ولدي، فإن خبرات الحياة لها دور أيضاً، (ريكي): تمت الولادة على خير، ولادة طبيعية سليمة من النواحي جميعها، لكن ما زالت «فلوريا» تصرخ ألماً، هل من الممكن أنها قد جرحت عضواً من أعضائها الداخلية؟، أم أن قلبها قد أصابه ضر؟، أم أن رحمها قد أصيب أثناء الولادة؟، ثم سكت ونظر أمامه لكي يرجح جميع الاحتمالات الأخرى..

(خوسيه): ريكي هل فحصت البطن بعد الولادة؟، (ريكي): لا، (خوسيه): ادخل بسرعة وافحصه، أظن أنني فهمت سبب هذا الألم، دخل «ريكي» ثم ضغط على البطن من الاتجاهات جميعها ليجد أن بطنها بطن حامل، وكأنها لم تلد بعد!

صرخت ملء شدقيها حتى كادت أن تخرج روحها من شدة ألمها.. ضغط «ريكي» أعلى بطنها صرخت ملء شدقيها حتى كادت أن تخرج روحها من شدة ألمها.. ضغط «ريكي» أعلى بطنها لكي يعيد عملية الولادة من بدايتها، إلى أن ظهر رأس الطفل، وكرر العملية الأولى بالكامل ليظهر في آخر المطاف الطفل الثاني لهذا اليوم الذي جعل من هذين الحبيبين أسرة مكونة من أربعة أفراد..

هدأت «فلوريا» أخيراً فأغمضت عينيها لتدخل في سبات عميق بين أحضان «ريكي» من بعد ولادة طفليهما بتاريخ (السابع عشر من يوليو ١٩٢٦م).

حمل الأب طفليه التوءمين والدموع تنهل من عينيه على قرَّتَيْ عينيه،

غسلهما بيديه ودثرهما بمهادهما، ثم احتضنهما في أمانه ليذود عنهما مصيبات الدنيا.. (ريكي): أنا أبوكما الذي لا تطيب له الحياة إذا مرض أحدكما، أنا الأمان يا حبيبيّ، أنا الحنان يا فلذتَيْ كبدي، أنا الراحة لكما من مشقة حياتكما، أنا السعادة في حزنكما، أنا الحائط الذي لا يسقط، سَتراً لكما، وحماية من الشرور جميعها.

قبّل ما بين أعينهما مع ابتسامة مشرقة لهذين الجميلين النائمين بسلام..

وضعهما بجانب والدتهما ورغم السرير الصغير اتخذ لنفسه متكأً، ونام بجانبهم في يومهم الأول كأسرة تحيطها المحبة من جميع أركانها.

في فترة العصرية.. فتحت «فلوريا» عينيها من بعد ما سمعت بكاء تخلل قلبها قبل أذنها، سمعت نداء الأمومة، ولم تتوانَ رغم ضعف جسدها أن تلبي طلب ابنها، لكن عندما نظرت إلى جانبها وجدت ما أذهلها، فبحثت في الأرجاء عمن يجيبها عن هذا اللغز.. دخل «ريكي» إلى الغرفة، ويحمل بين يديه الحساء الذي أعدّه خصيصاً لها لكي تستعيد عافيتها في أسرع وقت ممكن، وضع بها الخلطات جميعها التي تعلمها من التبتيين، ففيها ما يمدها بطاقة الاستشفاء وأيضاً ما يُدِر حليبها لتغذية طفلين مجتمعين.

(فلوريا): بابا «ريكي» مبارك لك الوليد، لكن لمن هذا الطفل الآخر؟، ضحك (ريكي) بشدة، ثم قال لها: إنهما طفلاك يا حبيبتي، رزقنا الرب أكثر مما كنا نرجوه، لقد ولدتِ لنا قمرين، كل قمر أجمل من الآخر، هيا دعيني أساعدك لكي تطعميهما.

ألقمتهما ما يمدهما بالقوة التي يحتاجانها لمواجهة يومهما الأول في دنيا الكبد، وهي تنظر إلى وجه الأول وتبتسم، ثم الآخر، وهي تزخر من دموعها ومخاطها الذي ملأ وجهها و«ريكي» مبتسمٌ ملء شدقيه وهو ينظف وجه معشوقته،

نظر الطفلان لوالدتهما للمرة الأولى، (فلوريا): خطفا قلبي بهذه النظرة التي ذكرتني بنظرتك الأولى، التي منها غرقت في محيط عينيك، ومن خلالها هويت في أعماقك وأصبحت ملكك، لك أنت، لك وحدك.

(ريكي): أنتِ نعمة من نعم الرب، صندوق سعادة، راحة، أمل، أنت الدنيا التي أريد أن أكون فرداً فيها، (فلوريا): بل أنت قمرها وشمسها، بساتينها، وكل جمال فيها.. قطع (ريكي) لحظات الغزل ليقول: ألا تلاحظين شيئاً غريباً في وجه الطفل الثاني؟، نظرت (فلوريا) في وجه طفلها، ثم أخذت خرقة، وبللتها بلُعابها لتمسح عينيه: بلى إن عينه اليسرى مطموسة!

رزقهما الرب بتوءمين ذكرين متطابقي الشكل بخلاف لون الشعر فأحدهما بني مائل للحمرة والآخر أسود فاحم ولديه عين واحدة مطموسة والأخرى مكحولة؛ بسبب الرموش التي أحاطتها، لا يهم إذا كان أحدهما أو كلاهما به عيبٌ في هيئته، إنهما الآن فلذتا الكبد،

إنهما الآن السبب للحياة، والكفاح، والعطاء بكل حب، إنهما الآن زينة الحياة الدنيا وبهجتها.

نكّست (فلوريا) رأسها ثم همست: ما هي آخر الأخبار؟،

(ريكي): دائماً تبحثين عن منغصات تدمر بهجتك، توقف البحث عنك منذ زمن، وقد صرّح أخوك «أليكسندر» بأن المكافأة التي وضعها لمن يجدك حية أو ميتة قد ألغيت بسبب مدة غيابك التي طالت، فسلّم والداك للأمر الواقع بأنك هاجرتِ بلا رجعة، أو وافتك المنية في الطريق إلى هجرتك، ولا يوجد احتمال آخر.

أردف (ريكي) حديثه: قد أجاد «أليكسندر» دور البطل الذي يريد إنقاذ أخته من براثن الظلام، فجند الجنود وبحث عنك بنفسه في الأزقة والدكاكين وبيوت الجيران كذلك، لكن هناك وجهاً لا يراه غيري وهو عندما يختلي بنفسه، ولا يعلم في هذه اللحظة أن نفسه يقتحمها طيفي الذي يزوره بين الفينة والأخرى، لأرى السعادة التي تغمره بسبب تخلصه منك، وإزالتك من قائمة مسؤولياته، ليكرس جل وقته في الخيل وتجارته في مصارعة الثيران والمراهنة عليها.

(فلوريا): وما هو حال والديّ؟،

(ريكي): وما لهما غير تقبل الوضع الراهن؟، قد أصبحت ذكرى حزينة لهما يا حبيبتي، ولا تقلقي سوف تعودين في كنفهما، وسوف أتدبر موضوع رجوعك إلى منزلك سالمة، لكن ما أخفيه عليك يجب البوح به الآن.

(فلوريا) بقلق: ماذا تخفي؟،

بعد غيابك بأربعة شهور، تزوج «أليكسندر» ضارباً اعتراض «والدك» بعرض الحائط، الذي كان يريد هذا الزواج أن يكتمل بعد رجوعك، أظنه وقتها كان ما زال يعيش الأمل في لقائك مرة أخرى.

(لاتويا) وهي تُمهّد الطفلين، وتنظر إليهما بطرف عينها مانعة نفسها من الحديث، لكن طغى عليها فضولها لتنطق: ولم يكتف بذلك، قد أخذ غرفتك وحرق ملابسك، وباع مجوهراتك كلها لكي يدخل بها في رهانات خاسرة، نظر إليها «ريكي» نظرة غضب.. نزلت دموع «فلوريا» أسفاً لهذا العدو الذي يلتقي اسمها معه بأب واحد!

(ريكي): الآن وما يهم هو تدبير حكاية عودتك، وما سوف يكون مصير طفلينا،

(فلوريا): بالمناسبة وقبل ذهابك، أنختار لهما الأسماء الآن؟، (ريكي): رقم ١ ورقم ٢، إلى أن نقرر فيما بعد.. إلى لقاء قريب يا قمري ويا نجمتيّ.

الباب الثامن عشر

(الخلود)

(كان يا ما كان.. أنتِ أميرة «الزمان»!)

دير «بالما» - عام ١٨٧٢م:

مضت سنتان وبهما تغير كل شيء للأفضل، إلا الكنيسة التي نُسِج حولها خيوط الشر بسبب طفلة يسكنها قبيلة، وبسببها رحل الطالبات جميعهن من هذا الدير إلى دير آخر أكثر أماناً، رغم محاولات «ماريا» رئيسة الراهبات والراهبات كذلك لاحتواء تحرشات الشياطين، لكن يبدو أنه بعد مضي هذا الوقت الطويل، حان الوقت لطلب العون، ويجب أن يكون مِمَّن لديه العلم في هذه الأمور، ولا أحد أفضل منه بالطبع.

الأب «لويس» على مشارف الكنيسة يحمل بيده حقيبته؛ لأن الإقامة بهذه الكنيسة يبدو أنها سوف تطول بسبب القوة التي لم يستطيعوا أن يسيطروا عليها بعد، من خلفه المدينة بجمال ألوانها، ومن أمامه الكآبة بعد أن تحول شكل الكنيسة إلى لون الظلام، تنعكس على جدرانها ظِلال أغصان الأشجار الخالية من ورقها، وكأنها أظافر الشيطان نفسه.. وقف يتأمل هذا المنظر المرعب صباحاً، وهو يتخيله في الليل ماذا سوف يكون يا ترى؟!

ودّع الألوان وجمال الطبيعة من خلفه، وتوجه إلى اللون الرمادي الفاصل ما بين رحابة الدنيا والجحيم.. سار باتجاه صوت همهمات قادم من المذبح، فتح الباب الذي كان مواربًا، فوجد «الراهبات» في طقس الحماية، الشموع تحيط قاعة المذبح من كل حدب وصوب، والراهبات ضامات قبضاتهن متضرعات للرب في صوت واحد، دعاء واحد، للرب الواحد.

بحث في الوجوه، ولم يجد ضالته، وعندما التف لكي يكمل بحثه اصطدم جسده بمن جاء لأجلها، كانت «ميلا» تقف خلفه تمامًا بوجهها الشاحب وشعرها الأسود اللزج الذي غطى أجزاء من وجهها، احتضنها ثم أبعد شعرها عن وجهها.. سقطت عينه بعينيها، فتحول وجهه الباسم إلى الذهول الصامت.

عينان بيضاوان، حملها بسرعة ثم دخل إلى القاعة بخطوات متثاقلة؛ بسبب وزنها الذي غدا وزن رجل بالغ، وقبل أن يصل إلى المذبح صرخت (إحدى الراهبات) محذرة: لا تفعل.. لم تكمل جملتها؛ لأن «ميلا» سقطت على الأرض تنتفض بشدة، وتضرب الأرض بباطني كفيها، وفي كل ضربة تهز الأرض من تحتهم ومعها ترتجف أجساد الحاضرين الذين تشبثوا بالمقاعد الخشبية خشية الانهيار.

تقدمت الراهبة «ماريا» لتنقذ الموقف، فسحبت الصغيرة من ذراعيها بسرعة، رغم وزنها الثقيل إلى خارج القاعة، خرج «لويس» ليجد «رئيسة الراهبات» تسند ظهرها على الحائط، وتتنفس بصعوبة، وفي حجرها استلقت «ميلا» في وضعية السبات.. نزل على ركبتيه وهو يمسح على وجه (ميلا) التي فتحت عينيها الحمراوين، ثم وضعت يدها خلف رقبته، وسحبته بقوة لتكون أذنه بجانب فمها: عالمنا أقوى في الأحلام.. لا تنم أبداً.

في غرفة المكتب جلس «لويس» مستمعاً إلى (ماريا): ما رأيته اليوم كان نقطة في بحر ما نعانيه من شياطين «ميلا»، «ميلا» التي أصبحت الطالبة الوحيدة بهذا الدير، لا يوجد من نُعلمه الرهبنة من الآن فصاعداً، لأن الطالبات قد غادرن رهبةً منها، ومن لياليها المرعبة، تبدل حالها إلى الأقوى في كل مرة نحاول أن نواجه من يسكنها، بل نظن أسوأ من ذلك في المستقبل القريب.. (لويس) بهمس مسموع: الاستحواذ المثالي،

(ماريا): أصبت!

أردفت (ماريا): ومن الليل هناك من تتهامس معه، وعندما نتنصّت عليها نسمع حديثاً من طرف ثانٍ وكأن هناك أحداً يلازمها جل لياليها، ولما نفتح الباب بغتةً لا نجد سواها، وإليك الخبر المؤلم، غرست السكين في يد إحدى الطالبات وهي نائمة، وكتبت على الجدار كلمات باللغة الأندلسية «العربية» من سيل دمائها: «عزازيل أمير اللهب، يحمل بين يديه الوصب»!

(ماريا): وهذا ما يسمى.. (لويس): القربان، (ماريا): نعم، وقد قدمت القربان الآخر عن طريق قتل معلمة راهبة من خلال التمثيل بها وهي مقيدة بأغلال من نار، لأننا وجدناها في الصباح ملفوفة بحروق متفرقة في جسدها، خاوية العينين ومبتورة الأذنين، مقطوعة اللسان ونُقش على بطنها باللغة العبرية القديمة: «لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم.. بل أنفذ أوامر سيتن»، وكنا على يقين بأنها الفاعلة، لأننا ليلتها دخلنا على «ميلا» التي كانت نائمة في سريرها وقد جفت الدماء حول أصابعها.

(لويس) بعد صمت: أنا عازم أن أكمل حربي مع عدو الرب، وما لمسته من صوتك هو الاستسلام، هل أنت معي أم هذه حربي وحدي؟، (ماريا) بصوت غير واثق: معك لخدمة الرب..

عندما خيم السكون في أروقة الدير، ورحل الجميع بخطاً متثاقلة إلى غرفهم لإعادة شحن أجسادهم بطاقة جديدة تعينهم على أداء مهامهم اليومية، استلقى «لويس» على سريره، ثم التحف إلى صدره وهو يردد أذكاره الليلية، وجفنه يحاول النزول لإدخاله في مرحلة النوم، وها هو ينغلق ليجد نفسه في لمح البصر يقف أمام مرج عظيم مليء بالبساتين التي توحّدت بلون العشب الأخضر، ولكن أطرافه العلوية حمراء.

سار بقدمه الحافية على بداية المرج لتدخل أطراف العشب المدببة في باطن قدمه مُخلِّفة ثقوباً صغيرة تكفي دماؤها أن تصبغ العشب بلونها القاني، لم يشعر بالألم ولذلك أكمل طريقه، شعاع الشمس يداعب جلده، ويشعره معه بقشعريرة الحياة، لذة بسبب السكون والاندماج مع الطبيعة التي أراحت الذهن، وأخرجت العقل من دوامات الحياة.

نظر في الأفق وإذ بشجرة عملاقة يتيمة تقف بشموخ ما بينه وبين قرص الشمس، اتجه إلى مكانها فضولاً، بعد فترة من الزمن وصل إلى مشارفها، ومن خلفه خطواته ظاهرة على العشب؛ بسبب الدماء البسيطة خلّفت أثراً جديداً..

نظر إلى جمال الشجرة منبهراً من بريق الشعاع الذي عبر من خلال أغصانها العظيمة.

لكن ما دمر جمال الصورة من أمامه هو ثمار تلك الشجرة، التي تعلق في أغصانها رؤوس النساء، اقترب أكثر ليجد أن جميع النساء المعلقات من شعرهن بوجه واحد.. إنه رأس «ميلا».. بدأت الصورة تختل من أمامه؛ لأن الشمس غابت، ثم أشرقت، ثم غابت وأشرقت وكل ذلك بسرعة شديدة؛ مما سبب له عدم اتزان في بدنه وعقله الذي يحاول أن يفهم ما يحصل.

إحدى الثمرات أخذت تكبر، نبت للرأس رقبة، ثم كتفان، نزل إلى أسفل البطن، ظهرت القدمان، والجاذبية تصرخ: «انزلي إلى أرضي»، نزلت الثمرة خاضعة لأمر الجاذبية، ثم سارت (ميلا) نحوه وكأنها شيطان مريد..

تقدمت وبكل خطوة كان يرجع إلى الخلف على أمل أن يهرب من تلك اللوحة، فقالت مع ضحكات الشر التي ملأ صداها الأفق: لا مفر!

دعك عينيه، وكله أمل أن يفتحهما ويكون كل شيء كأنه لم يكن، فتحهما ليجد «ميلا» قد التصقت بوجهه فاتحة فمها بطريقة لا يفهمها عقله.. فتح عينيه على فزع ليخرج من هذا الحلم إلى واقع تمنى أن يُرجعه إلى الحلم مرة أخرى، وجد «ميلا» بالفعل تقف أمامه وهي تفتح فمها الذي اتسع ليدخل رأسه بداخله.

سحب «لويس» الهواء استعداداً لتلاوة مزامير طرد الشياطين، لكن الأخرى قد وضعت يدها معتصرة رقبته لتختل أحباله الصوتية والهواء الذي لم يكتمل دخوله، حتى تحشرجت بعض الكلمات في حلقه، تحولت عينا «ميلا» إلى البياض الكامل، وسحبت الهواء من حوله بقوة إلى فمها ومعه خرجت روح «لويس» التي كانت متشبثة بجسده، لكن قوى الشياطين التي تسكن «ميلا» أكبر من طاقته التي تتمسك بروحه.

سحبت روحه من جسده لتدخل جسدها، فتحرك الدم بين عروقها التي تحولت للسواد وكذلك تغير لون جسدها..

فُتح الباب لتدخل «ماريا» ومن خلفها «الراهبات»، وهنّ يحملن العصي التي سوف يحتمين بها، لكن سقطت أسلحتهن عندما وجدن «ميلا» على الأرض، وهي تخفي وجهها الباكي و«لويس» ميتاً، فاغراً فاه جاحظ العينين، مُزرق الجسد.

رفعت (ماريا) «ميلا» من كتفيها بغضب، مع الصراخ الشديد في وجهها: ماذا فعلت؟، ارتمت (ميلا) في نحرها وهي تبكي بشدة وترتجي: أرجوك أنقذيني من الشياطين، ارتخى جسد «ماريا» رأفةً بها ثم احتضنتها بشدة، والأخرى تبتسم بالشر المرعب الكامن بدواخلها، لكن لم يرَ أحدٌ تلك الابتسامة المخفاة في حضن «ماريا».

عندما رحل الجميع إلى مخادعهن وهن يكذبن على أنفسهن بأن هذه الليلة انتهت بنورها وظلامها، وفي الغد سوف يُتَعَامَل مع جثة خادم الرب الأب «لويس» الذي مات بطريقة لا تليق به والأسباب مبهمة لا يقبلها منطق إلا منطق ما وراء الطبيعة الذي أيضاً لا يصدّقه معظم البشر.

جلست «ميلا» على طرف السرير، وهي تنظر إلى الحائط الذي يقابلها، ومعها بدأت الأنغام تخرج من غير عازف، فظهر طيف حية تسعى إلى موضع الأقدام المتراقصة في الهواء، وصلت إلى القدم، فتسلقت إلى البطن؛ وبالتالي إلى جانبها من السرير ليكتمل جميل المحيا «لوي» جالساً بكامل جماله الباهر بجانبها.. وما أن رأته الأخرى إلا واحتضنت ذراعه ثم وضعت رأسها على كتفه.

(لوي): أمير الظلام يبلغك تحياته، ويثني على عملك الذي أتممته، ابتسم ثغر (ميلا): سمعاً وطاعة لك ولسيدك، متى ألتقيه؟،

(لوي): عندما تحين الساعة المرتقبة، وفي ذلك الحين يكون التنفيذ دون نقاش.

طلب «لوي» من «ميلا» أن تستلقي على السرير من بعد أن استلقى هو فاتحاً ذراعه اليمنى لها لكي تنام على صدره، (لوي): حان الآن موعد حكاية ما قبل النوم، (ميلا): نعم، أرجوك أنا بحاجة إلى حكاية، وأن تكون منك أنت لا من أحد غيرك، قد اعتدت النوم على صوتك، ووجودك جانبي، وقبل أن تحكي قصتك، هل لي أن أطلب منك طلباً؟،

(لوي): تفضلي، (ميلا): ممكن أن تبقى معي إلى نهاية العمر ولا تتركني أبداً؟، صمت (لوي) قليلاً ثم قال: أعدك بذلك.
(لوي): قبل أن أحكي لك الحكاية، أتعلمين ما يطمح له سائر البشر، إن كانوا من أصحاب اليمين، أو أصحاب الشِّمال، فجميعهم يسعون إلى هدف واحد؟، (ميلا): ما هو؟، (لوي): الخلود!

الباب التاسع عشر

(حكاية حبرها الدموع)

(من يقول بأني وحيد؟، ها هي همومي ترافقني والليل كذلك، وصدى صوتي يخاطبني وإن كان في نبرته.. حزن!)

ليلة من ليالي برشلونة المريرة - عام ١٩٢٦م:
وقفت «فلوريا» مقابل باب المنزل محاولة أن تعيد توازن تنفسها وكذلك استجماع نفسها التي سوف تنهار بعد ثوان من لسان «أخيها» الحاد.. ومن داخل المنزل الذي يحتوي الأسرة المكونة من أربعة أفراد يتوسطون طاولة الطعام بهدوء كئيب، فتحت (سيدة المنزل) عينيها على مصاريعهما.. حتى إذا وصل الإنسان للحاسة السابعة، وفعّل العين الثالثة لن يصل إلى قوة حاسة الأمومة، وقفت ثم قالت: فلوريا!

بالتزامن مع رفع يد «فلوريا» لتطرق الباب، كانت «والدتها» تفتحه من الداخل.. التقت العيون ورقصت القلوب بطبولها الصدّاحة، لم تنبسا ببنت شفة، كانت اللغة الوحيدة المستخدمة هي حضناً يعصر جسداً بآخر، وينقل الشوق من قلب ينبض فوق الآخر.

وبالمقابل رفع «أليكسندر» كلتا قبضتيه اللتين كانتا تمسكان بالشوكة والسكين وهوى بهما على الطاولة؛ مما أفزع «الأب» الذي كان ينظر إلى الباب بذهول، ودمر الصوت كذلك لذة الاحتضان من بعد فقد الأمل في لقاء آخر..

وهناك أيضاً زوجة أليكسندر «لورا» التي توقفت اللقمة في بلعومها، وكادت أن تختنق لولا القبضة التي هوت على الطاولة، فحركت اللقمة إلى المعدة، دون أن يشعر بها أحد لتكمل النظر بعينين دامعتين من الغصة ومن الأحداث الجارية من حولها.
قام الوحش الكاسر متجهاً للانقضاض على فريسته بعينين ترميان بشرر، فوقف الأبوان حائلين بينهما، (السيد فيرنانديز): لنسمع عذرها أولاً يا بني.. سكن الآخر محاولاً كظم غيظه، وجلست الأسرة بعضها حول بعض كالأيام الخوالي استعداداً للاستماع إلى حكاية ما قبل النوم.. حكاية «فلوريا».

تجرعت (فلوريا) كوبَ الماء دفعة واحدة؛ بسبب الخوف الذي سيطر عليها، وتمنت في خلدها أن تتقن فن الإلقاء لكي تكسب قلوبهم في صفّها مع العلم المسبق أن أخاها لن يصدقها، سحبت شهيقاً طويلاً ثم بدأت: لا أعلم إن كان للاعتذار قيمة الآن، وقد كسرت قلوبكم برحيلي، لكن القدر قد أخذ حقكم مني وزيادة.

رحلت طلباً للحرية من.. من استبداد أخي، هرباً من إهاناته من تعامله السيئ معي على نحو دائم، لم أخطط مسبقاً، بل كان قراراً لحظيّاً، أخذت حقيبتي ورميت في جوفها ما وجدته أمامي، وفتحت الباب ورحلت بكل بساطة تاركة الغضب يقودني إلى المجهول.

سرت بين أزقة برشلونة والساحل في ظهري، ورفيق دربي «ظلي» الذي يظهر ويختفي بين الفينة والأخرى ليسلي وحدتي، إلى أن وصلت للسوق الخالي من البشر إلا من الذي يظن أنني لم أنتبه إليه، لكن تغافلته وأكملت طريقي وسط نظراته التي كانت تتبعني منذ أن دخلت السوق إلى أن خرجت من وسطه.
وأنا أسير استرجعت الحوار الذي كسر قلبي، الحوار الذي كان فتيل انفجار قنبلة الغضب، صوت صراخ «أليكسندر» لم يخرج من رأسي، وما زال جسدي ينتفض كلما مرت على ذاكرتي طرقات الباب التي تدق برأسي وليس بالخشب، وكل ضربة على سطحه كنت أشعر بها على جسدي الذي انهزم قبل المواجهة.

في حين كان عقلي يتذكر الألم والإهانات والضرب.. تلقيت ضربة من خلف رأسي، لأدخل إلى بئر الظلام الذي ما زلت أهوي به دون توقف.. فتحت عيني بعد زمن غير معلوم، لأجد نفسي في عربة مترنحة من الطريق الوعر الذي تعدو به الخيول الهائجة من ضربات السياط، حاولت الكلام لكن فمي كان مكمماً، حاولت الحركة لكن كان جسدي مغلولاً، البصر هو الوحيد الذي ما زال على حاله وكان يرى السائق من نافذة العربة، هو بذاته المتربص لي في سوق برشلونة، كان ينتظر الغفلة، وقد بت بسببها بين يديه.

لا أعلم كم مر من الوقت، ممكن يوم، يومان، لا أعلم.. فقد كنت ما بين النوم والصحوة، لا طعام ولا حتى تطهير نفسي من نجاستي التي ملأت مقصورة الركاب، لم أعد أشعر بذراعي ولا بوجهي المكمم من شدة الرباط المحكم.

توقفت العربة، ونزل من كان يقودها وأنزلني عنوة، يسير من خلفي ويقودني من خلال يده التي يضعها على كتفي لبوابة تلك المزرعة، ولا أظنها مزرعة، لأنها كانت بخلاف كل شيء جميل،

شجر تيبست أغصانه من فعل الزمن، يتوسطها منزل لا يسكنه إلا الشياطين بسبب منظره الذي يدخل الرعب للنفس، والكثير من عظام الدواب منتشرة من حوله، دخلنا في وسط المنزل، ثم أشعل شمعة وحيدة بددت الظلام من حولها، نظرت إلى وجهه الذي غطى منتصفه بوشاح يلفه على رقبته، وأي وجه يملك؟!

لا يظهر منه غير جلد ذاب معظمه، وعرفت فيما بعد أن هذا الظالم قد احترق جسده، ودمرت ملامحه، أجلسني على الأرض، وسحب من الحائط سلسلة طويلة مثبتة بإحكام، وربطها على ساقي، وعندها فك لثامي وحرر يديّ، ثم وضع لي وعاء به فتات طعام جار عليه الزمن بسبب رائحته العفنة، وضعه على الأرض لكي ألتهمه كما تأكل الدابة، وكانت هذه أول مرحلة من مراحل إرغامي على نسيان كياني، كنت بشراً كريماً والآن حيوان، ذليل، خادم لهذا الشيء الذي لا يمت للإنسانية بشيء.

ومنذ ذلك اليوم، وأنا أعمل تحت إمرته، خادمة تغسل ملابسه، وتعد طعامه وتنظم الغرفة الوحيدة القابلة للمعيشة في منزل المزرعة، وكل ذلك من أجل وجبتين في اليوم، وإذا تعبت أو تكاسلت كنت أنام دون طعام..

وينام هذا المسخ على السرير ذاته الذي أنام عليه.

وهل يوجد سرير يجمع بقايا ذكر بأنثى مكسورة الجناح، مغلولة، مغلوبة على أمرها، إلا وكان للإنسان ما سعى.. هتك عرضي دون أن يكون لي من خيار وحتى لو كان.. لكنت اخترت الموت بدل ما أعانيه وأنا بنت النبلاء، والآن كيان من البؤساء.

نزلت دموع «فلوريا» بغزارة، وهي تتمخط بشهقات القهر، مما أبكى والدتها وزوجة أخيها وكذلك نزلت دموع والدها، لكن «أليكسندر» لم يرف له جفنٌ، واتخذ حنكة الصمت لكي يحلل كل ما يمر على مسامعه.. أردفت (فلوريا) حكايتها: من بعد هذه الليلة التي بات جسدي فيها ملكه، غدوت خادمة طوال النهار وخليلة عندما يسدل الليل ستاره.. نعم كما تفكرون، ولا تحتاج الكثير من التفكير لكي يحدث الحدث الأعظم، حبلت وكبر بطني، لكن لا أريد أن أحمل نطفة هذا القذر في أحشائي، فأسقطت الجنين بعد أربعة شهور، اتخذت أقصى الضربات على بطني وجسدي، إما بضرب نفسي وإما قفزاً من كل مرتفع أمامي.

لماذا لم أحاول الفرار؟، حاولت مراراً وتكراراً، لكن الأغلال كانت محكمة وكذلك عندما يلاحظ محاولاتي البائسة كان يحرمني من الطعام يوماً كاملاً، وفي يوم من الأيام غادر المنزل، ونسي أن يطفئ الشمعة التي تنير محيطنا، نسي أن يزيلها من أمامي كعادته، فلا نور إلا بوجوده، والآن ترك النور ورحل.

ولم يطل رحيله؛ لأنه في هذه الليلة بالذات من كل أسبوع يحتفل بالخمر المعتق المُخزن في مكان ما في هذه المزرعة، ومن بعد الثمالة يكمل حفلته على جسدي، لكن كنت له بالمرصاد، وقفت بجانب الباب، وتذكرت الضربة التي تلقيتها على رأسي، وما زلت أتجرع مُرها إلى اللحظة التي دخل بها وهو يوليني ظهره.. شفيت جزءاً من غليلي بضربة جمعت جل قوتي، رفعت إحدى أرجل الكرسي الذي بين يديّ، وهويت بها على رأسه لينفجر بالدم المتناثر، ويسقط أرضاً جسداً يكابد للتمسك بالحياة البائسة التي يعيشها.

حاولت فك الأغلال المثبتة في الحائط، أو على قدمي، واستطعت أن أفكها بعد جهد جهيد مستعينة بالأدوات كلها من حولي، «كشفت فلوريا عن ساقها لتظهر أثر السلاسل عليها»

وأكملت حكايتها: ثم أخذت ما تبقى من لهيب الشمعة لأروي ظمأها، فأشعلت بها كل قماش رأته عيني، ومنها ملابسه البالية.

نظرت إليه نظرة الوداع النهائية.. رحيل يليق بمن ظن بالنساء ضعفاً، وإن الإلهة الحرب «أثينا» امرأة.. نحن يا عزيزي ننتظر ساعة الغفلة لكي ننتقم دفعة واحدة، انتقم القدر منك سابقاً بحرقك، ولا أعلم من التي فعلتها قبلي، لكن لك مني الوعد يا وضيع ألا يكون أحدٌ بعدي. شُوِي جسده، ومن شدة الضربة على رأسه، لم يقو على التلوي ألماً، بل كانت أنات مكتومة، وقفت خارج الغرفة لكي أنظر لمن هتك عرضي، لمن عاملني معاملة الخادمة وأنا ابنة النبلاء، وقفت لمن وضعه القدر في ذكريات لا تنسى بسبب الشروخ التي رسمها على جسدي.. سكن جسده وذاب المتبقي من جلده، وبدأت النار تتعاظم إلى أن خرجت من الغرفة تبحث عن المزيد من الغذاء الذي يوازي شهيتها المفتوحة.خرجت إلى العربة التي أقلتني مكسورة، ذليلة، وركبتها للمرة الثانية وأنا شامخة، منتقمة، أقوى مما سبق، وعندما وصلت إلى مشارف السوق تركتها وأكملت الطريق سائرة على قدمي التي قادتني إلى مسقط رأسي، وها أنا الآن بينكم، ألتمس العذر لما اقترفت يداي، وللألم الذي عايشتموه من بعدي.. لا أتوقع منكم الغفران، لكن أرجو أن تتقبلوني بينكم إلى أن يحدث بعد ذلك أمرٌ.

قامت «والدتها»، واحتضنتها بشدة وتعالت صيحات البكاء بينهما وكذلك «والدها» يمسح دمعة غادرت مقلته رغم إخفائها خلف كبريائه، وماذا عن «أخيها» المتغطرس؟، كان كما توقع الجميع، لم يصدق كلمة مما قالت «فلوريا»، لكن رق قلبه، وسكن غضبه، ولم ينبس ببنت شفة، بل غادر الجميع إلى خارج المنزل.

ذهب إلى الإصطبل، وركب أسرع العاديات، واتجه إلى أقرب مرتفع من بعد السوق، ولم يكن وحده، بل طيف «ريكي» كان رفيقه.. وكلاهما نظر إلى بزوغ الفجر الذي لاح في الأفق مع غيمة دخانية واضحة من رحابة السماء، لتكون بمثابة النجمة التي يستدل بها الضال طريقه.

لن يرتاح «أليكسندر» قبل أن يتحقق بنفسه، قبل أن يبحث عن الحقيقة، ولا أظنه سوف يصدقها، وإن صدقها فسوف يبحث عن أي شائبة لتكذيبها؛ بسبب كرهه الدفين لأخته، وسبب هذا الكره هو ما يعادلها في كفة الميزان، حبه الشديد للمال، المال الذي يملكه هو ووالده، وحسب وجهة نظره يجب ألا يشاركه به أحد من بعد أن يرحل والداه إلى مثواهما الأخير.

وصل من بعد مسيرة نصف يوم دون توقف لترتاح فرسه، وصل ليجد السواد المحيط بالمكان المحترق وما زال بعض الخشب يحترق بشعلات بسيطة والبعض الآخر تآكل من قوة الحريق، وضع وشاحه على فمه، ودخل وهو يركل ما يعوق تقدمه لكي يصل إلى الغرفة التي تكلمت عنها «فلوريا».

غزت أنفه رائحة اللحم المشوي بمجرد توسطه الغرفة، لينظر إلى ما شرحته بالتفصيل وكيف انتقمت ممن أهان أنوثتها ودمر ذكرياتها، وما نظر إليه في حينه أدخل الخوف في نفسه، هل لأخته كل هذه القوة؟، هل من الممكن أن يكون مصيره أسوأ من ذلك إذا استمر في فعله؟

خرج من المزرعة المهجورة المتفحمة، لكن لم يعد إلى منزله في برشلونة، بل أكمل المسير إلى مزرعة العائلة لكي يرتاح من عناء السفر، ويحلل ما سمع وما رأى، بهدوء بعيداً عن الجميع

ما حدث قبل شد الرحال إلى برشلونة:

تنهال دموع الثكلى بغزارة؛ مما أتلف وجهها الجميل بدموعها السوداء من أثر الكحل، (فلوريا): كيف لي أن أترك طفليّ هنا وأغادر؟، (ريكي): سوف يعودان إلى أحضانك في القريب العاجل، (فلوريا): كيف؟، (ريكي): لا عليكِ، ثقي بي واتركي الأمر لي ولا تبالِي.

قبل غروب الشمس، ركب الحبيبان في عربة الخيول التي أوصلتهما فيما سبق إلى مزرعة العنب، والطفلان الرَّضيعان في أحضان «لاتويا» و«خوسيه»، اللذين ودعا المغادرين إلى مهمة العودة التي لا يعلم أحد مصيرها، إما العودة إلى الحياة الطبيعية، أو الدخول إلى الجحيم من أوسع أبوابه.

حكى «ريكي» على مسامع «فلوريا» القصة التي يجب أن ترويها لأهلها مع القليل من الدموع والكثير من الآهات التي تظهر البؤس الذي كانت تعيشه في غيابات المجهول.. ضرب «سائق العربة» على سقف مقصورة الركاب عندما توقف على مقربة من مزرعة العنب، (ريكي): انتظريني هنا ولا تقلقي إذا تأخرت قليلاً.. وقبل أن ينزل فك الحجل النحاسي من قدمها الذي كان قد ألبسها من قبل.

نزل «ريكي» ثم ذهب إلى السلة الخلفية للعربة، وحمل الشوال الثقيل على كتفه، ثم دخل إلى مزرعة مجهولة قد توقف السائق بجانبها، مزرعة لا يشعر من رآها إلا بالخوف من منظرها الغامض، لم تحِدْ أنظار «فلوريا» عن حبيبها، لكن ما لمحته جعلها تشهق وتضع كلتا يديها على فمها. نظرت إلى اليد التي تدلت من الشوال تترنح خلف «ريكي» الذي كان يحمل صاحب اليد على كتفه، وفي اليد الأخرى يمسك الحجل الذي فكه منها.. بعد مضي وقت من الزمن انتشر الدخان في الأرجاء، وخرج «ريكي» راكضاً، ثم دخل إلى العربة ووجهه ملطخ بالسواد، وما أن سمع «السائق» صوت الباب الذي أُغلق إلا ووكز الخيول بالحبال المعلقة عليها لتنطلق بأقصى سرعتها، نظرت «فلوريا» من النافذة إلى النيران التي تلتهم الأخضر واليابس، وأخذت مكان الشمس التي غادرت سماءهما، لتنير محيطهما بدلاً منها.

(فلوريا): أين وجدت الجثة؟، (ريكي): مقابر الفقراء، حيث إنهم دفنوا خمس جثث في قبر واحد، لا تقلقي لن يلاحظ أحد نقص واحد من أصل خمسة.. امتصت «فلوريا» الطمأنينة من والد طفليها الذي يحتويها بذراعيه، مما أمدها بالقوة التي تحتاجها لمواجهة الوحش الذي يقبع في عقر دارها، وبالمقابل ماذا ستكون ردة فعل والديها؟،

لا يوجد مطالب البتة، فقط عودتها بخير وسلامة إلى الحياة من بعد أن فقدا الأمل في رؤيتها ثانيةً.

توقفت العربة في أطراف السوق المظلم؛ بسبب دخول ليلة اليوم الثاني منذ رحيلهما، ونزل الاثنان ليكمل كل واحد منهما في طريق مختلف عن الآخر، لكن كان الأسبق والأسرع هو «ريكي» الذي أبى أن يترك محبوبته وحدها في ليلة المواجهة،

دخل إلى منزله، ثم جلس وسط غرفته ليوازن تنفسه، وذلك للدخول إلى مرحلة التأمل وبالتالي الإسقاط.. (ريكي): إن لم يكن جسدي معك يا «فلوريا»، فروحي تحوم حولك دائماً يا من سرقت قلبي برضاي.

الباب العشرون

(رسالة من.. الشيطان)

(رسالة من لهب، عنوانها.. الاستحواذ المثالي!)

لم يبق أحد.. عام ١٨٧٨م:

رحل الجميع إلا بعض الخادمات والمكافحة «ماريا» التي كانت فيما سبق رئيسة لهذا الدير وما يحتويه من راهبات.. راهبات نجون بأنفسهن من بعد أن مات منهن الكثير، إما انتحاراً وإما نوماً لا استيقاظ بعده، ولا يأتي الموت إلا من مكان معروف لدى الرئيسة.. «ميلا» دون ريب، هذا ظن الجميع، لكنْ «لماريا» رأي آخر.

«ميلا» ضحية، طفلة لا حول لها ولا قوة بما استحوذ عليها، وما زالت «ماريا» تأبى الاستسلام، فما تعلمته في حياتها هو خدمة الرب وإن كانت لا تنقل هذا العلم بسبب الخواء الذي بقي في الدير، لكن في هذا المقام، خدمتها في محاربة الظلام.

مضى الكثير من الوقت في هذا المكان، حتى والدا «ميلا» انقطعت أخبارهما، وكذلك الرسائل التي كانت تأتي بكثرة بعد انتقالها، ومع الوقت أصبحت رسالة واحدة كل عدة شهور، وبعدها في كل سنة رسالة واحدة، لكن في السنتين الأخيرتين، لم تأت كلمة واحدة منهما.

هذا ما حصل داخل أسواره، وما حدث خارجه هو الكلام الذي يُدار في جل صقلية، بأن هذا المكان ملعون، وإن كان من قبل كنيسة، ويحمل بقلبه ديراً ينثر الراهبات في أركان إيطاليا لينشرن كلام الرب وتعاليمه، ليكنَّ البذور التي تنبت أشجاراً متينة بركائز الدين.
الآن هي الكنيسة المهجورة، المرعبة، المنبوذة من البشر الزائرين، المسكونة بالشر المهيب، أصبح السكان المحليون يتحاشون المرور بجانبها بسبب الرهبة التي تغزو أجسادهم من منظرها، وأيضاً الهمسات التي يسمعونها في آذانهم، ولا يعلمون مصدرها، لأنه لا كيانات بجانبهم لكي يهمسوا لهم هذا الهمس.. هذا بالنسبة للسكان المحليين، وهناك الزائرون الذي قدموا للجزيرة إما لزيارة أقاربهم، أو للتجارة، أو للسياحة، ولا يعلمون ما حدث لهذا الصرح، لكن منظره يكفي ليغضوا الطرف عن زيارته.
لكن من يمر بجانبه إما ليختصر الطريق أو حتى مصادفة، لا بد أن ينظر إلى تلك «الفتاة» التي تنظر إليهم من النافذة برأسها المنكّس والشعر الذي يغطي وجهها، وكأنها بحد ذاتها مَعلَم، يدعو إلى الدخول واكتشافه لإرضاء الفضول، الفضول الذي من الممكن أن تكون نهايته مغادرة الدنيا على شكل قربان.

حل الليل بسكونه، والشمعات تتراقص من تنهيدات الريح المتفرقة في أزقة الدير، وخلوة في غرفة بها نزيلة وكيانها، يتسامران في ليلتهما التي سوف تنتهي قريباً على اتفاق جديد لإرضاء «لوسيفر»، جلس (لوي) بجانب «ميلا» وأخذ رأسها على كتفه: حبيبتي ذات الحُسن، سوف يكتمل بدركـ غداً، والزمن سوف يعيد نفسه من بعد طول انتظار، غداً هو يوم مولدكـ الثامن عشر وأيضاً سوف يتزامن معه قمركـ الدموي.

رفعت (ميلا) رأسها لتنظر في عينيه: غداً يكتمل عهدي، وأكون منكم ولكم؟،

(لوي): غداً يا حبيبتي يكتمل العهد وتلتقين بسيدكـ، وغداً أيضاً نتحد أنا وأنتِ كذلكـ، لن أكون بجانبكـ مرة أخرى، بل تتحد ذراتنا مدى الدهر، سمحتِ لي بقيادتكـ وتعليمكـ طيلة السنوات التي رحلت ولن تعود، والآن نُكمل العهد على أن أسكن جسدكـ، ويغدو عقلي عقلكـ وقلبي قلبكـ وحبي يكبر كل يوم بداخلكـ.

(ميلا): حبيبي ومهجة فؤادي «لويثان» لا أريد رجلاً غيركـ، ولا أريد أن أرى سعادة إلا من خلالكـ،

(لوي): سوف نعيش بعضنا مع بعض في جسد واحد يا حبيبتي، وسوف تكون المعيشة طويلة الأمد، أخذتِ روح الأب «لويس» بأقوى طلاسم «لوسيفر» وكذلك بعض الطالبات والراهبات، وتم إضافتهم إلى عمركِ الذي سوف يتوقف عند الثمانية عشر عاماً، في زهرة شبابكِ، ولن يتغير شكلكِ أبداً.

أردف (لوي) حديثه المغري أردف (لوي) حديثه المغري لمحبوبته: وعدتكِ بالشباب الدائم، والعمر المديد وممكن أن يكون الخلود، كما وعدنا «أمير الظلام» بذاته، على أن تكوني له، تتبعين أوامره دون نقاش، تلبين دعواته، تكونين يده وعينيه بين البشر.

(ميلا): أنا منه وإليه، أطيعه في جميع أوامره، لا أفعل إلا ما يرضيه، (لوي): إذاً ننتظر الغد، حفل زواجنا، وتتويجكِ لتكوني أميرة من أميرات الظلام، (ميلا): إلى الغد إذاً.. وضعت رأسها على حجره وأغمضت عينيها، والآخر رفع خصلة من شعرها إلى خلف أذنها، وأخذ يمسح بظهر كفه على خدها إلى أن دخلت في سبات بريء مناقض لأصلها الذي آلت إليه.

طوال النهار لم تخرج «ميلا» من غرفتها؛ مما أقلق «ماريا» فأرسلت إليها إحدى الخادمات التي كانت تطرق عليها الباب مع ارتعاشة في جسدها انتقلت إلى يدها، والأخرى تتكلم بصوت ليس صوتها الأصلي من ضخامته: لا أريد شيئاً اغربي عن وجهي.

مع غروب الشمس قررت «ماريا» التي شغلت نفسها بنقل علمها إلى مخطوطات ممكن أن يجدها أحدهم، وينتفع بها لخدمة الرب، وفي الوقت نفسه قررت منذ مدة أن تكتب الحكاية التي عاشتها بنفسها مع حزمة الشياطين العتية التي تسكن جسد طفلة في مذكراتها، تركت ريشة الطاووس مغروسة بقلب مستنقع الحبر،

وقامت إلى غرفة «ميلا» طرقت الباب، ولم تمهل من يسكن الغرفة للرد على القادم، لأنها فتحت الباب مباشرة، لكن لم تستطع الولوج، لأنه مقفل على غير المتوقع، لأن جميع أبواب الطالبات لا يوجد لها أقفال من الأساس.

(ميلا): «ماريا» ارحلي ولا تعودي، هذه الليلة لي وحدي، ولا أرغب أحداً أن يفسدها عليّ، لم تفهم «ماريا» ما وقع على مسامعها، ولكن نظرت إلى الجانب الإيجابي،

حيث إن جل اليوم كان هادئاً، ولا يوجد به مصائب جديدة من «ميلا»، تركتها لكي تكمل عملها في نقش الحروف على الورق.
صراخ مدوٍّ شديد الحدة بعثر الهدوء المحيط في أروقة الدير، قادم من غرفة الرعب، سمعتها المتبقيات في الدير، ولم يتقدمن إليها لنجدتها، لكن اتجهن بمناماتهن وشعرهن المبعثر إلى غرفة (ماريا) التي كانت تهُمُّ بالخروج، فتحت الباب لتجد الخادمات قد تجمهرن على بابها.

لم تنبس ببنت شفة، لكن هرعت بكل جَلَد إلى غرفة «ميلا» التي ما زالت تصرخ بطريقة مرعبة تقشعر منها الأبدان، ضربت الباب بقبضتها قائلة: افتحي الباب لكي ننجدك، بالمقابل لم تجد استجابة غير الصراخ المتقطع مع تغيير الحدة من عال إلى مؤلم إلى مبكٍ، تلا مرحلة الصراخ، مرحلة الصخب، هناك تكسير وتحطيم بأثاث الغرفة!

إلى أن نزل الهدوء، الهدوء المكروه، الذي يجعل الحواس جميعها في ترقب وكأنه سوف يحدث المكروه في القريب العاجل لا محالة، وقد حدث بالفعل..

خربشات بدأت تظهر للآذان الملتصقة على خشب الباب، وفي كل خربشة هناك أنين ألم يصدر من حنجرة «ميلا».. دوت الصرخة الأخيرة التي أتي من بعدها السكون وكأن من سكن هذه الغرفة قد انتقل إلى مثواه الأخير، مما جمع قوة المتجمهرين لكسر الباب، ومع الضربات المتتالية بالأكتاف الأنثوية فُتح الباب لينظرن إلى العجب!

وجدن التي كانت بشراً، قد غدت مسخاً، «ميلا» على الأرض ووجهها ملطخ بالحبر الذي صبغ حول عينيها، وانتشر ببقع متفرقة على ملابسها وفي محيطها، وهناك خصلة بيضاء ظهرت بشعرها الأسود الفاحم، يداها تملؤهما الدماء وطبعات يدها منتشرة على منامتها.. اقتربت «ماريا» وعندما تفحصت يدي «ميلا»، وضعت يدها على فمها قائلة: رحماك يا إلهي!

يداها خاليتان من الأظافر إلا إحدى الأصابع التي ما زال الظفر فيها معلقاً بطرف اللحم، وينتظر من يقتلعه.. وبدماء أصابعها خطّت على الحائط: «أنا منك وإليك، أنا أميرة الإنس، مبعوثة من عالم الظلام».

وعلى الحائط المقابل كُتب: «الاستحواذ المثالي»، بطريقة معكوسة وكأن من كتبها كان يقف على السقف.. لكن ليس هذا ولا ذاك ما لفت انتباه الجميع، بل رسالة من ورق البردي القديم، ورق غير موجود في الدير ولا حتى في صقلية، مكتوب بقلبه سطور بطريقة مرتجفة.. حملن «ميلا» ووضعنها على السرير، ورحلت إحدى الخادمات لكي تطلب الطبيب، ثم قامت «ماريا» وحملت الرسالة التي لم تستطع قراءة حرف منها!

لأن الرسالة مكتوبة بشفرة غريبة، حيث إن كل كلمة منها بلغة غريبة على «ماريا».. كلمة بالعبرية والأخرى بالعربية والتي تليها بالهيروغليفية، وهناك السنسكريتية وأيضاً السومرية، وختامها هناك بصمة دم قد سالت دمعة منها إلى أسفل الورقة.

ما حدث قبل الصرخة الأولى:

الشمس ترحل من الأفق مودعة الأرض ومن عليها، بشعاع الحنان البرتقالي، تمسح على الوجوه والزهر والشجر، وكأنها تريح العالم من نهار السعي لطلب الرزق بوداع يليق بهم من بعد العناء، وتترك المجال للقمر أن يضيء ليل المتعبين بإنارة باعثة لراحة البال والطمأنينة، لكن ليس اليوم!

ظهرت نقطة حمراء على عين القمر، ثم طغت على لونه المضيء وأخذت تزحف وتنتشر؛ وبالتالي صبغت بعضه وأخيراً كله، ليظهر القمر الجريح، القمر الدموي الذي ينظر له الحبيبان المتعانقان من نافذة كنيسة «سانتا ماريا ديلو».

(لوي): كل عام أكون أول المهنئين، لكن مولدك الحقيقي هو العام الذي نكون فيه روحين في جسد واحد، قلب واحد، وعقل واحد.. كل عام وأنت لي وأنا لك، كل عام وأنت الأقوى والأجمل، كل عام وأنت الحب، تورَّدَت وجنتا (ميلا) وتوهج الماء الذي تجمع على مقلتيها: كل عام وأنت من يُجمِّله.

(لوي): قبل أن أندمج معك، هل تسمحين لي بالولوج إلى جسدك وروحك مدى الحياة؟، (ميلا): أسمح وبكل حب، (لوي): نعيش معاً ونموت معاً؟، (ميلا): معاً إلى الأبد، (لوي): بمجرد دخولي إلى جسدك سوف يدوم شباب وجهك الجميل وجسدك المشوق، تدومين على هذا الشكل الذي أمامي، بسبب إضافة سنوات عمري المتبقية إليك، والمتبقي لي على أقل تقدير مائة سنة.

أردف (لوي): خبرتي وقوتي لك، وأيضاً كل من سحبت روحه قد كسبتِ معها خبراته الحياتية؛ مما يسهل عليك المهام القادمة المكلفة من أمير الظلام «لوسيفر»، وقبل أن نندمج يا معشوقتي، هل لديك أي سؤال؟،

(ميلا): نعم، متى ألتقي سيدنا؟

(لوي): الآن!

ابيضت عينا «ميلا» وارتقت في الأفق فاتحة ذراعيها وفمها الذي يريد الصراخ ألماً، لكن لا صوت هناك يمكن أن يخرج، لأن من كان يسكن جسدها في السابق يحاول هذه المرة أن يندمج بروحها، يحاول أن يتغلغل فيها مدى الدهر، ليكونا كيانين بقالب واحد إلى الأبد.

ارتجفت ثم أزبَد فمها وكأن روحها تعيش سكرات الموت، هوت على الأرض وانتفاضتها مستمرة، ظهر على سطح جسدها عروقها المنتفخة والسواد يجري بها مجرى الدم إلى أن وصل إلى مستقر القلب، فسكن وسكن جسدها، ثوان معدودة إلى أن شهقت وهي تسحب هواء الغرفة بأكمله كمن طفا من بعد الغرق.

وقفت وتحسست جسدها بيديها، شعرت بالقوة الجديدة التي غمرتها، نظرت إلى المرآة لتجد الوجنتين اللتين تورّدتا بحُمرة العشق، وخصلتها البيضاء التي أضافت الجمال إلى السرمد الذي غطى شعرها، لم تتحدث لأن هناك حديثاً يجري داخلها، أغمضت عينيها نشوةً للقبلة التي شعرت بها من شيطانها «لويثان»، وأثناء هذه اللحظة الحميمية فُتحت النافذة على مصراعيها لتدخل الريح عنوة من غير دعوة مسبقة.

وفي هذه اللحظة من الطبيعي أن يظهر الخوف على (ميلا) وذلك لطبيعتها البشرية، وإن أصبحت الآن نصف بشري ونصف شيطان، فتحت عينيها لتجد من يقف أمامها فقالت: سيدي «لوسيفر»؟، فرد عليها الذي التحف كيانه الظلام، مستور الرأس بقلنسوة سوداء متصلة بعباءة تستر سائر الجسد، ولا يظهر منها حتى وجهه، بصوت يملؤه الصدى: «ميلا»، التقينا أخيراً، «لويثان» أدى المهمة المطلوبة منه على أكمل وجه، ونقل لك خطتنا كاملة.. والآن عليك الإقرار بملكيتي لك، وأنك جند من جنودي، ولا تطيعين أحداً سواي.
(ميلا): أقر بذلك،

(لوسيفر): بل إقرارك سوف يكون بتوثيق العهد يا صغيرتي، (ميلا): كيف؟، (لوسيفر): بالدم.. هنا بدأت الصرخة الأولى التي خرجت من قاع جوفها، لأن يديها امتدتا للأمام، وبدأ أول ظفر بمحاولة الهرب من إصبعها.

قُلعت الأظافر جميعها إلا الأخير الذي ما زال متشبثاً بقطعة لحم متصلة مع الأصبع، فقال (لوسيفر): اكتبي ما يجول بخاطرك إكراماً لحضوري، (ميلا) ودموع الألم تنهال من مقلتيها: أين؟، (لوسيفر): على الحائط، اتجهت إلى الحائط، وكتبت بدمائها: «أنا منك وإليك، أنا أميرة الإنس، مبعوثة من عالم الظلام»..

(لوسيفر): أحسنت اختيار كلماتك.. ظهرت ورقة من العدم، فأردف (لوسيفر): الآن بدمائك وحبرك خطي ما سوف أمليه عليك.. نفذت «الأخرى» الأمر دون نقاش، ذهبت إلى المكتب ولحقتها الورقة التي تطفو في الأفق، فتحت المحبرة، ثم وضعت إصبعها فاختلط الحبر بلزوجة الدم الذي شكل الدوائر على سطحه.

أملى (لوسيفر) الميثاق على مسامع «ميلا» التي كانت تكتب بإصبعها الدامي الذي ينثر الحبر من حولها، وأنين الألم ينفطر له الجماد قبل البشر.

كتبت الكلمات المنطوقة من سيدها، ومن يكتبها هما «ميلا» و «لويثان» مجتمعين، بكل خضوع، ثم قال لها: الآن نكمل العهد بيننا وتكونين ملكي، اطبعي بصمتك على نهاية الميثاق.

وضعت «ميلا» إصبعها الإبهام دلالة على موافقتها أن تكون خادمة للشيطان الرجيم أبد الدهر، أن تكون مبعوثة الظلام من الجحيم مباشرة، ابتسمت فخراً بمنصبها الجديد كأميرة للبشر تحمل بين يديها الظلام السرمدي خضوعاً لسيدها، مكملة لرسالته التي وعد فيها الرب بإغواء أبناء «آدم» إلى أن تقوم الساعة.

نزلت ورقة البردي على سطح المكتب وما أن لامست مستقرها

إلا واخترق «لوسيفر» جسد «ميلا» التي انتفضت.. ثم رقصت في أنحاء الغرفة، وهي تمسح على وجهها، وتفتح فمها وتخرج لسانها بطريقة مرعبة.. اتجهت إلى الحائط ثم سارت عليه متحدية «قانون الجاذبية» إلى أن صارت رأساً على عقب، فكتبت على الحائط: «الاستحواذ المثالي» ومع آخر حرف مكتمل، سقطت أرضاً مغشيّاً عليها.

الباب الحادي والعشرون

(طفح الكيل وانكسر الميزان)

(كل ما حولي ضرب من الخيال.. إلا أنت الحقيقي..)

زبانية برشلونة - عام ١٩٢٦م:

رجعت الحياة إلى طبيعتها للبشر أجمعين إلا «لفلوريا» التي تنام في غرفة المعيشة، وتقاسي كل يوم إهانات أخيها الذي كان يتعمد جرحها بالكلام معبراً عن تعاسته لرجوعها من الموت، بالتالي تغيرت خريطة مستقبله الجميل، الذي يفترض بعد وفاة والديهما، أن يكون الإرث له وحده.

لكن ليس هذا ما يشغل بالها، فإن هناك قطعتين من قلبها ليستا في حجرها ونحرها كسائر الأمهات، لكن في مكان يبعد عنها مسيرة يوم، وإن كان المسير ثانية فالأولى أن يكونا بالقرب من قلبها كما كانا في جسدها من قبل..

كان اللقاء مع «ريكي» والرسائل المتراشقة فيما بينهما جُلها عن صغيريهما اللذين لم يحملا اسماً بعد وما زالا يُعرفان بالرقم ١ و٢.

وبعد انتهاء إجازة الخادمة «لاتويا» التي عادت إلى عملها في منزل «آل فيرنانديز» وجدت «فلوريا» باستقبالها لتأخذها بالأحضان مع شم يديها ورقبتها وهندامها، بحثاً عن رائحة فلذتَيّ كبدها، لا يمكن أن تنظر إلى الثكلى المنفطرة القلب، دون أن تنهال دموعك عليها، وهذا ما حدث مع «لاتويا» التي كانت تجاهد في حبس دموعها..

همست (فلوريا) في أذنها حين الاحتضان: يجب أن تلتقِي «بريكي» في أقرب وقت، هناك ما يريد أن يخبرك.

رحل «ريكي» مودعاً أخاه ووالدته التي نسيت أن لها زوجاً بسبب ترحاله معظم أيام السنة، اتجه إلى الساحل تحت أنظار «فلوريا» التي كانت تنتظر هذا الوقت بفارغ الصبر، لتخبر «لاتويا» بموعد اللقاء المرتقب، و«الأخرى» أيضاً كانت على استعداد لترحل إلى «ريكي» في الحال.

(ريكي): عوداً حميداً «لاتويا» هناك ما يجب أن نتحدث به، (لاتويا): شكراً يا سيدي، كلي آذان صاغية.. (ريكي): هل ما تم تناقله بين النساء صحيح؟، بأن زوجة أليكسندر «لورا» عقيمٌ؟، (لاتويا): حسب ما سمعت أنها تلقت ضربة على بطنها؛ مما أثر في رحمها قبل الزواج، وما تم توقعه حينها أنها بالفعل سوف تكون عقيمًا، ولا يثبت هذه النظرية أو ينفيها إلا الزواج، وما تبين لنا أنها لم تحمل نطفة زوجها حتى الساعة.

(ريكي): يبدو أن القدر قد مهد لنا الطريق، أريدك في هذا الوقت أن تُلمحي لها عن التربية والأطفال وجمال وجودهم في الحياة، أريدها أن تندب حظها بأن ليس هناك ما يسلي وحدتها، ولا يأخذ رعايتها واهتمامها.

(لاتويا): لكنه تصرف شديد القسوة يا سيدي!، (ريكي): ما سوف يحدث بعدها سوف يداوي تلك الجراح، وتقلب حياتها إلى السعادة الدائمة، وأنا أتكلم عن السعادة التي سوف تغمر الجميع، وليس «لورا» فقط.

ما يدور في عقل «ريكي» هو التمهيد للخطة الاحتياطية، لكن ما يطمح له بالمقام الأول هو تصحيح المسار ووضع النقاط في موضعها الأساسي، هو الزواج الرسمي الذي يتوج هذا الحب، ويجمع شمل أسرة مفككة في أقطار الأرض.

بعد مدة من زمن قصير الأجل، رجع «والده» من سفره البعيد مع إعلان موعد سفره القادم ولا شيء يدعو للعجب في وجوده من عدمه؛ لأن المنزل بالنسبة له هو مكان الزيارة، لكن الإقامة هي خارج حدوده؛ بسبب شغفه في اكتشاف الجديد في التاريخ القديم، يعود لكي يغمر قاطني المنزل بأحضانه وهداياه ما عدا «ريكي» الذي يكرهه دون سبب واضح.

ربما لأنه ابنه البكر الذي يجب أن يكون رجل المنزل وعليه أن ينشئه بكل قسوة لكي يشتد عوده، ويكون لائقاً أن يسد مكان أبيه في غيابه الدائم، وربما أنه يكرهه فقط، ليس لأي سبب آخر،

وكما يقال بأن الأرواح تتآلف أو تتنافر دون أن يكون هناك سبب لذلك.

والحق يقال بأن الشعور متبادل ما بين الطرفين، لكن الأعراف في هذه البلاد يجب أن يتم العمل بها، وإن كان هناك خلاف، انتظر «ريكي» اللحظة المناسبة عندما يكون «والده» قد اكتفى من نومه، وتناول فطوره، والآن يرتشف قهوة الصباح وحده على شرفة المنزل، فهذا الوقت الذي يكون فيه بأهدأ حال ممكن أن يناقشه فيه.

(ريكي): صباح الخير يا والدي، نظر (والده) في عينيه ثم قال: ماذا تريد؟، كظم (ريكي) غيظه، فإن طلب حاجته يحتاج إلى حلم عظيم: لي عندك حاجة، وإن لبيتها فسوف أريحك من وجودي أمامك ما تبقى من حياتنا، (والده) وهو يرتشف قهوته بهدوء: طلبك مجاب إذا كان يريحني من وجهك،

(ريكي): أريد أن أتزوج،

(والده): مبارك، ومن تعيسة الحظ التي سوف تنظر إلى وجهك المقيت في كل صباح؟،

(ريكي): فلوريا فيرنانديز،

ارتجف الكوب في يد (والدم) وأتلف بنطاله من قطرات هربت من الكوب لتبدل مزاجه إلى الأسوأ: هل أنت شيطان؟، هل أنت عدو؟، لم تجد من نساء الدنيا غير ابنة ألد أعدائي، من خان العهد بيننا، من دمر سمعتي بسبب جشعه للمال والتجارة؟، انسَ الأمر ولن تتزوج هذه الساقطة ابنة هذا الحقير.

ما زال (ريكي) في حلمه الذي بدأ ينفد: لا داعي لإهانتها، ولا تزر وازرة وزر أخرى يا والدي، لا تحمل «فلوريا» ذنب خلافكما، لك مني أن أتزوجها وأغادر معها إلى أي مكان لا ترانا فيه، لكن كل ما أطلبه منك وللمرة الأخيرة في حياتي، أن تفعل شيئاً واحداً لولدك، شيئاً واحداً يُخلد ذكرى طيبة بيننا، ترك (والدم) الكوب على الطاولة وقام واقفاً: لا شيء لك عندي، ولن تتزوجها وقلبي ينبض بالحياة.. غادر المكان تاركاً خلفه كتلة غضب لو انفجرت لأحرقت المنزل بما فيه.

لم تكن هذه المحاولة الأخيرة، بل تكررت المحاولات إلى أن وصل الشجار بينهما إلى التدافع، وكاد أن يتطور إلى الأيدي مع تدخل والدة «ريكي» و«سيزار» لفض الاشتباكات.. لم ييأس «ريكي» لأن هناك دائماً حلولاً بديلة، إن لم يرضَ «والدم» بمد يد العون له، فإن يدم تكفي.

وقف «ريكي» مقابل الساحل، وهو ينظر إلى لوحة السعادة من أمامه، لكن بعيون جمعت كآبة الدنيا بأسرها، وها هي اليد التي ينتظرها لكي تنزع جميع آلامه قد لامس حنانها كتفه؛ وبالتالي قُبلة ساخنة طبعت على خده، (فلوريا): لا تحزن أرجوك، (ريكي): قد وصل العناد بينهما إلى درجة غير منطقية، وبسبب خلافاتهما قد حكما على علاقتنا بالإعدام.. كم من خلاف بين شخصين قد هَدم جسر الود بين شعوب وأمم!

(فلوريا): أخبرني ماذا حدث بينكما لعلي أستطيع أن أفعل شيئاً، (ريكي): من بعد محاولاتي الحثيثة من «والدي» العنيد، لم أصل إلى المبتغى في نهاية المطاف، إلى أن وصلنا إلى طرق مغلقة من جهاتها الأربع.. أتعلمين ماذا قرر في آخر محاولة؟، إذا أصررت في عنادي ورغبتي فيك فسوف يحرمني من الميراث، ومن دخول المنزل كذلك، ووصل معه الأمر أن يزيح اسمي من شجرة العائلة لأكون لقيطاً بلا نسب!

أردف (ريكي) حديثه للتي توليه انتباهها وهو ينظر إلى المحيط بعينين تلمعان بمائهما المالح: قررت أن أتحداه، ولا أبالي بتهديده فعندي من المال الذي كسبته من كنوز السجلات الأثيرية ما يكفيني لكي أبني مستقبلي من نقطة الصفر..

شددت الرحال والعزم في أوجه إلى «والدك» الذي كان من سوء حظي يجلس في المقهى مع «أليكسندر»، طلبت الإذن وجلست بينهما بكل أدب، وذلك لطلب الزواج منك، حسب الأصول والعرف الغبي للعوائل النبيلة.

(ريكي): مهّدت كثيراً قبل الطلب الفعلي، وكان الاثنان في إنصات تام مع ابتسامة مريحة من «والدك» ونظرات كريهة من «أخيك»، وعندما نطق لساني اسمك لتكوني زوجة لي، قام «أليكسندر» من مكانه وكأنه ثور، وكزته شوكة في ظهره، وجرني من تلابيبي مزمجراً واضعاً أنفه على أنفي، لكن «والدك» احتوى الموضوع، وأجلسه رغماً عنه.

خاطبني (والدك) بطريقة أبوية مؤدبة مستغلّاً الموقف بحنكة: أنت تعلم يا بني بأن من غير اللائق أن تطلب بنت النبلاء زوجة بنفسك، لا بد من حضور والدك لمنزلي لكي يطلبها بنفسه لك وذلك بحضور عائلتك كاملة في الموعد الذي نحدده نحن، إذا حضر «والدك» وطلبها لك، فحينها سوف ننظر في الطلب، ولا نعدك بالموافقة في الأحوال كلها، لأن الأمر يحتاج إلى دراسة لكي ندمج العائلتين من خلالك و«فلوريا» ابنتي!

عندما سمع «أليكسندر» حديث «والده» سكن وهدأت أوداجه وحدّة انفعاله، تركتهما ورحلت والخذلان قد ظهر على محياي، ما لنا ولهذا الخلاف، ما لنا ولدنياكم، ما لنا ولهذا النُّبل الذي لم نستفد منه غير الأعراف التي يجب أن نسير عليها، وإن كانت تنافي المنطق.. والحب؟! كم من عاشقين لم يجمعهما منزل، أو زواج، أو حتى راحة بال، بسبب العرف الذي وضعه البشر، هل كان طلبهما هو التسلية، أو التدنيس، أو حتى الزنى؟، بل كان طلبهما هو الزواج، هو الاستقرار، هو إعلان حبهما للعالمين، لكن ما يقف في وجوههما كالطود العظيم هو العرف، العرف الذي وضعه الإنسان لكي يُتعب من بعده فقط لا غير.

(ريكي) بعد صمت: والآن يا نبض قلبي، ويا سمائي وقمري، لا تحزني، سوف ألجأ إلى الخطة البديلة التي تجمعك بفلذة كبدك، وبكل أسف لا يمكن أن أجمعك بالاثنين فاختاري أحدهما، (فلوريا) والدموع تقطر من مزن عينييها: والآخر؟، (ريكي): في عُهدتي، لا تقلقي، وسوف نجتمع كلنا مرة أخرى في الزمان والمكان المناسبين، حين أجمع شتات أمري، اختاري أحدهما هيا.

(فلوريا) خجلةً والرأس منكّس: رقم ١.

شد الرحال «ريكي» في حينه للمهمة الأخيرة له في برشلونة، بل في إسبانيا بأسرها، متجهاً لتقريب البعيد، لوضع أحد ابنيه على المحكّ، ولا بد من هذه التضحية لكي يريح قلب محبوبته «فلوريا» التي في المقابل رجعت إلى المنزل، وكان الجميع يتجهون إلى ما يجمعهم رغم أنوفهم في مسائهم، وهي الحاجة إلى الطعام في وقته المقدس، تجمهروا حول الطاولة التي جمعت كل ما لذ وطاب، المشوي والمقلي وفي الوسط الطبق الرئيس «بقايا» التي جمعت جميع البروتينات المتبقية من الموائد السابقة مخلوطة بالخضراوات والصلصة الحمراء، لكي يأكل الجميع دون تذمر.

كسرت (فلوريا) حدة الصمت الذي لا يخلو من صرير السكاكين على الصحون: أنا موافقة!، رفع «والدها» رأسه، لكن من سألها هو (أليكسندر) بوجه أحمر من الغضب قبل الإنصات: على ماذا؟، (فلوريا): على الزواج من «ريكي»، (أليكسندر): ليس لديك الحق في القبول أو الرفض، بل هو قرار عائلي مشترك، ويتم بناء على المصالح المشتركة بين العوائل النبيلة ولا دخل له في العواطف، ثم زم على شفتيه قائلاً: «إن وُجِدَت».. ولا يوجد مصلحة مشتركة مع «آل بوربون».

سكتت (فلوريا) لثوانٍ معدودة ثم قالت: تعلمون بوضعي، وما آل إليه اختطافي وتدنيس جسدي، من يقبل بي وأنا على هذا الحال، من سوف يرضى أن يُدخل منزله النبيل، فتاة قد سُلبت حقوقها الجسدية والنفسية؟، (أليكسندر): اختصار الكلام، طلب «ريكي» مرفوضٌ، وإن عشت ما تبقى لك من العمر دون زواج، فلا يهم بعد أن حدث ما حدث.. سوف يتم تجهيز غرفة جديدة لك بعيداً عن جناحي، وتعيشين في منزل والديك إلى أن يحين الأجل.. نظرت «فلوريا» وسط عيون «والديها» اللذين لم ينطقا بحرف، وكانت أعينهما تهرب إلى صحن الحساء وكأنهما يوافقان (أليكسندر) على طغيانه، الذي كان يقول في خلده: تعيشين وحيدة وتموتين وحيدة وكل ما تملكين لي في نهاية الأمر إن طال الزمان أو قصر.

من الليل، و«ريكي» و«سائق العربة» في توقف الراحة وأيضاً لعدم وجود سبب للاستعجال، وكعادته يجب أن يطمئن قبل النوم في كل ليلة على قلبه الذي بين يدي معشوقته، وفي لحظة تأمل نظر لوجه محبوبته في وسط السماء، قمرٌ ولا شيء مثله في الوجود، سحب الهواء إلى صدره، وأخرجه بزفرة حارة مؤلمة، فأعاد توازن نفسه المليئة بالنُّدَب، خرج طيفه راحلاً إلى مستقر راحته، وحين اخترق نافذة «فلوريا»

وجدها متدثرة تحت اللحاف بكل براءة، وكان أحمر الشفاه مفتوحاً على الطاولة التي بجانب رأسها، نظر في الأرجاء، ليجد المكتوب على المرآة «الخطة ب»!

رجع إلى جسده الذي سوف يفعل من خلاله الكثير، لأن الغضب الذي تملكه كان كالبركان الذي ينتظر من يعطيه الإذن في الثوران، غابت الحكمة التي كسبها من رهبان التبت، واختل توازن منطقه وتفكيره، وغدا جل تفكيره في أمر واحد فقط.. الانتقام.

هل هذا ما لمّح إليه «الشيخ الأبيض» حين قال: حللت أهلاً يا من سوف يزهر ويدمر محيطه، نرى لك مستقبلين، مستقبلاً في بساتين الزهر، ومستقبلاً في ظلمات القهر، والخيار لك في نهاية المطاف.. (ريكي): هل أختار الظلمات؟، هل أسمح للغضب أن يقودني؟،

وعندما سأل نفسه هذه الأسئلة ظهرت ومضات من حديثه مع «والده» و«أليكسندر»، مما حسم أمره، وانحاز إلى طريق الغضب الذي يريد أن يستخدمه في انتقام يكون كالماء الزُّلال على نيران جوفه.

طيور تتسابق إلى غصن شجرة تحتوي عش والدتهم، ومن خلفهم قرص الشمس يشرق من مكانه المعتاد منذ بداية الخليقة، توقفت العربة مقابل مزرعة العنب التي كان نساؤها فرحات بالوليدين اللذين وجدهما «خوسيه» على قارعة الطريق، وقرر أن يؤويهما في المزرعة إلى أن يجد لهما حلاًّ، دخل «ريكي» إلى الكوخ ودخل بعده «خوسيه» يحمل نطفتيه اللذين تكونان داخل أحشاء معشوقته «فلوريا»، قبّلهما وكأنه يقبّلها، احتضنهما ليجد ريحها منبعثة منهما.. عشقهما ليس لأنهما من صلبه، بل لأنهما ابناها، ابنا من تعلق بها دون سائر البشر، وها هي المرحلة المؤلمة من جميع مراحل الحب، الذي يبدأ بميلان القلب، وينتهي بالتعلق المرير، وهذا الإنذار لجميع من يريد أن يعيش الحب «فإن في كل يوم حب هناك يوم ألم».

جلس مع «خوسيه» ليتناقش الخطة التي سوف ينفذها، ليس لطلب المشورة، بل للإبلاغ فقط.. (ريكي): سوف تؤوي رقم ٢ في كنفك حتى إشعار آخر، ورقم ١ انتهت فترة إقامته هنا، وسوف يعود إلى أمه، (خوسيه): كيف؟!، (ريكي): سوف تأتيك ابنتك بالأخبار في القريب العاجل..

أخذ «ريكي» ولده في أحضانه، ثم وضعه على السرير ليأخذ من سوف يعيش في كنف والدته، وترك «الآخر» مفصولاً عن صلة رحمه، وما أن انفصل عن أخيه إلا وبكى بكاء التائه الذي سوف يلازمه ما بقي من حياته، وكأنه يقولها للملأ: اذهبوا جميعكم واتركوا لي أخي فبه أكتمل.

خرج «ريكي» وركب العربة من الليل، «ورضيعه» بين يديه يبكي لبكاء أخيه، يريد أمه ويريد أباه، لكن ليس دون أخيه الذي يشدّ به أزره في المصائب، أخيه المكمل لنقصه، أخيه الذي لازمه في مرحلة التكوين، والآن القدر يفرقهما، هل من لقاء في إشعار آخر؟، لا يعلمان، ولا حيلة لهما غير البكاء.

نزل «ريكي» في الليلة التي تليها من العربة التي توقفت بين ظلمات الأزقة، وضع اللثام على وجهه، ودثّر رضيعه جيداً خوفاً عليه من تقلبات الطقس، انتقل في الطرق المظلمة إلى أن وقف مقابل منزل «آل فيرنانديز»، احتضن ولده بين عضديه، وأتلف خده من ماء عينيه، التفت باحثاً عن أرواح تشاركه المكان، ولم يجد من يفسد هذه اللحظة، تقدم ومع تقدمه ظهر طيف أبيه، بل «معلمه» الذي كان في مقام أبيه والأب ليس من حمل نطفته، بل من رباه.

المعلم (لي): لا تحزن يا ولدي، فأنا معك في السراء والضراء، واعلم أن لك قلباً قد انفطر حزناً منذ لقائنا الأول، وما زال يتقطع إلى أوصال صغيرة في كل سنة تعيشها في دنيا الشقاء والكَبد، ولكن أعلم أنك سوف تصمد وتستمر في حلمك وخُلقك الحسن، ولن تنحاز إلى طريق الانتقام، وسبب زيارتي لك هو خوفي عليك، وأعلم أنك حين تضع هذا الجميل الذي بين يديك في طريق حياته الجديدة بهذا المنزل سوف يتملكك الغضب العارم، وغضبك أنا غريمه، وقلبك أنا طبيبه، وحلمك أنا طريقه.. نظر له «ريكي» بعيون ملؤها الألم بدموع تنتظر نزول الجفن لكي تنهال.. لم ينطق بحرف، لكن تقدم ووضع الطفل على عتبة الباب، طرقه بشدة ثم رحل ولثامه الذي فكه يتطاير في الهواء، ولى كل شيء ظهره وبقلبه تعاظم الحقد والألم الذي يريد أن يدمر به العالم أجمع.

الباب الثاني والعشرون
(عالم رمادي)

(أنا التي تختبئ تحت السرير.. لأخيفكم!)

بداية الإنجاز من بعد التخطيط في عام ١٨٧٨م:

لم تفق «ميلا» لمدة يوم كامل، وهي على السرير هائمة في متاهة الأحلام، زارها الطبيب وطبب يديها المنزوعتَيِ الأظافر، وتم تنظيفها لتغدو كالملاك النائم، حتى التعبير المجازي لا يمكن تخيله في هذه الفتاة، لأن أفعالها تنافي طبيعة الملائكة الرحيمة، بل أفضل تعبير مجازي، كغول ساكن!

حاولت «ماريا» أن تفك طلاسم الرسالة التي وجدتها على طاولة «ميلا» لكن الوقت مهدور دون إنجاز، ولا يوجد أحد ممكن أن يفسر محتواها إلا من خطّها بيمينه، فراحت «ماريا» تسير ذهاباً وإياباً مقابل غرفة «ميلا» على أمل أن تفتح عينيها، وتطفئ عقل «ماريا» الذي يكاد أن يعطب من شدة أعاصير الأسئلة التي تحوم حول رأسها.

ماذا حصل في تلك الليلة؟، ولماذا هذه الكلمات التي كتبت بالحبر والدم؟، وما ترجمة تلك الرسالة؟، وهل من سوف يجيبها عن الأسئلة كلها هي «ميلا»؟ أم ساكنوها؟، وما زاد غيظها هو لماذا هي نائمة كل هذا الوقت، ولا تستجيب لنا؟

مضى الوقت إلى أن دخل الليل، وهو ينثر حبيبات الظلام في الأفق إلى أن طغى على النور ليكتمل في حُلّة السواد، أوى الجميع إلى مخادعهن راجيات الرب متضرعات أن تمضي هذه الليلة بسلام، وهل عرفن معنى السلام منذ دخول «ميلا» إلى بيت الدين والعلم، إلى الدير الذي تحول إلى مكان شبه مهجور، ليس لنزلائه فقط، حتى للمَارِّين من حوله.

أغمض الجميع أعينهن، وفتحت (ميلا) عينيها وهي تمط يديها للأعلى استعداداً لأعمال الليل: يوم جديد وقوة جديدة، وعمل جديد للبشر المغفلين، ليتني لم أكن منهم!، قامت واغتسلت ولبست ثوبها الأبيض، ثم غادرت غرفتها.

بعد سويعات، وقبل خيط الفجر بالتحديد، فتحت باب غرفة «ماريا» دون طرقات الاستئذان، التي كانت تغط في نوم عميق، لم توقظها، بل أغمضت (الأخرى) عينيها، ودخلت في حلمها قائلة: المعذرة على قطع حلمك السخيف، أفيقي فأنا بانتظارك.

فتحت (ماريا) عينيها: لتجد «ميلا» بالفعل بانتظارها: كيف دخلتِ في حلمي؟!، (ميلا): ليس هذا المهم الآن، تعلمين كما رأيت بأم عينك بأنني لست «ميلا» فقط، فأنا كل شيء مرعب بالنسبة لكم، فأنا من سوف يخلصكم من بؤسكم ورقّة قلوبكم، أنا هي ما تطلقون عليه الشر بذاته.

نظرات صامتة من «ماريا»، وابتسامة على وجه (ميلا)، التي أردفت حديثها: هل تريدين أن تسألي عن شيء قبل رحيلك؟، (ماريا): رحيلي أنا؟، نعم أريد أن أعرف محتوى الرسالة، (ميلا): هذه ليست رسالة إنما ميثاق مع.. الشيطان، ولا يهمك ما تم تدوينه داخلها، وعلى الأحوال جميعها أخذتها من غرفتك ووضعتها في حقيبة ملابسي ولا نقاش معك في هذا الأمر.. والآن بسبب عنايتك بي واهتمامك منذ وجودي في ديركم، أترك لك الخيار، الموت أم الحياة؟، هنا تمكن الرعب من (ماريا) بسبب نظرات «ميلا» الجادة والثقة الشديدة بحديثها المنطوق: الحياة!

(ميلا): لك ذلك، منذ شروق الشمس إلى قبل الغروب، هذا وقتك للمغادرة، وإن لم تنفذي المطلوب فسوف يكون مصيرك مثل مصير البقية، والآن لدي أمور أهم للقيام بها، أرجو ألا أراك ثانيةً،

خرجت «ميلا» إلى غرفتها، ثم لبست العباءة السوداء التي غطت بها رأسها وسائر جسدها، ثم خرجت من مكان ستر عيوبها كما يرون فيها العيب عندما أرغموها على هذا الدير.. غادرت وما زال انعكاسها ثابتاً على المرآة مستور الوجه إلّا من شفاهها التي ابتسمت ثم اختفت ذراته في الأفق.. ما سوف يعلمونه عن هذا المكان، هو المكان الذي صقل قوتها وشحذ نصل السيف الذي سوف يقطع رؤوس من يقف أمام مخططها، انتهى وقت التخطيط والآن وقت الفعل.. خرجت من باب الدير والهواء يداعب عباءتها السوداء التي تنتهي بثوبها الأبيض، وخصلة بيضاء تدلت على عينها تتراقص مع نسائم الريح.

سمعت «ماريا» صوت الباب الخارجي يُفتح، ثم نظرت من النافذة إلى الكتلة السوداء التي تحمل حقيبتها مغادرة المبنى لتتنفس الصعداء، خرجت من غرفتها بمنامتها، وشعرت بالهواء الذي اخترقها ثم ذهب ليداعب لهيب الشمعات التي تنير الممرات الساكنة، لا يوجد صوت، لا يوجد حركة.. ذهبت حافية القدمين إلى أول غرفة من غرف الخادمات، فتحت الباب لتجد الأولى معلقة من رقبتها تتأرجح لليمين والشمال وقدماها تهيمان في الأفق، هالها ما رأت وأفرغت حامض المعدة على الأرض، ثم هرعت إلى غرف البقية، لتجد الثانية على سريرها

تغطي سائر جسدها، أبعدت اللحاف ثم رجعت خطوات سريعة للوراء؛ مما أخل توازنها وسقطت أرضاً

كانت الخادمة الثانية نائمة على بطنها، لكن رأسها معتدل إلى الأمام بعينين مفتوحتين على مصاريعهما فاغرة الفم، قامت «ماريا» إلى غرفة الثالثة، فتحت الباب لتجد الثالثة جالسة على الأريكة مقابل النافذة وكأنها تتأمل السماء، نادتها فلم تجب، تقدمت بخطوات تعاندها للهرب، لكن أكملت المسير لتجدها بمحجرين فارغين من العيون التي كانت في وسط كفيها المفتوحتين.

لم تنبس ببنت شفة، لكن عيونها نبست بدموع الخوف وكما هي الطبيعة البشرية في حالة الطوارئ لا تفكر إلا في النجاة، لا تفكر إلا بقيمة الحياة ونعيمها، هرعت إلى غرفتها، وأخذت ترمي ما يقع بصرها عليه في حقيبتها المفتوحة على السرير، انتعلت حذاءها ووضعت الشال على منامتها، وهربت من الدير الذي أصبح من أملاك الشياطين!

نزلت من العربة في طقس يعج من زخات المطر التي تنزل على بقع مياه متفرقة مقابل قصرها، ومع كل نقطة تنزل يزيد منسوب مياه البقعة المختارة، لترسم مكانها الدوائر من أثر نزول القطرة وسط بقعة الماء، و«ميلا» تنظر بتأمل إلى قوة هذه النقطة التي نزلت من السماء،

واندمجت مع الماء، وصنعت دائرة كدائرتها المظلمة التي سوف تصنعها في القريب العاجل لتكون البحر الهائج الذي يأكل ما تبقى من اليابسة.
نزعت القلنسوة السوداء عن رأسها، ثم سارت إلى مدخل الباب الحديدي الذي فُتح مرغماً؛ مما أرهب «الحارس» الذي هرع للنظر إلى هذا «الكيان» الذي لا يمنع تقدمه شيء، وقبل أن ينطق رفعت يدها في وجهه، فدُفع إلى الخلف بقوة خفية، وسقط أرضاً مغشيّاً عليه.
وصلت إلى الباب الداخلي الذي أطاعها كذلك مرغماً، ليفتح على مصراعيه.. وقفت على عتبة الباب، والظلام يخيم الطابق الأرضي بالكامل بسبب الهواء الذي دخل من بعدها، وأطفأ الشموع المضيئة.. وَمَضَت السماء بالبرق الذي نتج من صرخات الرعد الغاضب، فظهرت خيوط الدخان اللولبية من الشموع المعلقة.
تقدمت إلى السلالم صعوداً إلى أن وقفت ونظرت إلى آخر الرواق الذي يؤدي إلى غرفتها يميناً، لكن اتخذت الشمال الذي يوصلها إلى الهدف المنشود.. فتح (ميغيل) عينيه عندما شعر بشيء غريب، نظر في الأرجاء ليجد مشهداً يألفه، قد حدث منذ زمن بعيد، وكأنه يتكرر لكن هذه المرة مع «كيان» بالهيئة نفسها، ولكن أكبر في الحجم، وضع يده بعشوائية على زوجته: يا إلهي، «هيلدا» انظري.. انظري!

فتحت عينيها لتنظر إلى أسوأ كوابيسها.. نظرت لِما كانت تتوقعه من أن ابنتها سوف تعود إلى قصرها في يوم من الأيام، لكن ليس كما كانت، بل أسوأ، لأنها سوف تعود وتحمل فوق كتفيها الغضب، بسبب أمر الأب «لويس» بإيقاف المراسلات وموافقة «ميغيل» على ذلك، والسبب الذي لا تعلمه «ميلا» أن من وسوس لهما بذلك هو «أمير الظلام» بنفسه وجاهد لكي يقنعهما بما فعلا، وحجته كانت تسليم «ماريا» زمام الأمور لتخضع «ميلا» إليها، لكن الغرض الرئيس كان تعظيم الأحقاد في داخلها، وجعل «ميلا» شعلة تسير وتحرق كل ما تطؤه قدماها.

قام الاثنان بنية احتضانها، وإن كانت بهذا الشكل المرعب والشعر اللزج الذي غطى وجهها وما زاد هيبتها هو السواد الذي تلتحف، قبل أن يصلا إليها رفعت يديها، ثم أطبقتهما فتعالى صدى ارتطام الكف بالكف ومعه توقف الزمن.. ولا شيء غير السكون التام!
صدح جرس الباب منذ الصباح الباكر، بالتزامن مع نزول الجميلة «ميلا» التي تطرق بكعب حذائها السلم مُحدِثة نغمات منسجمة مع لحن الجرس، وصلت إلى القاعة التي تقابل الباب، فأخبرت (الخادمة) التي كانت تنظر إليها في بلاهة، وهي تقول في خلدها: كيف؟!

قالت لها (ميلا) بنظرات باردة وثقة كبيرة بالنفس، وهي تفتح جزءاً من عيونها المسحوبة: افتحي الباب، دخل (محامي) أسرة «دامبيير» قائلاً: سيدة «ميلا» حمداً للرب على سلامتك، لم يصلني خبر عودتك لكنت حضرت دون دعوة لكي أطمئن عليك، لكني وجدت رسالة بجانب رأسي للقدوم إلى هنا ولا أعلم كيف وصلت إلى هذا الموضع دون أن أشعر بشيء.

لم ترد (ميلا) على مجاملته السخيفة، لكن قالت: ادخل إلى المكتب، ولا تضيع وقتي بترهاتك، مسح «المحامي» ذرات العرق التي خرجت بنبضة واحدة من وجهه، لأنها المرة الأولى في حياته يستلم صفعة كلامية أقسى من مطرقة على الرأس.

دخل «المحامي» للمكتب، فوجد «ميغيل» و«هيلدا» يجلسان بغير هيئتهما التي تملؤها الهيبة، فكانا كمن دخل في قوقعة خاوية، ينظران إلى الأفق ببلاهة مطلقة، دخلت «ميلا» خلف المحامي، وجلست في المكتب، وجلس «المحامي» مقابلها وهو ينظر تارةً لها وتارةً إلى أهلها.

قالت (ميلا): لقد قرر والدي أن يحول أملاكه بالكامل لي، على أن أكون المالك الأول وصاحبة القرار النهائي، وأعلم ما سوف تقول إن سني القانونية تمنعني من التوقيع على الصفقات الكبيرة، وخصوصاً في عالم العقار، لا تقلق فوالدي الكريم سوف يشاركني التوقيع إلى حين اكتمال السن القانونية وهي ٢١ سنة، وفي ذلك الوقت أكون المتصرف الوحيد في الأملاك.

حاول أن يتحدث (المحامي) بشفاه مرتجفة من هول ما سمع: لكن سيدتي «ميلا» أنت تعلمين أن السيد «ميغيل» لن يقبل هذا، ولا تنسي أن إخوته لهم يد في صفقاته وجزء من أملاكه و..، قاطعته (ميلا) قائلة: أبي هل تقبل تحويل أملاكك لي؟، حرك «ميغيل» رأسه باتجاههما، لكن لم تتلاق عيناه بأحدهما وكأنهما فقدتا البصر، فأومأ بالموافقة، هنا عرف «المحامي» أنه لم يفقد البصر فقط، بل فقد البصيرة كذلك!

أخرج (المحامي) أوراقه والمحبرة، وكتب عقد التحويل وبداخله الأسئلة توقد نيران الغضب، مخاطباً نفسه: كيف تحول شغف السيد «ميغيل» في المال والتجارة إلى الصفر، وقرر بين ليلة وضحاها تحويل كل ما يملك إلى طفلة، أين هيبته؟، ولماذا السيدة «هيلدا» صامتة وهناك لعاب يسيل من طرف فمها، وقد كانت أيقونة جمال قبل يومين فقط!،

(ميلا): هل لك أن تصمت، وتُنجز عملك؟، ارتجف (المحامي) ولوَّث العقد بخط متعرج: لكنني لم أنطق، حينها سمع بالقرب من أذنه همسه مجهولة المصدر: «اصمت واكتب».

الخوف هو الشعور الوحيد الذي يلازمه، الآن لا يريد إلا النجاة من هذا الرعب الذي يعيشه، كتب بيدين مرتعشتين، وعندما انتهى سلم العقد (لميلا) التي لم تأخذه بالمقابل، بل قالت: خذ المحبرة والعقد واذهب لأبي لكي يبصم، فعل ما طُلب منه، وعندما وضع العقد والمحبرة على الطاولة مقابل «ميغيل» الذي لم يتردد لوهلة، ومد إبهامه بداخل المحبرة، وعندما أخرجه لوَّث الطاولة بقطرات الحبر إلى أن وصل إبهامه إلى طرف العقد، ثم بصم ومع هذه البصمة أصبح من رجل الأعمال والعقار إلى رجل لا يملك حتى ملابسه التي يرتديها!

أخذت (ميلا) العقد ثم قالت: سوف أبصم عليه فيما بعد، ووضعت يدها تحت إبط «المحامي» محتضنة ذراعه، وهي تسير معه إلى مدخل الباب، ثم قالت: شكراً لخدماتك، وسوف أطلب منك بعض المهام فيما بعد، (المحامي) وهو يمسح عرقه من هول ما مر به في صباح كان جميلاً وأصبح رمادياً: أي خدمات أخرى «سيدة دامبيير».. لم ترد عليه، وأغلقت الباب في وجهه.

كل من خالف «ميلا» من «أسرة دامبيير» وحتى أسرة والدتها «لاسيردا» وجد نفسه في ظلمات لا يوجد عقل يطيقها، فكانت تحاربهم بمخاوفهم، إما في عالم الأحلام، وإما من خلال الوسوسة التي كانت تتقنها من خلال شياطينها المجندين لخدمتها لإنجاز مخطط «أمير الظلام».

في غضون فترة بسيطة أصبحت برشلونة ومدريد تعملان ألف حساب «لميلا» وصفقاتها الرابحة التي تُنجز من خلال «محاميها» الذي تبدل حاله، وأصبح من الأغنياء بسببها..

التزمت قصرها ولم تخرج منه منذ أن دخلت أبوابه، لأن لديها أعمالاً أهم من المال، فإن المخطط الرئيس هو امتلاك عقول البشر وليس مالهم، الاستحواذ على معتقداتهم، السيادة عليهم، من خلال إشباع أطماعهم التي لا تنتهي، وحبهم للسلطة على كل شيء، حتى وإن وضعوا أيديهم بيد.. الشيطان.

جلست «ميلا» مقابل المرآة ونظرت إلى انعكاسها الذي ابتسم لها قبل أن تبادله الابتسام، تحدث انعكاسها المتجسد في (لويثان):

حبيبتي ومهجة القلب، سعادتي التي أعيش داخلها في رغد، أحسنت صنعاً في كسب العقول الجشعة في محيطك، لتكون السلطة العليا لك، فالأغنياء سهل إقناعهم بالسير على نهجك فهم في المقام الأول عُبّاد المال، من خلال المال يكون استحواذك عليهم مثاليّاً. (ميلا): أعلم ما سوف تقوله، لكن أحب أن أسمعه منك يا من سكنت قفص قلبي ولا سبيل لك للخروج، (لويثان): حبيبتي يجب أن نستحوذ على الجميع، فهدفنا الآن الفقراء من البشر، فمنهم من سوف يُكسر عندما ينظر إلى الماء الذي يسد قوت يومه وقد أصبح بين يديه بسهولة دون عناء، ومنهم من سوف تكسبينه بالمسح على رأسه، فأحياناً الحنان ممكن أن يكون الباب للدخول إلى قلب مكسور لترميمه، ومن بعد كسب هذا القلب، نستحوذ على العقول، لتكبر شريحة أتباعنا، ونكون نحن من لديه السلطة العليا، وكل هذا بالنهاية لخدمة سيدنا، «أمير الظلام»، فالجحيم لم يُخلق عبثاً.

(ميلا): إلى العالم الرمادي يا حبيبي.

الباب الثالث والعشرون

(خُلِقت السعادة للبشر، والألم لي وحدي!)

(انكسر القلب ولم يبالوا، ما زلت أنتظر نهاية العالم، لينتهي عذابي..)

انقسمت الحكاية.. لأنهم فرقوا الأحباب قهراً - حدث في عام ١٩٢٦م:

مبدأ العلاقات، أو كما هو حقيقتها في واقع الحال.. يلتقي جريحان ينزفان من جروح الماضي، جروح مفتوحة غائرة، يعشقان بعضهما بعضاً لحد الجنون، يرممان جراح الماضي، ويعيشان الحياة في أحضان بعضهما بعضاً كما يتمناها كل عاشق منهما.. ليأتي الآخر ويفتح هذا الجرح على مصراعيه، ويتركه كما هو، ملقىً على الأرض، ينزف الدماء وينزف معها دموع الحسرة على ما قدمه من عطاء لمن لا يستحقه.. يلتقي في نهاية المطاف بعاشق آخر جراحه غائرة ليرمما جراحهما مجدداً.. وهكذا تعاد القصة من جديد!

انتهت مهمة «ريكي» في هذه المدينة التي لم يعش فيها غير الألم، وحتى لو تخللها سعادة بسبب «فلوريا» وقلبها الذي يعشق، كانت هذه السعادة مؤقتة؛ لأن الأساس فيها هو الألم، هل يستطيع أن يكبح غيظه، غضبه الذي كاد أن يعميه عن حقيقته وما تعلمه من السماحة والسلام من معلمه «لي»، هل سوف يختار الطريق الذي لمّح له «الشيخ الأبيض»؟

أفكار سوداء تتأرجح في محيط رأسه وهو في طريقه من خلال الباخرة التي تحمل فوق ظهرها إنساناً مكسور القلب، يجاهد للبقاء نقيّاً رغم دكّ مطارق الشر على رأسه.. قبل أن يرحل ترك رسالة لوالدته، رسالة وداع حتى إشعار آخر، وتركَ أيضاً مبلغاً من المال يجعلها وأخاه يعيشان ملكين إلى سنوات قادمة، يعلم أنه بذلك سوف يُدمي قلبها، لكن عندما وضع فكرة بقائه ورحيله في كفة الميزان انكسرت كفة الرحيل لثقل وزنها.

وداعاً أمي، وداعاً سيزار، وداعاً برشلونة وما تحملين في جوفك.. لن أعود إلا إذا رممت قلبي، بقائي فيك ألم، ورحيلي عنك راحة، هل سوف يعود السلام لقلبي، وأكمل رحلتي في الحياة كما كنت؟، هل سوف أنجرف إلى طريق مظلم لا عودة منه؟، هل سأكون «ريكي» من جديد؟، لا أعلم.. وهذا ما كان يدور في خلد الذي كان يسند ذراعيه على حافة الباخرة، وهو يتأمل غروب الشمس الذي كان يحب والآن تحولت الألوان في عينه إلى.. الأسود المظلم!

في منزل «آل فيرنانديز» كانت «لاتويا» تنتظر في المطبخ على أحر من الجمر تنتظر في المطبخ على أحر من الجمر لعلمها المسبق بحضور رقم ١ في أي لحظة، وكذلك «فلوريا» كانت تسير في غرفتها كالمجنونة بمشاعر مختلطة من الشوق واللهفة والخوف الشديد، مع ارتجاف أطرافها وقطرات تنحدر من الجبين.. تأخر «ريكي» ولم يسمعا طرقات الباب.

بعد وقت طويل من الانتظار، حتى إنهما فقدتا الأمل في استلام الطفل اليوم.. سمعا طرقات عنيفة على الباب تلاها تغريد حنجرة طفل ببكاء انفطر منه قلب «فلوريا» التي ركضت متناسية دورها من المسرحية، أمومتها حرّكت قدميها، غريزة الدفاع التي تمتاز بها كل أم.. نزلت إلى الطابق الأرضي لتجد «لاتويا» تقف وبيدها طفلها، نظرت في الأنحاء فتقدمت لتحتضنه إلى قلبها وهي تشهق شهقات من بكى حتى جفت غُدد الدموع.

اشتمته ثم قَبّلت كل ما وقعت عينها عليه، سمعت خطوات قادمة، نظرت إلى الخلف وإذ بعائلتها وقد تقدموا من الاتجاهات جميعها منهم من نزل، ومنهم من جاء من غرف متفرقة.. ما هذا؟ قالها (أليكسندر)، (لاتويا): سمعت طرقات الباب يا سيدي، وعندما فتحته وجدت هذا الطفل على عتبة الباب.

(أليكسندر): ضعيه في غرفة الخدم لكي نوصله للميتم في صباح الغد، لم يتنظر نقاشاً من أحد؛ لأنه ولاهم ظهره مغادراً إلى الطابق الأول.. بالمقابل جلس الجميع في غرفة المعيشة لكي يلاعبوا هذه الكتلة القطنية اللذيذة، وقامت «لاتويا» التي أعدت له الحليب قبل أن يضل، فتقدمت وبيدها رضّاعة بدائية يدوية الصنع، نظرت إلى «فلوريا» التي كانت متشبثة بطفلها، وكانت بالمقابل تتحاشى النظر إلى «لاتويا» وكأنها سوف تفسد المخطط بالكامل بسبب العاطفة التي غلبت منطق العقل.

من بعد نظرة غاضبة من «لاتويا» قالت (فلوريا) لزوجة أليكسندر: «لورا» هل تريدين أن تحمليه، ولم تنتظر ردها؛ لأنها قامت ووضعته في حجرها، والأخرى انتفض جسدها وكأنها صُعقت بالبرق الخاطف، نظرت بين عينيه فسلب لبها، لمعت موجة مترنحة في مقلتيها، سلمت (لاتويا) لها الرضّاعة ثم قالت: أطعمي هذا المسكين يبدو أنه لم يأكل منذ زمن.. وضعت الحليب في فمه المتلهف للغذاء، شرب ثم شرب بنهم، وهي تنظر له نظرت الأم التي وجدت طفلها من بعد فقد.

(لاتويا): كيف لهذا الجميل أن يعيش في ميتم؟، نظرت (لورا) إلى وجهها وأطالت النظر مع التفكير بعمق، فقالت: سوف ينام هذا الجميل الليلة في مخدعي وغداً سوف ننظر في أمره، كادت «فلوريا» أن تنطق معترضة، لكن سبقتها (لاتويا) التي احتوت الموقف: يا لها من فكرة، لعله يشعر بالأمان من بعد فقد أهله.

الجميع في سكون السُّبات، لكن إحداهن تبكي وتضحك بطريقة هستيرية والأخرى غادرها النوم بسبب هذا المخلوق الذي شاركها مخدعها، فجلست تتأمله طوال الليل في حنان وعاطفة جياشة، هل حسمت أمرها أم أنها تنتظر الصباح الذي سوف يفصلها عنه مدى الحياة؟

جلس الجميع إلى مائدة الإفطار بهدوء تام، وما زالت «لورا» تضع الطفل في حجرها، ولا تريد أن يفارقها لثانية، وقلب أمه منفطر وإن كان تحت عينها، لكنه ليس بقرب قلبها كما كان في شهور التكوين..
(أليكسندر) من بعد رشفة من الشاي الإنجليزي: سوف أذهب أولاً للميتم لتسليم الطفل، وبعدها سوف أذهب إلى حلبة الثيران.. وقبل أن يكمل حديثه قالت (لورا) بحزم: لن يرحل عني!

توقف الجميع عن المضغ والبلع لينظروا إلى لغة التحدي التي نطقت بها لأول مرة منذ حضورها لهذا المنزل، (أليكسندر): ماذا؟، (لورا): أريده ابناً لي، أريد أن أكون أمه، وأربيه في حجري، قد ربط قلبي، وعشقته منذ النظرة الأولى.. أريده لي.

سكت الجميع ونظراتهم متجهة للصغير النائم بسلام، إلا من نظرات «أليكسندر» التي توجهت إلى «لورا» وكأنه يرجح الأمر في عقله، فتدخلت فطنة «فلوريا» بأخيها ونظراته المتسائلة لكي تحرّضه على ما تريده هي.. (فلوريا): لن ينعم هذا المسكين بحياة كريمة إلا عندما تكونين أنتِ أمه، فأخي مشغول على الدوام في أعماله، ولا يوجد من يسلي وحدتك، وعندما يفرغ من أعماله، ويرجع منهكاً إلى المنزل، تخوضان النقاشات التي يسمعها أهل المنزل والجيران من حولنا.

أردفت (فلوريا) حديثها الذي كانت تقوله للجميع، ولكن تريده أن يخترق عقل أخيها بالأخص: هذا الطفل سوف يكون الحل الدائم لجميع مشكلاتكما، وسوف يضيف لمسة جميلة للمنزل، وتدب من خلاله الحياة، ولا تقلقِي جميعنا سوف نساعدك على تربيته، أليس كذلك يا أمي؟، (والدتها) بعيون دامعة وابتسامة مريحة: بالتأكيد يا حبيبتي.

رفع «أليكسندر» المنديل الذي على حجره، ومسح فمه بهدوء، رجع بالكرسي للخلف، ثم قام وخرج بكل هدوء، دون أن ينطق بكلمة، وتصرفه هذا يدل أنه في مرحلة التفكير قبل التسرع باتخاذ القرار النهائي، ومن وجهة نظر جميع من حوله تعتبر هذه موافقة مبدئية للترحيب بعضو جديد للعائلة.. (فلوريا): ماذا سوف تسمين هذا الملاك؟، (لورا): لطالما هذا الاسم أعشقه، فهو بطل روايتي التي أحب.. سوف يكون اسمه «ماثيو».

جلس «ريكي» على الهضبة التي اعتاد أن يجلس عليها عندما ينتهي من دروس معلمه «لي» المكثفة، والذي كان لا يريد أن يغيب عن عينه برهة، لأن المعلم «لي» يعلم ما يدور في خلد «ريكي» ويعلم الصراع النفسي الذي يتأرجح ما بين الغضب والحلم، ما بين الشر والخير.. وجود المعلم «لي» بجانبه هو كبح الألم بما تجود به نفسه.. لكن يستحق الإنسان عزلة يختلي بها بنفسه، يتحاوران، يتجادلان، يغضبان بعضهما من بعض، لعله في نهاية المطاف يتصالح معها، وإما أن تغلبه هذه النفس وإما أن يغلبها.

المعلم «لي» الذي أصبح كبيراً في السن والعطاء كذلك، لم يبخل على «ريكي» بشيء من علمه، غرس في رأسه تعاليم الكتاب السري للتبتيين «قواعد ديزان»، وما يحمله من السلم قبل الحرب، ومن الحلم قبل الغضب، ومن القوة المستمدة من الهدوء قبل العواصف، ما يجعلك تكون إنساناً، وليس حيواناً بلا عقل، ولا وحشاً بلا قلب.

في كل شهر، يدخل الاثنان الغرفة التي بدأ منها كل شيء، التي يتخذانها منفىً للعلم، أسبوع من التأمل وتجديد طاقات الجسد والعقل وترميم جروح القلب، ينظران للدنيا من سمائها، ويجتمعان بالأحبة في فضائها.

هل توقف العلم عند المعلم «لي»؟، بل هناك المزيد دائماً من علوم الكون عند «الشيخ الأبيض» الذي غدا الأقرب إلى قلب «ريكي»، لأنه دائم الحياد، لا يتدخل في شؤونه، ولا يطلب منه أن يكون في صف الأخيار أو غيرهم، بل يضع بين يديه الاحتمالات، ويترك القرار بيده، فهو من يحدد مصيره في نهاية الأمر والقرار الذي يتخذه هو وحده من يتحمل نتائجه.

وقف «ريكي» مقابل البوابة العظيمة التي كسر نورها ظلمة الأفق، و«الشيخ الأبيض» بابتسامته الأبوية ومحياه المريح يرحب به للدخول وكسب المزيد من المعرفة، وقف «ريكي» في وسط السجلات يتأمل المنظر الذي لم يمله قط، والكتب تطير ومن خلفها المخطوطات والشيوخ يدونون بلا كلل أو ملل، خلية نحل عظيمة تعمل على مدار الساعة، ولا تسقط إبرة في عمق المحيط إلا وقد دُوِّن الحدث في هذا المكان.

(ريكي): هناك أمر شغل بالي منذ زمن، وآن الأوان لكي نناقشه، قلت لي منذ زمن إن «داروين» قد تلقى نظريته من قوة قد أقسمت أن تدمر البشرية قبل أن تنزل إلى الأرض.. (الشيخ الأبيض): صحيح، (ريكي): سؤالي هنا، بماذا تدخّلت هذه القوى أيضاً؟، (الشيخ الأبيض): لها تدخّلات كثيرة بالطبع ومعظم تدخّلاتها ليست لخدمة البشرية، بل لها يد في كل ما يحيد الإنسان عن الخير في هذه الدنيا، في كل ما يشتت انتباهه عن سبب خلقه، مما يزيد انشغاله في أمور الدنيا ونسيان العمل للآخرة.

أردف (الشيخ الأبيض) حديثه، والسرد على مسامع «ريكي» بعض الأمور التي تدخّلت بها هذه القوى، ومنها المنظمات المالية التي تستعمر العالم، وتؤرجح اقتصاده بين أصابعها، وهناك بعض رؤساء الدول الذين وصلوا للمناصب العليا بطريقة باهرة وغريبة في الوقت نفسه، ومن بعدها عاثوا في الأرض فساداً، وأيضاً ظهرت المنظمات الدينية التي لا تمت للدين بشيء.. والجدير بالذكر أن حتى عبادة الأصنام كانت من الأساس فكرة من القوى العظمى، والهدف الأساسي هو الفساد في الأرض.

(ريكي): لماذا عندما ذكرتها فيما سبق نظرت لي نظرات أعرفها جيداً، ولم تغب عن بالي حتى الساعة، هل سوف يكون بيني وبين تلك القوى علاقة في المستقبل؟، سكت (الشيخ الأبيض) وهو يخلل لحيته بأصابعه: ربما!، كما أخبرتك من قبل، لا أحد يعلم المستقبل إلّا الرب، لكن نحن هنا نرجح الاحتمالات، وما نراه أنه قد يكون هناك علاقة، وهذه العلاقة سوف تحدث عندما تتخذ أحد الاحتمالين، إما أن تسلك طريق اليمين، أو طريق الشمال، ولا يوجد هناك طريق في المنتصف، (ريكي): وإن اخترعت طريقاً بينهما؟، هنا أدرك (الشيخ الأبيض) أن «ريكي» قد بدأ الظلام يملأ فراغات قلبه: لا أعتقد أن هناك طريقاً غيرهما!

(ريكي): وما هو الارتباط الذي من الممكن أن يكون له صلة بي؟، (الشيخ الأبيض): ساعة الشر، ساعة اسمها «ساعة الخلود»، المعلم (لي): علينا الرحيل بدأنا نضعف، علينا أن نتغذى بأسرع وقت، لا تنسَ يا «ريكي» أن بقاءك هنا طوال هذا الوقت الذي تظنه سويعات هو بالأساس أيام، (ريكي): لكن...، (لي): لا نقاش.. خرجا إلى الأرض من خلال الثقب الأسود، ومنه إلى أجسادهما.

انتهت مدة العزلة ليخرج الاثنان إلى مخادعهما للراحة من هذه الرحلة التي سوف يخوضانها مرة أخرى بعد مدة من الزمن، وظهر بجلاء حنق «ريكي» على معلمه؛ لأنه لم يأخذ الإجابة الكاملة من «الشيخ الأبيض» وهذا ديدن كل مرة يزور فيها السجلات، لا يشبع أبداً من لذة المعلومات التي يكتسبها، وما زاد عليها هذه المرة هو الاسم الذي دخل عقله، وحُبس هناك في الذاكرة الدائمة لعله يرحل إلى السجلات في القريب العاجل، ويكمل بحثه في «ساعة الخلود».

خرج في صباح يلمس فيه شعاع الشمس وجنتيه، لكي يحظى بالنسيم العليل وحدة بين السماء وثراها والبحيرة العملاقة وبساتينها التي تحيط بها، التي جلس يتأملها من تلٍّ قريب، ملأ رئتيه بالهواء البارد، وأخرجه حارّاً محفوفاً بالقهر على فقدان معشوقته..

هناك صوت لا يشبه الأصوات التي اعتادها يأتيه من الخلف، وكأن هناك ثوباً يحتك بالعشب الذي يسير عليه.. وقف بجانبه «كيان» ملتحف السواد، ولا يظهر غير شفتيه، جلس بجانب «ريكي» الذي ما زال يتأمل بكل هدوء والريح تداعب شعره الذي لامست خصلاته كتفيه وحتى رموشه المكحولة لم تسلم من المداعبة، لم يبالِ بالقادم إن كان بخير أم بطعنة غدر، هل سوف يموت؟ ليمتْ، الموت راحة من ألم المشاعر الذي لا يوجد له دواء، قال (الكيان) الذي لم يحيد أنظاره عن البحيرة: صباح الخير، لم ينبس «ريكي» ببنت شفة، (الكيان): ريكاردو بوربون، نعرفك ونراقبك من كثب، (ريكي): نعرفك!، من أنتم؟، (الكيان): نحن من سوف يرشدك لصنع المستحيل، لصنع المعجزات، ولا مستحيل يُضنع إلا من بعد الألم، من بعد الغضب، الذي سوف يجعلك في نهاية المطاف تختار الطريق الصحيح، (ريكي): تعلمون عني الكثير، وما هو الطريق الصحيح في رأيك؟، (الكيان): اتبع غضبك وسوف يكون بوصلتك إلى الطريق الصحيح، وتذكر نحن معك إلى النهاية، (ريكي): هل أنتم القوى العظمى؟، (الكيان)، ربما!

قبل أن يغادر (الكيان)، احتضن «ريكي» من جانبه، وهمس في أذنه: معك إلى النهاية، حول غضبك إلى ثورة، إلى معجزة، إلى انتقام.. وقف ليغادر المكان، فظهرت خصلة بيضاء من شعر فاحم من شدة السواد، ثم دحر الهواء الخصلة البيضاء مقابل الوجه الذي لا يظهر منه غير.. الظلام!

الباب الرابع والعشرون
(التقاء ثلاثة أنهار في البحر اللُّجّي)

(الألم والغضب يصنعان المستحيل..)

لم يقاوم «ريكي» إلحاح عقله للرحيل إلى السجلات ليكمل الحكاية التي شغلت باله، ولم يقم من مقامه الذي كان يتأمل الطبيعة فيه، أغمض عينيه ووازن أنفاسه، فرحل طيفه عن جسده إلى الثقب الأسود، ومنه إلى (الشيخ الأبيض) الذي كان في انتظاره: أعلم أنك سوف تعود، فنهمك للعلم لا ينتهي.

(ريكي): أرجوك أطفئ النار التي تلتهم جوفي، بالعلم أنسى الألم، وإن كان النسيان مؤقتاً، لكني أرضى به، لكي تهدأ نفسي، أخبرني يا شيخنا عن «ساعة الخلود»، (الشيخ الأبيض): الزمن، وهو الذي كان مسعى البشرية منذ القدم، وما قبل الميلاد تم اختراع الساعات التي أبدع صانعوها في استخدام الطبيعة لقياس الزمن، إما للمحاصيل، وإما للمواعيد، أو لتنظيم اليوم.. فمنهم من اخترع الساعات الشمسية والمسلات التي يعرف فيها الوقت بالظل، وهناك من اخترع الساعات المائية لقياس الوقت من خلال القطرات التي ترمز للثواني، ومن مفهوم الساعة المائية تم اختراع الساعة الرملية ذات الحبيبات الناعمة إلى أن تم اختراع الساعات الميكانيكية.

(الشيخ الأبيض): فصُنع في نهاية المطاف الساعة المعروفة في عصركم الحالي، التي تُعلق في سلسالها ومستقرها الجيب، ابتسم (ريكي) ونكّس رأسه بحنق: ساعة الخلود يا شيخي،

(الشيخ الأبيض): كلما كبر الإنسان نقص صبره.. ساعة الخلود هي ساعة صُنِعَت في برشلونة، ولم يكتمل صنعها إلى الآن، فما زال هناك نواقص لم تكتمل،

تهلل وجه (ريكي) الذي وصل إلى مبتغاه أخيراً: برشلونة!، وما هي النواقص؟،

(الشيخ الأبيض): سحر، وترس، وألم، (ريكي): أوضح، (الشيخ الأبيض): السحر موجود في «اللوح الزمردي»، والترس..، (ريكي): أكمل أرجوك، (الشيخ الأبيض): الترس والألم أنت من سوف يضنعهما!

تهاوى طيف «ريكي» الذي سُحب بقوة من السجلات إلى جسده الذي لم يندمج معه الاندماج الكلي، ودخل في غيبوبة أركانها الظلام والسكون!

الجميع في سبات من إرهاق ليلة البارحة إلا «فلوريا» التي لم تنم ليومين متتاليين، بسبب الحمى التي أصابت «ماثيو»، وها هو يبتسم ابتسامته الخبيثة التي لا تظهر أي أسنان؛ لأنها لم تنبت بعد، ولكن تظهر رغبته في اللعب من بعد الاستفاقة من الحمى، ومن سوف يتحمله غير أمه التي تحبه حباً غير مشروط، تريد وقتها؟، فهو لك، تريد انتباهها؟، أيضاً لك، تريد قلبها؟، لك أنت وحدك بلا جدال أو نقاش، أو مساومة.

تأخذ ولدها بين أحضانها، وتتذكر من أهداها هذه النعمة الربانية، تتذكر من سلب لبها، واستحوذ على جل تفكيرها الذي تساءل: ما هو حاله الآن؟، هل جُبر كسر قلبه؟، أم ما زال في مستنقع الألم يشتعل بلهيب الغضب؟، أم أنه الآن مع أخرى قد أنسته «فلوريا» التي تعشقه لحد الجنون؟، يا ليتني أستطيع أن أخبره بأنني له، ولن أكون لغيره ما حييت، حتى لو أن أهلي رفضوا تزويجي منه، فلن أتزوج غيره، أرجو أن يلهيه العلم والسجلات والتبت عن أعين العذارى، اللاتي يمكن أن يسقطن في بحر عينه ورمشها المكحول الذي أصابني في مقتل منذ أن رأيته.. وكأن إحساسها قد دلها على لقائه مع ذات الخصلة البيضاء!

في عام ١٨٨٠م:

في قلب برشلونة وبالتحديد مقابل فندق «كازاميلا» الذي حُجزت جميع غرفه بسبب سمعته العريقة، وقفت «ميلا» وهي تلتحف عباءتها من بعد سنتين من الاستحواذ على سيادة أغنياء برشلونة ومدريد وفئة غير قليلة من الفقراء الذين استقرت أحوالهم من تلك الفتاة المباركة الطيبة التي لا تنساهم من جود ما تقدمه لإعانتهم على صعوبات الحياة.

ظهر لها أتباعها من شياطين الإنس الذين اتخذوها معبوداً دون الرب، قبلوا قبلوا نعيم الدنيا على أن يحتفلوا مجتمعين في الجحيم بعد الممات.. أحدهما وقف عن يمينها والآخر عن يسارها ملتحفين عباءاتهما السوداء، حدّثتهما (ميلا) دون أن تحيد نظرها عن الفندق الذي نام قاطنوه في سلام: هل وجدتما صانع ساعات محترفاً؟، نطق الذي وقف يمينها: نعم لكنه الآن مقيم في «سويسرا»، يقيم في مزرعة والديه في قرية صغيرة عند قمم الجبال ولديه اختراعات لافتة للنظر في عالم الساعات، السيد «جورج إدوارد»، (ميلا): أحضروه إلى برشلونة، ومنها إلى فندق «كازاميلا» وادفعوا له ما يطلب دون مناقشة، ثم ابتسمت بخبث:

شكراً «لميغيل» الذي حافظ على مخطوطات الساعة وهذا دوره من هذه الحكاية أن يحفظها في قصره فقط لا غير، ونسي مكانها بفضل سيدي «أمير الظلام»، وحان الوقت لإخراجها من مرقدها.

بعد مرور شهر على أوامر مبعوثة الشيطان، تسللت وأتباعها إلى الفندق الذي كان حارسه الطاعن في السن في سبات، وعند اقترابها من الباب تحركت إحدى الأعين المنحوتة عليه، لتنظر في عينيها مباشرة، ثم رمشت تحيةً لها، وانفتح الباب من تلقاء نفسه.. دخلت إلى البهو، ونظرت إلى العمود، الذي انتصف المكان، وقد عُلّق عليه ساعة غير مكتملة الصنع ، فالتفت خلف العمود لتنظر إلى الخرسانة التي اندمج خلفها الكثير من التروس المتصلة بعضها ببعض، وتنتظر شارة الانطلاق لتعمل.

تَتَبّع نظرها التروس المتصلة بالساعة، والتي يبدأ تشابكها من خلف العمود بالتحديد من أسفله إلى سقفه، ولم يقبل الصانع العبقري أن تكون ساعة عادية، بل أكمل التروس بأشكالها الباهرة الكبير والصغير منها بالسقف إلى أن وصل إلى الحائط الذي يفصله عن العمود، بهو بجلسة من الكنب المزخرف.

وهذا الحائط امتلأ بالتروس على طوله وعرضه.. هنا انبهرت «ميلا» بشدة من إتقان صنعه حسب ما نصت عليه المخطوطات التي سلمتها له من خلال أتباعها، مخطوطات من صنع الإنسان؟، بالتأكيد لا، لأن القوى العظمى تدخّلت إكراماً لأميرة الجحيم، لأنها يجب أن تُخلّد أبد الدهر وروحها وروح «لويثان» يسكنان جسدها، يجب أن تعيش إلى اليوم الذي ينتهي به هذا العالم، إلى أن تغزو عقول البشر أجمعين، لتحصد أكبر قدر ممكن من وقود جهنم، لن يدخلها وحدها، بل «ميلا» ومن تبِعها سوف يدخلونها من بعدها!

لديها من العمر ما يقارب المائة سنة ونيفاً، وبهذه الساعة لن يكون لها عمر يُقاس، بل الخلود المظلم، تكلم (أحد أتباعها) بصوت هادئ: إلى الآن لم ينته الصانع من عمله، سوف يضع اللمسات الأخيرة على الساعة بنقوشها الجميلة على العمود، ويخفي التروس التي خلف العمود والسقف بالخشب المدهون بلون الحائط نفسه، وعلى الحائط الذي يلي البهو يريد أن يضع زجاجاً شفافاً يضفي لمسة فنية لصنع يديه.

(ميلا) وهي تتأمل ببريق يتلامع في عينيها من الانبهار: لكنه ليس هو من صنعها، بل سيدي «لوسيفر» من خط مخطوطاتها ودمج تروسها على الورق، وما تراه أمامك هو جزء من تنفيذ الصانع «جورج»، ومع ذلك لن يستطيع أن يُفعّلَها، (التابع): لماذا؟، (ميلا): لأن مفتاحها هو رجل من زمن آخر!

زمن آخر وبالتحديد عام ١٩٢٨م:

ما زال «ريكي» في غيبوبته، وسط الظلام والسكون يهيم بجسد لا يخضع للجاذبية، لا يريد الظلام الذي حبس فيه، ولا يعرف كيف يعود، وهذا ما حذره منه معلمه (لي): ألا تدخل في الإسقاط إلا إذا أمّنت جسدك من أي خطر، لكنه لم يطبق هذه التعليمات منذ أن كان يمارسها على ساحل برشلونة.

غيبوبة دامت سنة كاملة، هل ضاعت من عمره؟، هل خسر فيها علماً كان من المفترض أن يكسبه؟، بل كسب الكثير.. لأن «الكيان» كان يزوره في غيبوبته، يسلي وحدته، يرافقه في فضاء الظلام، وأيضاً يتحاور معه عن «ساعة الخلود»،

اطّلع من خلال مدته على المخطوطات، ونظر إلى التروس بأم عينه خلف زجاجها وفهم صنعها من نقطة الصفر، حتى ترسّخ في ذهنه كل مسمار فيها.. وآن الأوان أن يكمل مسيرته الآن بعد خلوة كان لا بد منها لكي يكسب جل المعرفة المطلوبة لإنجاز العمل الذي توقف منذ ٤٨ سنة.

فتح عينه بصعوبة بسبب الضوء الذي تغلغل في مقلته لأول مرة منذ سنة، نظر في الأنحاء برؤية ضبابية، شعر بالباب يفتح ودخل أحدهم، لم يستطع أن ينظر إلى وجهه، ولكنه ميّز قدميه اللتين تسيران باتجاهه، (لي): أخيراً عدت يا أحمق، لم يتمالك «لي» نفسه، وسحبه إلى حجره محتضناً إياه بكل ما أوتي من قوة تناسب شيخوخته. نطق (ريكي) بصعوبة؛ بسبب ريقه المتصحر من الجفاف: سحر، ترس، ألم.. (لي): ماذا؟، يبدو أنك تهذي، فقام وحضّر له مشروباً ساخناً وضع به من الأعشاب ما يعيد له عافيته، كان يغذيه بالسوائل التي تنزل إلى جوفه طوال فترة غيبوبته لكيلا يفقده، وهو يقول بينه وبين نفسه: أرجو أن أكون قد فعلت الصواب بإعادة إحيائك، فما زلت أخشى ردة فعلك من مستقبلك الضبابي!

استمر في مرقده وسط «معبد جوكهانغ» لمدة أسبوع لكي يسترد عافيته، وفي أثناء التعافي كان جل ما يفعله هو الرسم والتخطيط، رسم الساعة وتروسها الصغير منها والكبير، وهو يردد في ذهنه جملة واحدة: «إن لم نجتمع في الحياة، فسوف تكونين لي بعد الموت»!

بعد إلحاح من «فلوريا» لكي ترحل الأسرة في إجازة من ضغوطات الحياة إلى مزرعة العنب في فالنسيا، قد وافقها الجميع إلا «أليكسندر» الذي كان لديه صفقات يجب أن ينهيها لثور جديد سوف يزيد مدخوله في حلبات المصارعة.

وكان هذا ما تريده بالتحديد، أن ترحل من دونه، ركب الجميع عرباتهم، وتعمدت أن تكون هي و «لاتويا» و«لورا» في عربة واحدة مع الشقي «ماثيو» ونظرات اللهفة ما بين «فلوريا» و«لاتويا» اللتين تنتظران الوصول بفارغ الصبر ليجتمع الأحبة مرة أخرى، وفي العربة الأخرى «السيد والسيدة فيرنانديز».

بعد مرور ساعات غابت بها الشمس، ونام الجميع مع هدوء الليل إلا التي يتراقص قلبها لهفةً للقاء فلذة كبدها، وكان رجاؤها أن تجتمع مع أسرتها المكونة من أساسها «ريكاردو» الذي تحب، وتوءمها في منزلهم، ويعيشوا الحياة التي كانوا يطمحون لها، لكن العوائق التي وضعها البشر، وضغائنهم هي من أفسدت الأحلام جميعها.

أشرقت الشمس وأنار قلب «فلوريا» بنور ليس نورها، بل نور الذي يجلس في حجر «خوسيه» المتكئ عند مدخل المزرعة وهناك طفل جميل المحيا يلعب بحصانه الخشبي بسعادة، رفع عينه السليمة لينظر إلى العربة القادمة، ويلوح لها بسرور، ووقعت عين «فلوريا» على عينه المطموسة، ورغم العيب الذي على محياه، كانت تراه أجمل مخلوقات الرب.

دخلت الأسرة إلى المزرعة، وتفاجؤوا بالطفل الجديد، (السيد فيرنانديز): من هذا الجميل يا «خوسيه»؟ (خوسيه) وابنته «لاتويا» محتضنة ذراعه: إنه لقيط يا سيدي، وجدناه عند مدخل المزرعة فأخذناه، وتواترنا على الاهتمام به وقد أصبح السعادة ذاتها لهذا المكان، فكلنا والداه، وكلنا نحبه، وكلنا نريده معنا «وعيناه تنتقلان ما بينه وبين فلوريا التي يجب أن تنقذ الموقف»،

سكت «السيد فيرنانديز» وكأنه متردد بقبول أمر وجود طفل لقيط في مزرعته، و(فلوريا) من فهمت سكوت والدها، فبادرت إلى بث الطمأنينة في قلبه: يظهر لي أنه تأقلم مع الأجواء ولا خطر منه أو عليه في مزرعتنا يا والدي، لا يأخذك تفكيرك للبعيد، وانظر لما بين عينيك، في الوقت الراهن لا ضرر منه، دعه يعشْ هنا، وأنا أتكفل بجميع مصروفاته من مالي الخاص.. ابتسم «السيد فيرنانديز» بسرور من قلب ابنته العطوف، وتقبل فكرتها، دون أن يعبر عن ذلك، لكن «الأخرى» فهمت النظرات التي عاشت جل حياتها تحتها.

عندما رحل الجميع في جولة بين بساتين العنب التي تتخللها أشعة الشمس، جلست «فلوريا» و«خوسيه» وابنته اللذان لم يستطيعا حبس الدموع من المنظر الجميل والمؤلم في الوقت نفسه، (فلوريا) وأنهار الدموع تنهال من قمة عينيها: احتضن أخاك يا «ماثيو»، جلس الأخوان بعضهما مقابل بعض ينظران بعضهما إلى بعض كالمرآة التي تظهر صورة طبق الأصل من كليهما ما عدا العين المطموسة ولون الشعر.. لمسة يد.. لمسة خد.. احتضان غير مبرر.. لماذا أحببت هذا الانعكاس ؟!، لماذا أحسه أنا؟! لماذا تنزل دموع الفرح ؟!

اشتاقت النفس إلى مصدر سعادتها، رغم صخب الأفكار وسط عاصفة هوجاء من التروس وفيزيائية ساعة يمكن أن يمكن أن تجمع أسرة مفككة لم تجتمع في الحياة الدنيا، لكن من الممكن أن تجتمع في حياة البرزخ.. يظنون أن أباهم هجرهم، يظنون أنه مشغول عنهم بنفسه، وها هو الأب يكدح ويخطط لأجلهم، يأخذ من صحته لينعموا، جهد وتفكير وتخطيط لأجل مستقبلهم، وماذا يريد بالمقابل؟!، لا شيء غير أن يراهم في سعادة، وإن كان من بعيد.. وهذا ما جعل «ريكي» رغم التعب الجسدي من الغيبوبة، يأخذ النفس المطلوب للدخول في الإسقاط، ويخرج طيفه من التبت، إلى فالنسيا على أمل أن يرى مطموس العين وكحيل الأخرى، كيف أصبح الآن وما هي أحواله؟

كان يريد أن يراه، ولكن ما أن وصل إلى المزرعة إلا ووجد أكثر مما طلب، وجد كل من يحبهم قلبه في مكان واحد، «فلوريا» ما أجملها بعينه، لا يوجد من ينافسها بقلبه، وهناك القمر وقد انفلق إلى نصفين، «ماثيو» و.. هنا تذكر أن ابنه الثاني إلى الآن لا اسم له، ابتسم وقال في خلده: ليكنْ «أريان» وليحمل صفات اسمه في قلبه،

«أريان» المحارب الحامي الشجاع، فمن يعيش بالفقد وبهذه الظروف يا ولدي لن يكسره إنس أو شيطان في المستقبل.

اقترب من «فلوريا» ولثم ثغرها، والأخرى شهقت وشعرت به كما كانت تشعر به من قبل عندما يزورها في منامها ويلثم رأسها، وضعت يدها على فمها وقالت: أعلم أنك هنا، وأعلم أني أحبك، وأعلم أني لن أكون إلا لك، إلى نهاية العمر يا من له القلب ينبض، احتضنت «فلوريا» ابنيها وهو بالمقابل احتضنهم جميعهم تحت ظله.

الباب الخامس والعشرون
(عقارب تداعب الزمن)

(اسقني من كأس الألم، لعله يذهب
عني هذه السعادة الغريبة التي
غمرتني!)

الاختفاء عن الوجود - عام ١٨٨٠م:

أدت «ميلا» المطلوب منها، وانتهى الصانع من إتقان عمله الذي لم ينتهِ بتشغيل الساعة.. ثم وضعت بجانب مدخل الفندق تمثالاً ضخماً لصانعها إكراماً لما أبدعت يداه، جورج إدوارد؟، بالتأكيد لم يكن «جورج» لأن التمثال كان عبارة عن خلطة ما بين اثنين، أولهما أمير الظلام «لوسيفر» بملامحه التي تجسد بها عندما ظهر «لميلا»، والآخر لمن سوف يضع اللمسات الأخيرة على «ساعة الخلود» وقد تم رسم جزء من وجهه في مخطوطات الساعة.. ثم أضافت الأخرى لمستها لمن تراهم في أحلامها وأحياناً في يقظتها، فجسدتهم على شكل تماثيل سريالية ووضعتهم على سطح المبنى ينظرون مباشرة للغابة بوجوههم الخبيثة الضاحكة، وأيضاً على النافورة التي تتوسط باحة الحديقة، وبذلك خلَّدَت ذكرى أقرب الكائنات إلى قلبها، من كانوا يسكنونها في السابق والآن هم أتباعها من الشياطين، من عاشروها طوال فترة حياتها، وما زالوا برفقتها لكيلا تكون وحيدة أبداً.

هجرت «ميلا» العالم، وانطوت في قصرها إلى أن وافت المنية والديها، الاثنان في اليوم نفسه.

ودّعا هذه الدنيا بعد أن ضعف جسداهما، وخارت قواهما وحُبِسا في زنزانة الصمت، رغم أعينهما التي كانت تنطق بالكثير، لكن زمام الأمور كان بيد ابنة القمر الدموي التي حرمتهما من كل شيء، حتى الكلام.. أصبح القصر لها وحدها، ورغم حب الناس لها ولعطائها ونفوذها الذي وصل إلى أنحاء إسبانيا، لكن كانوا يهابونها وما زاد من رهبتها هو قصرها الذي تحول إلى قصر الظلام، قصر يُدخل الرعب إلى القلوب بمجرد النظر إليه، لا ضوء يدخله بسبب نوافذه المدهونة بالأسود، ولا حياة حتى في مرجه الذي يحيطه، لم يتبق غير مخالب الأغصان وعظام صغيرة منتشرة لكائن كان يغرد شجناً.

بعد مدة طويلة من الزمن لم يرها أحدٌ خلالها، تناقلت الأقاويل والإشاعات أنها تزوجت واستقرت، وهناك من يقول بأنها اشترت جزيرة لتعيش بها وحيدة من ظلم العالم، وأيضاً من قال إنها تعيش في القصر بعزلة تؤويها من قسوة البشر.. هل أعطتهم الفرصة لينسوها؟، بالتأكيد لا، لأنها كانت تعطي الجميع من خيراتها بسخاء مبالغ فيه، وهذا الكرم خَلّد اسمها تحت ستار الأعمال الإنسانية، لكن الواقع كان دس السم في العقول بقطرات بطيئة المفعول، لا تريد هذا الجيل، بل الجيل الذي يليه هو المبتغى.

ركض عقرب، وتبعه الذي خلفه في ماراثون لا ينتهي إلا عندما تُؤمر الشمس أن تشرق من بقعة سُباتها.. شاخ الجميع وكبر جيل كان يعيش في رغد «ميلا» التي يجب أن تكون قد كبرت هي الأخرى حالها حال البشر جميعهم؛ الذين يركض عقربهم كذلك ليوصلهم في نهاية المطاف إلى أرذل العمر، لكنها ظهرت لهم من بعد غياب طويل في سنة ١٩٠٠م بشعرها الفاحم المستور أكثره في ظلال عباءتها السوداء، وخصلتها البيضاء التي تتأرجح بين عينيها المسحوبتين، تسير في الأسواق متجهة إلى فندق «كازاميلا»، نظر صاحب محل الفواكه الذي اعتاد أن يرتب البرتقال بشكل هندسي ليغري المشترين، لكنه هذه المرة سقطت منه اثنتان، لأنه أطال النظر في شخصية كان لها الفضل بهذا الدكان الذي بُني من خيرها، وما زالت تأخذ ٢٠٪ من أرباحه بنفس راضية من البائع؛ لأنه لم يحلم أن يملك دكاناً من دون عطاياها ،مع التفاف وجهها، هنا تحقق البائع من أنها «ميلا دامبير»، صرخ بأعلى صوته، صاحبة الجلالة، صاحبة الخيرات ثم ركض باتجاهها يُقبّل يديها والأخرى لم تقاوم ولم تتحرك حتى وتركته يكمل تقبيله، التف الناس حولها غير مصدقين ما يرون، كبار السن عرفوها، لكن صغارهم شاركوهم لبلاغة الشف وللنظر إلى هذه المشهورة التي شدت انتباه الناس حولها.

فقال لها البائع: سيدة «ميلا» أهلاً بعودتك، أجابته: ميلاني، اسمي «ميلاني دامبير»، «ميلا» والدتي، (البائع) بعد سكوت لتجميع أفكاره: أين هي الآن؟، (ميلاني): هاجرت وأنا عدت لكي أنظر في أعمالها ولتقديم المساعدة لمن يحتاجها، لم تنتظر منهم ردّاً، وأكملت طريقها للفندق سيراً على الأقدام رغم بعد المسافة، وهي تقهقه هامسة: يا لكم من حمقى!

وصلت إلى فندق «كازاميلا» وحدث ما حدث في السوق، لكن هذه المرة مع الحارس المُسن، وقفت مقابل الساعة تنظر إليها بإعجاب وشوق مجتمعين، من خلال هذه التحفة الفنية سوف تكمل مسيرتها إلى نهاية عمر الكون، لكن متى يأتي من من لديه مفتاحها؟ فالصبر بدأ ينفد!

أحداث عام ١٩٢٩م:

بعد أن جمع «ريكي» كل ما يخطر على البال بخصوص الساعة ومكانها وطريقة صنعها، ومن شدة الشغف الذي وصل إليه، رسم تروسها مراراً وتكراراً على الورق وحتى على حوائط غرفته في المعبد سنة كاملة أصبحت كفيلة له أن يفهم طريقة عملها بسبب المعلومات التي اكتسبها من السجلات، ومعرفة شكل الترس المفقود الذي يكون

بمثابة مفتاحها وبداية حياة عقاربها، ومع ذلك لن تعمل لأن هذا الترس ليس مجرد قطعة نحاس، بل هو ترس مرتبط بألم وسحر، وكما قال (الشيخ الأبيض) ولا يعلم هذا الأمر غيرهم؛ لأنهم من دوّنوا الحدث من النواحي جميعها، إن كانت القوى العظمى صنعتها على الورق بطريقة ناقصة بسبب عقولهم المحدودة، فإن المدوّنين لديهم تكملة القصة واحتمالاتها: «سحر، ترس، ألم!» الألم موجود بوفرة وهو من أشعل فتيل الشغف بداخله ليكمل النقص في صنعها، أما السحر فسِره في «اللوح الزمردي»، الذي دوّن فيه «الملك هرمس» سر الحياة ما قبل الطوفان، أما الترس فسوف نعرف ماهيته فيما بعد وما هو ارتباطه بكل هذا، الرحيل إلى السجلات الأثيرية أصبح عادة يومية قد أنهكت جسده، لكن لا بد من المضي قدماً لعله يكونُ أول من يجعل للموت حياة!

اللقاء الأخير الذي جمع «ريكي» بأمين السجلات «الشيخ الأبيض» هو ما قلب مجريات القصة بالكامل، لأن السؤال الموجه حينها كان في محله، ليس كيف؟، بل أين؟، اللوح الزمردي موجود، ولكن في مكان لا يعلمه إلا القلة، وطبعاً يجب أن يكون مدوناً في السجلات، وبالمقابل «الشيخ الأبيض» الذي كان يرد على تساؤلاته بمحدودية وكأنه لا يريده أن يعرف مكان اللوح، لكن حين جاء السؤال الصحيح،

لا بد له أن يجيبه بحيادية دون الانحياز لكفة، إن كانت خيراً أم شرّاً، وهذا قانون السجلات منذ بداية الخليقة.. (ريكي): أين اللوح الزمردي؟، سكت (الشيخ الأبيض) ثم نطق مرغماً: في قبر «تحوت»، (ريكي): تحوت! ألم يختف من الوجود؟، بل مات ودفن في أحد دهاليز الهرم «خوفو»، وقبل أن يموت كلف تلامذته بنحت جزء من كلمات اللوح بطريقة مختصرة لتكون لغزاً مطلسماً لمن يريد أن يجد اللوح الأصلي، والنحت موجود في الهرم «منقرع».

رحل طيف (ريكي) بشغف كاد أن يذهب عقله، وكانت وجهته القادمة هو الهرم الأصغر «منقرع» وقال في خلده: لعلك أيها «الشيخ الأبيض» تريد أن تتملص من الإجابة الوافية، وتُطيل الوقت المهدور لإنجاز ما أطمح له، لكنني سوف أحقق حلمي، بك أو من غيرك.

نسخ النحت على مخطوطاته وهو يقف في ممرات الهرم «منقرع»، ثم رحل إلى جسده لينال قسطاً من الراحة لعله يجد الحل لهذا اللغز الذي عجز عنه الكثيرون.. من بعد الراحة والتأمل وصفاء الذهن، قرأ اللغز المنحوت، وحلله على مَهل، ثم تدبر بعمق، لكن لم يصل لأي استنتاج ممكن أن يدله إلى قبر «تحوت»، وما لفت انتباهه الجملة «إن الأعلى من الأسفل والأسفل من الأعلى».

خرج من غرفته، وجلس على التل يراقب البحيرة وعقله رحل مع هذه الجملة التي أرهقته، شعر بقدوم أحدهم من خلفه، وهذه الخطوات يعرفها جيداً، وضع (لي) يده على رأس «ريكي» ثم قال: وأخيراً استفردُت بكَ، إلى ماذا وصلت هذه المرة؟، (ريكي): معلمي هل تعرف حل هذا اللغز: «إن الأعلى من الأسفل والأسفل من الأعلى»؟، تأمل «لي» البحيرة ثم وضع كف يده اليمنى أمامه بثبات، ثم همس بصوت غير مسموع، ووضع كف يده اليسرى فوقها، ثم حركَ اليسرى ووضعها أسفلها وما زالت اليمنى ثابتة، فتح «ريكي» عينيه على مصاريعهما!

(ريكي): كم أنت عبقري، «تحوت» مدفون بقبر واحد مع الفرعون «خوفو»!، قام «ريكي» مهرولاً وسط نظرات الاستغراب من «معلمه»، ودخل غرفته مع التثبت من أن الباب موصَد بإحكام، تنفس بهدوء، فخرج طيفه من جسده بطريقة انسيابية، ثم رحل من التبت إلى أهرامات الجيزة للمرة الثانية، دخل في دهاليز الهرم الكبير، وبحث في الأرجاء إلى أن انتصف غرفة الفرعون الذي جعل من قبره صرحاً يُذكّر العالم أجمع بعظمة هذه الحقبة وما تحتويها من مفاجآت إلى الآن جارٍ اكتشافها، كم كانوا في حضارة ومعرفة وعلم،

ومع تقدمنا الحالي، نجد أنهم كانوا هم المتقدمين ونحن من يذهب خلف التأخر والتخلف العلمي.
توغل داخل تابوت «خوفو» فوجده في سبات وخاب ظنه؛ لأنه لم يجد الغامض «تحوت» يرقد بجواره، ولكن كان هناك الجرار التي تستخدم لحفظ رماد الموتى بجوار الملك، هل من الممكن أن يكون «تحوت» في إحداها؟، لا يهم لأن المطلوب هو اللوح الزمردي، لم يجد شيئاً يمكن أن يستدل به على حاجته.. فكر أن يتقمص دور «تحوت» لعله يستطيع أن يجد شيئاً.. من الممكن أن الملك طلب منه حفظ اللوح وما به من ألغاز عن العالمين، على أن يدفن معه مدى الدهر، هل من الممكن أن يكون الملك راقداً عليه، نظر أسفل جثته، فلم يجد شيئاً.
أخيراً رقد على جثة الفرعون «خوفو» فتح عينه لينظر إلى العجب من أمامه، إذ بالتابوت نفسه من الداخل هو اللوح الزمردي، قد أتقن «تحوت» عمله؛ إذ إنه صنع التابوت نفسه من اللوح الزمردي، وما زال يبهرنا بإنجازاته التي لم تُفَك ألغاز بعضها إلى يومنا هذا.
خط «ريكي» النقوش بحذافيرها، ثم خرج والكنز في جعبته، ووصل إلى جسده، ثم وضع المخطوطة على المكتب وشمعة يتراقص نورها بجانبه.. نظر بإمعان إلى ما كتب:

حق لا شك فيه صحيح

إن الأعلى من الأسفل، والأسفل من الأعلى

عمل العجائب من واحد، كما كانت الأشياء كلها من واحد، بتدبير واحد

أبوه الشمس، أمه القمر

حملته الريح في بطنها، غذته الأرض

أبو الطلسمات، خازن العجائب، كامل القوى

نار صارت أرضاً، أعزل، الأرض من النار

اللطيف أكرم من الغليظ

برفق وحكم يصعد من الأرض إلى السماء، وينزل إلى الأرض من السماء.

وفيه قوة الأعلى والأسفل

لأن معه نور الأنوار؛ فلذلك تهرب منه الظلمة

قوة القوى

يغلب كل شيء لطيف، يدخل في كل شيء غليظ

على تكوين العالم الأكبر تكوّن العمل

فهذا فخري؛ ولذلك سمّيت هرمس المثلّث بالحكمة

لم يفقه منها شيئاً واحداً!، لكن سوف يحاول أن يفك طلاسم اللوح، وإن كلفه حياته، ولم يتوانَ ولم يستسلم؛ لأن الهدف من هذا كله «فلوريا» وابناه، وإن كانت العائلة هي الهدف فالصعاب كلها تهون.. وفي نهاية المطاف، هل فك اللغز؟، استغرق في التفكير والمحاولات وكتب التاريخ والسجلات الأثرية ما يقارب عشرة أعوام، عقد كامل ذهب من عمره في أبحاثه التي آلت إلى خيط ضعيف جدّاً عن «حجر الفلاسفة» في عام ١٩٣٩م.

غدا يصبح عمر «ماثيو» ثلاثة عشر ربيعاً ولماذا ربيعاً؛ لأنه لا يوجد فتىً يعيش النعيم المقيم غيره في الأرجاء كاملة، الدلال الذي يُنعّم به من والدته «لورا» وما يزيد عليها من عمته «فلوريا» التي تنهال عليه بكل ما تشتهيه نفسه، وشب على ملعقة الذهب التي ذابت في فمه، حتى من جانب والده «أليكسندر» الذي لا يترك سباقاً للخيل إلا و«ماثيو» رفيقه وكذلك مصارعة الثيران، إلى أن دخلت تلك الرياضات إلى قلبه، واستهوت عقله لدرجة الجنون، في كل صباح كان يرافق «فلوريا» في الشرفة الأرضية للمنزل لتناول الإفطار، وإن كان أهله حول طاولة الطعام، لكن الإفطار مع «فلوريا» التي عزلت نفسها، وإن كان بوجبة

واحدة عنهم، له طعم ألذ لأنه يشعر معها بالحب أكثر من أي شخص بالعالم..

وفي مرات متفاوتة، يخرج «السيد بوربون» مكفهر الوجه كعادته الدائمة، من منزله فينظر له الاثنان، ويبادلهما النظرات مع مشاعر غريبة تطفو بالأفق.. فينطق قلب «فلوريا»: نعم إنه حفيدك إنه من «آل بوربون»، لكنك من أبى واستكبر.. «السيد بوربون»: كيف لهذا الصبي أن يجذبني إليه هكذا؟!، «ماثيو»: لا أعلم لماذا أحب وأكره هذا الرجل بتناقض غريب!

ومن سوق برشلونة الساحلي، هناك من جاء من فالنسيا لكي يعود بعد أيام مع أحد المزارعين المكلفين بحمايته، على أن يعودوا محملين بالطلبات التي دوّنها لهم «خوسيه».. لكن «أريان» الذي يكرهه جل الباعة والمشترين وحتى الكلاب الآمنة التي ترقد بجوار الدكاكين، لأنه الشر بعينه، لعنة تسير على الأرض، كيف لهذا الشقي أن ينتشل ماء العين، دون أن يشعر به أحد؟!، لكن وجوده داخل الدكان كاف لمعرفة من هو السارق.

ولم يكتف فقط بالنشل، لأنه كان يأخذ بعض الطلبات التي تخص المزرعة عنوة من الباعة وإن رفضوا بيعه، يأخذها على حين غرة دون سداد ثمنها، بل إنه تمادى إلى صنع المكايد وزرع الفتن بين رواد السوق، لكي يفتعل الشجارات، ويجلس على الدكة ينظر لما صنعت يداه بكل بهجة.. لم يتوقف أذاه عند هذا الحد، بل وصل إلى الأولاد المرفّهين الذين يأتون للسوق مع ذويهم لشراء الحلوى، وكان لهم نصيب الأسد في مقالبه، فمنهم من يسقط عليه الصبغ الأسود من الأفق دون فهم كيف حصل ذلك، ومنهم من يأخذ صفعة تُغرّد لها أذنه في وسط الزحام، وأيضاً الذي يعود إلى والديه دون ملابسه الأنيقة؛ بسبب الملثم الذي رفع عليه السكين في الزقاق!

وكل هذه الأفعال من صنع يد «أريان» بريء المحيا، شيطان السريرة، توأمان كل واحد منهما أخذ من والديه شيئاً، انقسم بينهما الخير والشر بقسمة غير عادلة، أحدهما أخذ الخير كله وصِفات والديه الحسنة، والآخر أخذ شرهما والحقد المكنون على مر الزمن.

وما أيقظ هذا الشر الخامد في قلبه، هو ما سمعه مصادفة من حديث اثنين من الباعة عندما نظرا إليه وهو يسير بجانب أحد المزارعين، «قد حضر اللقيط»، آلمته، بل قطّعت أوصاله، لكن ليس عندما سمعها،

بل عندما رجع إلى «خوسيه» وسأله عن معناها، وأجابه الآخر بـ «مجهول الأبوين».. هنا تدفقت الأسئلة من جوفه وكأنها بركان ثائر بدأ مرحلة لفظ الحمم النارية لكل من حوله.. كان يجيبه «خوسيه» عن بعض أسئلته، ويعرض عن البعض الآخر لعدم وجود إجابة من الأصل أو لإخفاء سر العاشقين «فلوريا» و«ريكي».

ومن كثرة الشكاوى التي تسقط على مسامع من يتكفل بهذا الصبي، بل ليس صبيّاً، شيطان مريد، قرر «خوسيه» عقابه بالحبس في غرفته لمدة أسبوع، وكان هذا الأسبوع ما جعل «أريان» أكثر إصراراً على عناده، لكن هل سوف يفيده العناد وهو محبوس؟، لم يكن له إلّا الصبر إلى حين انتهاء مدة حبسه لكي يذيق من اشتكاه مر العذاب في الحياة الدنيا، جلس وتنفس وتأمل، محاولاً تسكين الغضب على أن يتأجج في الوقت الملائم.. إلى أن حدث غير المتوقع!

في أثناء جلوسه.. خرجت روحه طافية تهيم في أرجاء الغرفة.. نظر إلى جسده الذي كان يجلس متقرفصاً يتنفس بهدوء، ثم نظر خلفه وإذ بطيف آخر لرجل غريب، لكنه مألوف الوجه!

الباب السادس والعشرون

(بحثت في كل مكان، إلا من أمامي)

(ألم يشتق قلبك لنبض الحب؟!)

لوحة الشمس تعود من جديد - عام ١٩٣٩م:

على التل جلس الصديقان اللذان جمعهما القدر مصادفة، وكانت خير مصادفة لكليهما، «ريكي» الذي شرب العلم من معلمه «لي» الذي كان يراه ابناً له، بل يراه العالم أجمع، وإن كان «ريكي» جميل الخلق، ولم يثر غضبه انتقاماً لمحبوبته إلى الآن، لأن من ورائه مُعلم الحكمة والقلب القوي المؤمن بالسلام حتى وإن وقع الظلم عليه.. (لي): إلى ماذا توصلت في أبحاثك؟، (ريكي): «هرمس» وضع هذه الألغاز لكي يرشد من يستحق إلى «حجر الفلاسفة» إما لتحويل المعادن إلى ذهب، وإما لإهدائه إكسير الحياة، فمميزات هذا الحجر لا تعد ولا تحصى، وقد نحت التاريخ حروباً قد دمرت الكثير من البشر لأجل امتلاكه، (لي): هل حصل عليه أحد؟، (ريكي): أظن.. الذي كان الأغنى حسب كتب التاريخ؟، النبي سليمان، والطاغية قارون، أبحاثي الآن بينهما.. (لي): لطالما سألتك ولم تجب، لماذا كل هذا الجهد والشغف؟، (ريكي): الخلود!

(لي): ولماذا تريد الخلود، والحياة لا تكون جميلة إلا بوجود الأحبة قربك، لكن في الخلود سوف تحب في كل حقبة زمنية أشخاصاً، وتجعلهم الأقرب إلى قلبك، فيموتون ويتركونك وحيداً في نهاية المطاف وليس لمرة واحدة في خلودك، بل لمرات عديدة إلى انتهاء الزمن؟، (ريكي): وهنا تقع جل أبحاثي، الخلود لي ولأحبتي!

(لي): هل لي أن أقترح عليك؟، (ريكي): بالتأكيد يا معلمي، لقد وصلت إلى نقطة عمياء، ومنذ سنة وأنا أحاول أن أتخطاها، لكن لا شيء جديد ممكن أن يدلني إلى مبتغاي، (لي): لجأت إلى السجلات وللكتب وللمخطوطات وللتاريخ كذلك، ووصلت إلى نقطتك العمياء، وهنا يجب أن تلجأ للخبير، لمن أفنى عمره كله في دراسة التاريخ، لمن يفوقك بالخبرة والمعرفة في هذا المجال، (ريكي) بانزعاج: ترمي بحديثك هذا لمن؟، والدي؟!

(لي): ليس كل ما أعلمه، أنت تعلمه.. كان لي زيارات إلى منزلكم للنظر في أحواله بين الفينة والأخرى، فكل ما يهمك يهمني يا ولدي، لن أخبرك بشيء لا يريد صاحبه أن يعلمه غيره، كل ما يمكنني أن أساعدك به في الوقت الراهن، أن أرشدك لزيارة والدك، هناك أمر مشترك بينكما وهو حب التاريخ، وممكن أمور أخرى سوف تعرفها فيما بعد، اقبل نصيحتي وشد الرحال إليه، سكت «ريكي» لعدم قبول الفكرة من أصلها، لكن هناك الشغف الذي يضرخ داخله، إما أن يقضي عليه!

في أواخر عام ١٩٣٩م من بعد أن ضاق الخناق على «ريكي» قرر شد الرحال إلى برشلونة، وها هو ينظر إلى غياب الشمس من البقعة نفسها قبل ١٣ سنة على حافة الباخرة..

ابتسم ابتسامة سخرية وهو يتذكر كيف عاش مع عائلته بطيفه كل هذه المدة وقد حرمهم من حنانه وحضنه الدافئ، وكيف للأقدار أن تجبره أن يشد الرحال طلباً لنصح من كان له يد بفراق أحبته، وطلباً لعلمه ومشورته، يا لسخرية حاله!

ثم رحل عقله إلى منحنىً آخر، لا يعلم هل طاقته الهائلة إرث أصبح من نصيبه من بعد أجداده أم أنها نعمة وفي الوقت نفسه نقمة عليه، إن استخدمها في أذية الغير، وها هو يورثها «لأريان» ويشعر بالخوف الشديد عليه، وعلى ما سوف يستخدمها لأجله، إنه شقي وعاش في التعاسة والفقد منذ نعومة أظفاره، فهل سوف ينتقم كما يشعر والده بشغف الانتقام من البشرية لأجله ولأخيه وأمه؟!

ظهر من العدم، (كيان) ملتحف العباءة السوداء، أسند يديه على حافة الباخرة بجانب «ريكي»، وألصق الكتف بالكتف: مساء الخير، أبليت البلاء الحسن، ووصلت إلى اكتشافات لم نصل لها نحن، كل ما نعرفه أنك أنت المفتاح، تذكر ذلك ما حييت.. أنت المفتاح.

نظر (ريكي) للوجه الذي لا يظهر منه إلا الظل، وخصلة بيضاء بين سواد مظلم، رجعت عيناه إلى انعكاس ذوبان الشمس في المحيط: تبعت غضبي وأوصلني إلى نقطة عمياء، ولم ترشدني بوصلتي إلى شيء حتى الآن، (الكيان): بل أنت على مشارف النهاية، أكمل وسوف تبهر العالم باكتشافاتك، ونحن من خلفك نحميك ونذود عنك، نكون لك العين والقلب والعقل.

(ريكي): لا أريد منكم شيئاً، اتركوني أعيش بسلام، (الكيان) وهو يوليه ظهره مغادراً المكان: عندما تنتهي من أعمالك اذهب إلى فندق «كازاميلا» واطلب مقابلة أحد محامي عائلة «دامبير» واترك الباقي له، أومأ (ريكي) مع فتح عينيه على مصاريعهما، محدثاً نفسه: فندق «كازاميلا».. «ساعة الخلود».. هذا مكانها الذي رأيتها فيه أثناء غيبوبتي!
مضى الوقت المعلوم للرحلة، وبدأ عام جديد لقصة ألم عاشها «ريكي» الذي ما زال يحاول الموازنة ما بين ناطق الخير الذي على يمينه، ونافخ الكير الذي على يساره.. ترك التبت عام ١٩٣٩م، ووصل إلى برشلونة في عام ١٩٤٠م، يسير بين طرقاتها، ويتذكر كل بقعة مر بها، لكن أكثر ما كان يؤلمه هي الأماكن التي خلَّدَت ذكرى تشمل «فلوريا» فيها..

كم يخاف عليها، وأكثر خوفه من نفسه أن يضرها، إلى الآن يفكر في ضرب الجميع في عرض الحائط، ويأخذها زوجة له، لكن لا يريد أن يأخذها مرغمة، هي صاحبة القرار، وهي من قرر أن يكون الزواج علنيّاً، مع علمها برفض الجميع، يا ليتها تطفئ قلبها قليلاً وتفكر بعقلها، هنا نحتاج المنطق أكثر من العاطفة.. لكن لا يملك إلا أن يطيعها.. بسبب حبه الشديد لها.. وخوفه عليها.

ما زال «ريكي» يسير بين الطرقات ويقوده عقله الباطن إلى طريق منزله وقلبه ما زال يبادل طيف «فلوريا» العتاب.. إلى أن سمع شهقة يتبعها سعال، رفع رأسه المُنكّس، ليجد حب حياته، حلمه، أمنيته واقفة في شرفة الطابق الأرضي تنظر إليه وكأنه الدواء لدائها، و(ماثيو) يمسك يدها متسائلاً: ماذا حدث؟، ما بك يا عمتي؟، وقفا بعضهما مقابل بعض، ولا يستطيعان العناق من بعد غياب طويل، إنما هي لغة العيون الناطقة بمكنون القلب، التي أرسلت أحر الأشواق.. أومأ «ريكي» وابتسم «لماثيو» الذي بادله ابتسامة خلفها الكثير من البلاهة لهذا الرجل الذي يعرفه ولا يعرفه في الوقت نفسه. أكمل طريقه إلى منزله و«فلوريا» ما زالت غير مصدقة ما رأت، حتى كادت أن تلحقه لولا «ماثيو» الذي يلاصقها، فلا تريد أن تفسد كل ما تحمّلاه من مصاعب لإخفاء سرهما.. ضرب باب المنزل، وسمع صوت

خطوات ثقيلة جدّاً قادمة نحوه.. فُتح طرف الباب: من هناك؟، (ريكي): أنا ريكاردو يا أمي، فتحت الباب على مصراعيه، لكنها لم تستطع أن تركض وتسقط بحضنه؛ لأنها أصبحت عجوزاً غابرة، بل هو من تقدم واحتضنها بكل ما أوتي من شوق.

جلست مقابل مدفأتها، وجلس هو بجانب قدميها واضعاً رأسه على حجرها، (ريكي): أين «سيزار» اشتقت إليه؟، (والدته): تعلم أنه أصبح طبيباً جراحاً يقضي جل وقته في المستشفى ما بين عمليات جراحية وتطبيب المرضى، (ريكي): و.. وأبي؟، (والدته): استسلم لشيخوخته وأصبح يقضي معظم وقته في المكتبة في الطابق الأول، (ريكي): أحبك يا أمي.

ودعها وصعد إلى الطابق الأول، ثم وقف مقابل خشب الأرضية المتهالك الذي لطالما أصدر صريراً ينبئ بوقوعه في الفخ، تأمله ثم ابتسم ووثب، لا لخوف، بل لإعادة إحياء ذكريات الطفولة التي كان يعيشها ببراءة خالية من هموم الحياة.

طرق الباب، فقال المنطوي في مكتبته: ادخل، وكأنه يعلم أنه سوف يعود يوماً من الأيام، فتح «ريكي» الباب ودخل وهو ينظر إلى المكتبة التي كان يقضي فيها أجمل أوقاته، لقد تبعثرت، الكتب ليست في موضعها على الرفوف، بل مكدسة على الأرض بطريقة مبعثرة، وها هو والده، وعينه

على الكتاب محاولاً فك الكلمات لقصر نظره. جلس (ريكي) مقابله وقال: كيف حالك؟، (السيد بوربون): أفضل من حالك، أعيش حلمي وإن بلغت من العمر عتيّاً، انظر إلى حالك كيف

أصبحت عجوزاً وأنت في سن الحكمة.. ألم ترحل؟، لم عدت؟، سكت (ريكي) وهو ينظر في عينيه دون غضب، لأن مشاعره تجاه والده قد ماتت: لطالما تساءلت، لماذا تكرهني؟، (السيد بوربون): لا أكرهك، ولا أحبك أيضاً، لكني أشعر بالمسؤولية تجاهك؛ لأنك ابني في نهاية المطاف، لكنك فكرت بمشاعري لك، ولم تفكر في والدك نفسه، ولأن قصتي سوف تنتهي قريباً لا بأس أن تعرف «لماذا» هذه الطريقة بالتعامل معك.
أردف (السيد بوربون): أعاني مرضاً لا علاج له، ما زال «ريكي» في صمت وإنصات.. المرض الذي أعانيه هو «تبلد المشاعر» أو بمعنىً آخر نقص التفاعل العاطفي، (ريكي): وهل هذا المرض اكتشفته للتو، لكي تجعله شمّاعة لقسوتك معي التي ما زالت مستمرة؟، (السيد بوربون): لك أن تصدق أو حتى لا تصدق، لا يهم.

(ريكي): سوف نرى فيما بعد، (السيد بوربون): أخبرني، يوجد هناك ما ينخر عقلك، وأعلم يقيناً أن زيارتك لنا لم تكن اشتياقاً، بل هناك أمر آخر، (ريكي): حجر الفلاسفة، أغلق والدي الكتاب، واعتدل في جلسته مع كامل انتباهه، (ريكي): أظن أنك تبحث عنه كذلك.. ثم حكى له عن جل أبحاثه منذ أن زار قبر «خوفو» إلى أن وصل إلى ارتباط لغز اللوح الزمردي بحجر الفلاسفة مع التحفظ على طريقة انتقاله والسجلات الأثيرية.. فتح مخطوطات الساعة، وشرح لوالدي ما يدور في خلده، بأن يكمل صنعها بوضع الترس المفقود، لكي يصل إلى هدفه ويغير مفهوم الموت إلى الخلود، (السيد بوربون): لكنك بهذا الاختراع سوف تحدث كارثة، يجب أن يكون هناك وفيات يرحلون ومواليد يحلّون محلهم على هذه الأرض، (ريكي): أعلم، ولذلك سوف أختار من يبقى ومن يتكفل به الموت!

بعد أن ساد الصمت هذا الحوار الغريب منذ بدايته..

قام (السيد بوربون) حاني الظهر مستعيناً بعكازه: وصلت إلى أرذل العمر، ولم يتبق من ساعتي الرملية إلا حبيباتها الأخيرة، اتبعني، قام الآخر ونزل مع والدي إلى الطابق الأرضي، ومنه إلى قبو المنزل الذي كان لا يدخله غير صاحب المنزل نفسه ولا أحد غيره، فتح الباب بالمفاتيح التي معه، باب من الخشب الثقيل يوجد عليه أكثر من قفل، دخل والدي أولاً، وأشعل الفانوس الزيتي، لينير المكان لمن يتبعه.

فغر (ريكي) فاه وقال في خلده: كنت أظن أنني أفنيت عمري في البحث عن شيء غير موجود إلا في الكتب والمخطوطات، لأجد العجب في قبو منزلي الذي كنت أعيش فيه، مخطوطات كثيرة وكتب منقوشة بخط والدي، معظمها عن اللوح والحجر، وهناك حائط كامل مليء بالأماكن والخطوط المخطوطة بالطباشير متصلة بعضها ببعض، (ريكي): إذاً اجتمعنا على شيء، أوجدت مكان الحجر؟، «السيد بوربون» ويداه على عكازه ينظر إلى الحائط بابتسامة انبهار من تعبه وجهده الذي سوف ينتقل إلى ولده، أخيراً هناك من سوف يكمل مسيرته، ولن تكون أبحاثه هباءً منثوراً.

(السيد بوربون): لم يستطع أحد أن يحدد مكانه في العصر الذي نعيشه، لكن من أبحاثي كونت نظرية، ممكن أن تكون الخيط لمكان الحجر المرغوب من الجميع، طلباً للثراء والخلود مجتمعين، (ريكي): لا أريد الثراء، أين مكانه يا أبي أرجوك؟، (السيد بوربون): رفع عكازه في منتصف الحائط على صورة منارة مرسومة بالطباشير وعليها دائرة والخطوط جميعها قادمة من الأماكن الأخرى لترتكز عليها.

(السيد بوربون): منارة جزيرة فاروس كان الحجر بحوزة الشاب العبقري الذي وضع ثلث العالم تحت حكمه «الإسكندر الأكبر» أخذه من هيكل سليمان في فلسطين، وانتقل معه إلى مصر التي بدأ اجتياحه لها من فاروس التي تغير اسمها كنايةً به وأصبحت «الإسكندرية»، وعندما رحل لإكمال سلسلة فتوحاته،

سلم الحجر إلى من ولّاه حاكماً لها إلى أن وصلت الولاية إلى الحاكم «بطليموس الثاني» وهنا حدث أمر غريب، أغلق هذا الموقع عن أعين السُّكان، وبعد سنوات ظهرت أول منارة بالعالم، منارة الإسكندرية التي غدت من عجائب الدنيا السبع القديمة، ومنذ ذلك الحين الحجر مختفٍ، لم يكن في قصر الحكم بالغرفة المخصصة له، وأيضاً لم يكن في خزانة الدولة، الحجر اختفى مع ظهور هذه المنارة بالتحديد.

أردف (السيد بوربون) حديثه بشغف: وهنا بدأت المؤامرات من وزراء الحاكم، وحوادث قتل كثيرة حصلت بجانب المنارة والمقتولون جميعهم يرجعون بطريقة أو بأخرى إلى هؤلاء الوزراء الذين يعلمون مكان الحجر.. ظهرت أجيال جديدة، وبدأت حكاية الحجر ومكانه ترحل عن العقول والذاكرة، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي اهتزت الإسكندرية لكي تسوي المنارة في الأرض بسبب الزلزال الذي وقع في عام ١٣٢٣م.

(السيد بوربون): نسوا أمر الحجر، لكن العارفين بأمره لم يتوانوا في البحث كأمثالي أنا وأنت، هل وجده أحدهم؟، هرطقات وأهازيج، إحداها أن هناك مجهولاً سلم الحجر لخيميائي لكي يحوّل ذرات الرصاص إلى ذهب، وقد حوّله بالفعل حسب ادعائهم من بعد الاستعانة بذرات حجر الفلاسفة، ولا دليل على هذا الكلام غير أحاديث منقولة على لسان هذا وذاك، وختاماً بُني مكان المنارة «قلعة قايتباي».

(ريكي) الذي كان ينصت بكامل حواسه باستمتاع: كان ظني في محله!، حسب المخطوطة التي نسختها من اللوح الزمردي، كان الحجر في هيكل سليمان.. (السيد بوربون): أريد النظر إليها.. أخرج «ريكي» المخطوطة من جعبته، وسلمها والدي الذي فتحها وقربها كثيراً لوجهه ليفك الخط.

(السيد بوربون): حملته الريح في بطنها، غذته الأرض.. أبو الطلسمات، خازن العجائب، كامل القوى.. كان «هرمس» يعلم مستقرها الذي سوف يكون، عند النبي الملك، خازن العجائب، كامل القوى، صاحب الريح، وجامع طلاسم الشياطين تحت عرشه، وأول من فك هذا اللغز هو الإسكندر الأكبر!

(ريكي): حسب توقعاتك، أين بالتحديد يمكن أن تكون غرفة الحجر، أسفل المنارة؟، (السيد بوربون): مسقط الزيت الحار..

هناك بقعة في قلعة قايتباي عند مدخل الباب الرئيس لبهو القلعة من الداخل، إذا نظرت إلى الأعلى فسوف تجد فجوة بالسقف كان يستخدمها الجنود لسكب الزيت الحار على المقتحمين، أعتقد أن الغرفة المنشودة في هذا المكان.

(ريكي): أعتذر منك، يجب أن أرحل الآن، هل غرفتي ما زالت متاحة؟،
(السيد بوربون): كما لو أنك تركتها في الأمس، رحل «ريكي» يسابق الريح إلى غرفته، دخل ورمى حقيبته المحملة بالكتب والمخطوطات على السرير، فتح النافذة ليجدد هواء الغرفة، ثم جلس على الأرض، وأغمض عينه ليدخل في حالة الاسترخاء، نعم إنه وقت الإسقاط والانطلاق في حينه إلى مصر.

لباب السابع والعشرون
(الانكسارات، تصنع المعجزات)

(الوحدة من تصنع منك وحشاً، أو تجعل الوحش يأكلك!)

مغامرة.. وأخبار مدمرة - عام ١٩٤٠م:
فتح «ريكي» عينه على مصراعيها، بعد أن عاد من مصر وبالتحديد من رحلة ساحل الإسكندرية التي قضاها في القلعة المظلمة بأسوارها الشاهقة وأحجارها العتيقة، عندما دخل من بوابة القصر الخشبية، وسار على خطاً متسائلة هل سوف يجد الحجر؟، الحجر الذي قتل الرجال بعضهم بعضاً للحصول عليه، الحجر الذي من يمتلكه يحصل على الأمنيات جميعها، وأهمها الخلود أبد الدهر، والمال الذي لا ينقطع، وماذا تريد بعد هذا؟!

اخترق بوابة مدخل القصر، ولم تكن عينه على الأرض، بل على السقف، باحثاً عن فجوة معلق فيها دلو من النحاس الثقيل، فجوة كانت تستخدم لسكب الزيت الحار على المعتدين، وبالفعل وجدها وطار طيفه إليها لكي يكتمل يقينه بالمكان المنشود.
أطال النظر أسفلها، وضربات قلبه ظاهرة من قميصه، نزل إلى قاعها، وما زال ينزل وينزل إلى عمق ظن لوهلة أنه سوف يضل إلى بحر الساحل من شدة العمق الذي نزل به، إلى أن وصل إلى العجب.. وهو تحليل «والده» الذي كان صائباً، ولا يشوبه خلل، غرفة خرسانية مبنية تحت الأرض بعناية، لا تحتوي إلا على طاولة، وعليها صندوق ذو قفل حديدي، وبداخل الصندوق حجر أحمر براق!

وهذا ما رأته عينه من بعد إشعال شمعة أنارت قلبه بسعادة قبل أن تنير المكان، وها هو الحجر لا يفصله عن يديه غير خطوة.. رجع طيفه إلى مكانه المعتاد، ثم ركض إلى والديه مودعاً المنزل الذي كان يؤويه لشد الرحال إلى مصر بلد الحضارات، لكن هذه المرة ليس بطيفه، بل بكُلِّه وبعضه.

يعلم أماكن الكنوز المختبئة في باطن الأرض من خلال السجلات الأثرية، وأخرج بعضها لتكون من نصيب التبتيين، والبعض الآخر تم استخدامها في برشلونة، وهي ذاتها الوسيلة التي سوف يحصل من خلالها على أثمن كنز عرفه التاريخ.. استأجر الرجال وأغدق على عائلاتهم من الخيرات التي تكفيهم سنة كاملة، وكذلك استأجر باخرة لتكون له ولرجاله فقط.

اشترى الملابس الفخمة من أرقى دكاكين نبلاء برشلونة، ليتبدل حاله بين ليلة وضحاها من «ريكي» إلى «السينيور ريكاردو» النبيل الذي سوف يقيم حفل زفافه على شكل أسطورة «ألف ليلة وليلة» بالهيئة العربية الأندلسية، وقد أعجب «بقلعة قايتباي» التي اتخذها وجهته القادمة والمستهدفة لإقامة حفل زفافه داخل أسوارها العتيقة.

ركب البحر الأبيض المتوسط الذي يفصل ما بين ميناء برشلونة والإسكندرية، مشحوناً بالعزم والبهجة لتحقيق الهدف المنشود، مخاطباً نفسه: الصعاب كلها سهلة لأجل عينك يا معشوقتي، على أن نلتقي في القريب العاجل، أو في البعيد الآجل، سوف نكون بعضنا لبعض في نهاية المطاف، لن أخذلك، وعدتك وها أنا أوفي بوعدي.

وصل بعد أسبوعين من الإبحار وكما هي عادة الدول إذا زارها النبلاء، يحسنون ضيافتهم ويكون الإتقان في حسن الضيافة أكبر إذا كانت الدولة المستضيفة عربية، فهم من حازوا على مكارم الأخلاق.. بمجرد توقف الباخرة ونزول أحد الرجال لإبلاغ مسؤول الميناء بوصول المبجل، نجل الأغنياء «السينيور ريكاردو بوربون» إلا وتحول حال الميناء من السكون إلى الصخب من الاستعدادات لاستقبال فخامته، حتى شملت البساط الأحمر الذي سوف يرشد «السينيور» إلى غرفة الضيافة الملكية في ميناء الإسكندرية.

وحين استراح السينيور واحتسى الشاي الهندي في عقر دار العرب، وصل إلى «ريكي» الموافقة على لقاء «مبعوث» الملك فاروق الأول حاكم مصر الذي يتولى شؤون الإسكندرية، ومنها يستقبل النبلاء من الدول الصديقة.. لم يكن من العسير أن يقبل عرض السينيور في استئجار قلعة قايتباي لمدة شهر، وذلك استعداداً لإقامة حفل الزفاف،

لأن العرض المالي الذي سوف يدخل خزينة الدولة كان رقماً فلكيّاً، ولذلك تمت الموافقة، وتوقيع المعاهدة التي من خلالها يتعهد السينيور بالمحافظة على هذا الإرث التاريخي والتعويض في حال الضرر.

دخل «ريكي» أسوار القلعة التي زارها طيفه من قبل أسابيع، والآن استقر بها جسده، لم ينتظر إلى الليل لكي يبدأ الحفر، بل بدأ مباشرة بمجرد دخوله مع المحافظة على حجر الأساس الذي انتزعه رجاله بكل حذر.. حفر مع رجاله المناوبين، لأنه قسمهم إلى مجموعات تعمل على مدار اليوم دون توقف، وكانت أعمالهم مرهقة مقارنة بأعمال الحفر المعتادة؛ لأنهم كانوا يحفرون دون إصدار أصوات تجذب المارّين من أسوار القلعة وخصوصاً البحّارة الذين ينتهون من أعمالهم بعد أن يخيم الظلام على أفق السماء الدنيا.

وهكذا استمر العمل إلى أن انقضى من الزمن أسبوعان، وهنا توقف «ريكي» عن أعمال الحفر من بعد أن فُجِع قلبه بالمصاب الجلل.. حيث إنه عندما انتهى من أعماله اتجه إلى غرفته لكي يغتسل ويرتاح، وقبل أن يبلغ وجهته، شعر بوجود شيء غريب على النافذة الملاصقة لباب غرفته، كلمات مخطوطة على زجاجها بالصبغ الأسود: «المعلم لي يبلغك السلام الأخير، ويرسل إليك حبه وفخره لأنك تلميذه الوحيد وكذلك ابنه الذي لم ينجب، وأيضاً يبلغك ألا تنجرف خلف غضبك فهناك

الكثير من الخير داخلك، انشر السلام من نور قلبك على بقاع الأرض، ولا تمطرها سواداً من غيومك الظلماء، إلى اللقاء في حياة أخرى».. لم يتمالك «ريكي» نفسه ومع سقوط أول دمعة بين قدميه لكَم زجاج النافذة لتسقط قطع الزجاج على الأرض مخلفة دويّاً أرعب الجميع.

دخل غرفته، ثم أغلق الباب، ولم يخرج منها ليومين كاملين، حزناً وانكساراً على فراق المتبقي الوحيد له في هذه الدنيا، من كان له معلماً وأباً وصديقاً، من كان ينير ظلمات قلبه قبل أن يستحوذ عليه السواد الكامل، السواد الذي انتشر في قلبه من بعد هذا المصاب كنقطة حبر وقعت في بحيرة زرقاء، فتحولت إلى مستنقع مظلم.

الآن لن يحيد كائنٌ من كان عن إكمال أعماله، كان من الممكن أن يُرجح كفة الخير الذي يقوده إليه معلمه وإن وجد الحجر، وإن كان في اللحظات الأخيرة من تفعيل الساعة التي لم يفهم طريقة تفعيلها بعد.. لكن الآن انتهى كل الخير داخله، وبدأ عالم الظلام يتغلغل وينتشر في جوفه.

خرج من كهفه المظلم بعد أن واسى نفسه، وغسل قلبه بدموعه حزناً على فقد خيرات الدنيا المتجسدة في إنسان، إنسان واحد عن العالمين، خرج والتردد الذي كان، أصبح إصراراً لا بديل له، حفر وأخرج غضبه وضيقه،

وكَبَدٍ على الأرض التي يدوسها، التي يرجو أن ينزل في جوفها، ولا يطمح للخروج منها، ممكن أن تكون نهايته هنا، ولا يرى النور بعدها، كم تمنى أن تنتهي حياته في حينه، الألم الذي انتشر في جسدٍ لا يتناقص، بل يزيد في كل وهلة، يأكل أحشاءه ويُدمي قلبه، (ريكي) وهو يمسح دموعه: ماذا يخفي لي القدر من نكبات أكثر من ذلك؟!

في الأسبوع الثالث أزاح التراب من الفتحة التي تسمح بمرور جسدٍ من خلالها والمصباح الزيتي بيدٍ والمطرقة بيدٍ الأخرى، صرف الرجال إلى غرفهم للراحة على أن يتركوه وحدهُ، دخل الغرفة الخرسانية ووقف مقابل الطاولة التي حملت على ظهرها كنز الكنوز، رفع المطرقة ثم هوى بها على القفل الحديدي بكامل غضبه، رماها ثم فتح الصندوق لينظر إلى هذا اللون الدموي، الأحمر البراق.. «حجر الفلاسفة» بين يديه، ضمه إلى صدره، وكان يتخيل حبيبته وابنيه مكان الحجر.

خرج من الحفرة مع إبلاغ الرجال بترميمها مع الحذر حين إرجاع حجر الأساس، ومن بعدها الإسراع بتجهيز الزينة المطلوبة لإقامة حفل زفافه من عروسه.. عروسه التي لم يعمل حسابها!، ولذلك لا يوجد جريمة كاملة فعقول البشر محدودة التفكير، وإن كانت من زمرة العباقرة.

ولم يكن من العسير أن يجدوا عروساً إسبانية في مصر، خصوصاً علماء الآثار المنتشرين حول القبور الفرعونية للتحليل وتسجيل اكتشاف جديد في صفحات التاريخ، وكيف لها أن تقبل دور عروس في مسرحيتهم ؟!، المال بالتأكيد هو الذي يلين الحديد أكثر من دك المطارق على السندان.

بعد أسبوع من التجهيزات وأعمال الزينة التي من المفترض أن تأخذ شهراً، أقاموا حفل الزفاف على أكمل وجه مع دعوة أعيان البلد وزوجاتهم اللاتي انبهرن من الحفل الذي تأطر بحكايات ألف ليلة وليلة، ابتداءً من القلعة وحتى الأزياء الأندلسية ومأدبة الطعام.
ركبوا البحر إلى وجهتهم الأخيرة، أرض التحديات التي من المحتمل أن تكون أرض الخلود، إذا استطاع «ريكي» الذي يُقلّب الحجر بين يديه وهو في مقصورة الركاب، ويفكر بعمق لتحليل اللغز الذي استطاع أن يفك فقط العنصر الأول من عناصره الثلاثة «سحر، ترس، ألم».
سمع همسة، وشعر بزفيرها الحار بين تجويف أذنه: أنت المفتاح، نظر مباشرة لمصدر الهمس وإذ «بالكيان» الذي ظهر له بالسابق وكانت ذراته تختفي في الأفق..

رجع وقَلّب الحجر بين يديه محدثاً نفسه: إن كان من ذرات هذا الحجر يمكن أن نحول الرصاص إلى ذهب وبكميات كبيرة جدّاً، والذرات أنفسها يمكن أن يحولها الخيميائي إلى إكسير الحياة الذي تكلم عنه الكثير من الأساطير فما دخله في «ساعة الخلود»؟

تواتر شروق الشمس وغيابها لعدة أيام مليئة بالعصف الذهني فيما بين السماء ومائها، إلى أن وصل «ريكي» إلى اليابسة التي سار عليها متجهاً إلى «والده» لعله يملك فكرة تلهمه في الخطوة القادمة، وصل إلى مشارف المنزل وهنا شعر بقبضة عصرت قلبه، كان المنزل مليئاً بالزائرين الذين يدخلون ويخرجون بتواتر، بثيابهم المظلمة، ووجوههم المكفهرة، ودموعهم الزاخرة، هرول لينظر من فَقَد هذه المرة!

أبعد الباب الذي كان مواربا، ودخل وكانت جميع جوارحه تمنعه من الدخول، بتناقض من كان يريد أن يعرف، وفي الوقت نفسه لا يريد أن يعرف الفاجعة التي سوف تفطر قلبه، نظر في الأنحاء وإذ بـ «سيزار» يقف خلف الكنب، ويمسح على أكتاف أحدهم، فقال في نفسه: حمداً للرب أخي بخير، أين والدي؟

تقدم أكثر ليجد يديْ «سيزار» على كتفي والده، الذي كان يمسح دموعه، فقال (ريكي) مع ارتجافة شفتيه: اللعنة، يا ليتك كنت أنت وليس هي!، تيقن من هوية الميت، وما زاد يقينه هو النظر إلى غرفة المعيشة التي احتوت تابوتاً مفتوحاً وبجانبه صورة «لوالدته» وعليها شريطة سوداء.

فقال (ريكي) والدموع معلقة برمشيه الكثيفين: لماذا لم تنتظري قليلاً، كنت أريدك معي من الخالدين، لا حنان في هذه الدنيا كحنانك، ولا دواء لهمّي إلا يداك وحِجرك، هل تعوضني عنك زوجة؟! فهذا ضرب من المستحيل، لأنك تعطينني من نفسك دون مقابل، تشعرين بألمي دون أن أنطق، تشاركينني السعادة دون أن تعرفي سبب سعادتي، لا حنان لي من بعدك يا.. أمي.

وضع (سيزار) يده على كتف أخيه الأكبر، وهو يمسح دموعه: طريق لا بد لنا أن نسلكه جميعنا يوماً من الأيام، فهذا الداء الذي ليس له دواء فلا خالد في الحياة.. سكت (سيزار) لثوانٍ ثم أردف: اذهب إلى غرفتك، لديك زائر كان يتوقع حضورك.

الباب الثامن والعشرون

(مواجهة بين الكيان والطيف)

(كلنا أشرار، وتظهر شخصيتك الأخرى فقط، عندما يغيب النور..)

فتح «ريكي» باب غرفته، ووجد فيها آخر شخص يتوقعه، لم تتمالك نفسها، وسحبته من ملابسه ليدخل الغرفة مع إغلاق الباب خلفهما، ثم رمته في محيطها، في جُبّها، في حنانها، فصاح بالآهات المؤلمة، مع الأنين الذي يدمي القلب، (فلوريا): ابكِ، ابكِ يا صغيري، أنا أمك، وأنا زوجتك، وأنا صديقتك وطفلتك والدنيا كلها أنا.. ناح وأخرج الكدر من خاطره، الخاطر الذي انكسر إلى ذرات صغيرة لا يمكن ترميمها، رحل من كان ظهره وقلبه، معلمه ووالدته، ووَفاتُهما أثقل من الجبال على كتفيه، حِمل لا يطيقه.. لكن هل من حيلة؟ قالتها (فلوريا)، وأردفت: اصبر وسوف تنسى يا حبيبي، وأنا العوض الجميل.

جلسا على طرف السرير والأيادي مشبوكة بعضها ببعض، مسحت (فلوريا) دموعه بكف يدها ثم قالت: لقد كبرت يا حبيبي، وغدوت أجمل من ذي قبل، أجزم أن الفتيات يتلهفن عليك، ابتسم (ريكي) مرغماً: أحبك وما زلت أراك فتيات العالم أجمع، لا أريد غيرك، ولا أريد حياة إلا معك، (فلوريا): أخبرني بكل شيء وماذا توصلت إليه، بسرعة كي لا يلاحظ أهلي غيابي، أخبرها «ريكي» بحكايته كاملة وحجر الفلاسفة بين يديه،

لكن ما بدل حال (فلوريا) من الصدر الحنون إلى الوحش الكاسر هو الزواج الذي تم في قلعة قايتباي وإن كان خدعة: أقمت حفل زفاف؟، والعروس ليست «فلوريا» يا أحمق، وضربته على كتفه بشدة.
ابتسم «ريكي» الذي تذكر هذه الضربة التي كانت تعاتبه بها، ما زالت طفلته، وإن أجبرها الزمن أن تكبر، (ريكي): قبل أن نتكلم عن الحجر، لدي أمر آخر، لماذا نقضت العهد؟، أنزلت (فلوريا) رأسها وفهمت ما يرمي إليه: لم أعد أتحمل أن أرى ابني ينهار ولا أحرك ساكناً، تعلم أنني أسوّي الجبال بالأرض لأجلك وأبنائي، (ريكي): لكن ما فعلته، قد عقّد الأمور أكثر من ذي قبل، ولم يكن هذا الاتفاق، (فلوريا): لا يهمني العهد ولا الاتفاق إذا كان فيه خسارة ابني.
(ريكي): قد تقابل طيفانا عندما طبّق الإسقاط مصادفة، وأحمد الرب أنني أول المستقبلين له في هذا العالم الجديد، قد ورث مني الإسقاط النجمي، ويكاد أن يساويني في الدرجة، ولكنني إلى الآن الأقوى.. ومن بعد وفاة المعلم الأكبر «تشانغ» لا يوجد قوة تجاري درجتي من الإسقاط النجمي، (فلوريا): وماذا عن «أريان» هل أرشدته إلى الاستخدام الصائب لها؟،

(ريكي): نعم، لكن لم أعطه الوقت الكافي لكي أنقل له خبرتي، فقد حاز لغز الساعة على جل اهتمامي.

(فلوريا): قد ساءت حالته من شدة الكلمات التي كانت تثقب قلبه، وأصبح عند الجميع «اللقيط» مما أبدل حال صغيري من الحلم إلى الطغيان، قد زادت مشكلاته مع الباعة والمشترين وحتى فتيان الحي لم يسلموا من هجماته القاسية.. ولا يسكن هذا الغضب إلا عندما يعلم من هما والداه وما هي حكايته، فرحلت إلى المزرعة من بعد أن وصل إلى مسامعي خبر ضيقه عن طريق «لاتويا»، وجلست معه لكي أخبره بالحكاية كاملة، وما أذهلني هو ردة فعله مما سمع.

أردفت (فلوريا) والدموع أردفت معها: لم يعاتب ولا حتى غضب، بل قام من مكانه، واحتضنني بكل ما أوتي من قوة، وبادلته هذا الحضن الذي لطالما اشتقت له، والآن يحمل سرنا أحد ابنينا على أن يحكيه لأبنائه من بعدنا، ويخلد قصة الحب التي دمرها العرف.

(ريكي): أتضمنين سكوته في الوقت الراهن؟، (فلوريا): طالما يستقبل رسائلي المليئة بالحب، نعم أضمن، (ريكي): في آخر لقاء بطيفينا، لم يقل لي يا سيدي، بل قال لي يا أبي..

حينها كاد قلبي أن يخرج من مكانه، لكنني تماسكت ولم أبين له أي شيء قبل أن أفهم منك كل ما حدث وأعلم تمام اليقين أنك أنت من أخبره.
(فلوريا): يجب أن أرحل الآن، لكن في ختام الموضوع، إن ما تحمله بين يديك هو الحجر الذي يطمح أن يملكه الملك والمعتر، احذر أن يعلم بأمره أحد، قَلّب (ريكي) الحجر بين يديه: لن يعلم أحد بأمره، لكنني أرهقت من شدة التفكير، ولم أجد الإجابة بعد، (فلوريا): الإجابة بين يديك يا حبيبي، (ريكي): كيف؟، (فلوريا) وهي تهم بالخروج: ألم يكن اللغز «سحر، ترس، ألم»؟، (ريكي): بلى!، (فلوريا): حجر الفلاسفة هو إكسير الحياة أي إنه هو الخلود، بمعنىً آخر هو الترس بعينه وقطعة الساعة الأخيرة.. المتبقي الآن هو الألم!
لثمت «فلوريا» شفتيه بقوة، ثم خرجت من غرفته و(ريكي) فاغرٌ فاه؛ مما وقع على مسامعه، ثم قال محدثاً نفسه: الحجر هو الترس!، ثم كررها أكثر من مرة وهو يجوب الغرفة ذهاباً وإياباً: إن كانت التروس من حديد، فلا بأس أن تكملها بحجر إن كان مصقولاً بعناية.. سمع نداء «سيزار» فقام ولحق بعائلته لكي يتمم مراسيم الجنازة والدفن في مقابر برشلونة.

في الليل والقمر الذي أطل من نافذته ليشاركه أحزانه، فتح «ريكي» مخطوطاته وبناءً على المقاسات التي كان قد رسمها بدقة مسبقاً، بدأ ينحت في الحجر مع الحرص الشديد على القطع المتناثرة منه، وذلك لشيء آخر في نفسه.

مطلع سنة ١٩٤١م، كان «ريكي» يسير بين طرقات برشلونة التي ينيرها خطوط فجر لاحت في الأفق، إلى أن وصل لقصر يحيطه الظلام، رغم شعاع الشمس الذي بدأ يخترق الغيوم، تأمل القصر جيداً محاولاً أن يجد لوناً غير الرمادي والأسود، لكنه لم يفلح، لكن هناك حركة في النافذة العليا، وكأن أحداً يراقبه خلسةً من خلف النافذة، تحركت قدمه فقادته إلى طريق الغابة التي سرقت الألوان من القصر وباتت هنا، ورود بجميع الألوان والزرع الأخضر مع نسمات الهواء العليل وشعاع يداعب الوجه، ويضيب الجسد بقشعريرة محببة للنفس، فتساءل في نفسه: إلى متى سوف تصمد ألوانها يا ترى؟!

ها هو «فندق كازاميلا» ظهر في نهاية الطريق شامخاً جميلاً باهراً، وصل «ريكي» عند مدخل الفندق الخارجي، وهو يتأمل أدق التفاصيل التي خلبت لبه، كما كان يراها في غيبوبته، النافورة التي احتوت على التماثيل السريالية، وهناك التمثال الذي يمثل وجه امرأة يخرج من رأسها

كفان تسعيان جاهدتين إلى أن تفتحا رأسها، فقال في نفسه: الكيان وشياطينه التي تسكنه!.
أكمل طريقه وسط صوت الماء المنهمر من النافورة، إلى أن وصل بجانب التمثال الذي أثار حفيظته، وكأن التمثال الكبير للجالس على عرشه يشبهه!، أكمل طريقه إلى الباب ذي العيون المنحوتة ببراعة، توقف فجأة وكأنه شعر أن إحدى تلك العيون قد تحركت لتنظر إليه!

رفع شعره للأعلى ورتب هندامه، ثم أكمل طريقه إلى الداخل وقادته قدماه مقابل الساعة، برقت عيناه وكأنه التقى معشوقته التي لطالما اشتاق إليها، أطال النظرة الدقيقة على جميع تفاصيلها، ثم رحل إلى الزجاج الذي تقع خلفه التروس المتحركة بعضها مع بعض، إلى أن دلته المخطوطات المحفوظة برأسه على المكان المطلوب، ابتسم منتصراً، هنا مكان الترس المفقود، مفتاح التشغيل، ولن تكون «ساعة الخلود» إلا مع ترسي.
ظهر (موظف الاستقبال) من خلفه: تفضل يا سيدي، هل من خدمة أقدمها لك؟، التف (ريكي) ليواجهه: نعم، أريد أن أجتمع مع محامي «عائلة دامبيير» من فضلك، وأعتقد أن لديهم علماً بوصولي،

(موظف الاستقبال): هل لي أن أحصل على اسمك يا سيدي؟، (ريكي): المعذرة لم أعرف عن نفسي «ريكاردو بوربون»، سمع (موظف الاستقبال) الاسم، فتبدل حاله، قائلاً: أهلاً بك يا سيد ريكاردو، كنا نتوقع وصولك منذ زمن، تفضل بالجلوس إلى حين استدعاء المحامي.

بعد جهد جهيد اكتمل نحت الترس ليكون بالحجم المطلوب لإتمام صنع الساعة، وبذلك لم يتبق إلّا الألم، وهل هناك ألم أكثر مما يتدفق من العالم إلى داخل قلبه؟!، منذ نعومة أظفاره وهو يعيش الألم، وإن حدث وشعر بسعادة، يعلم بقرارة نفسه أنها سعادة مؤقتة في هذا الألم الدائم.

هل يضع الترس الآن، ويجعل الساعة تعمل ليجرب نجاح إنجازه؟، لكن سنوات عمره وأبحاثه والأهم من هذا وذاك هو الهدف من هذا كله أي «فلوريا» وابناه، سوف يذهب الجهد والمكسب لملاك الفندق وليس له.. بل عليه أن يحصل على الفندق والساعة ليكون هو المالك أو بمعنىً آخر ملك الخلود، يختار من يعيش ومن يموت.

لكن قبل المضي قدماً للفندق، عليه أن يزيد ثروته لكيلا يكون المال عائقاً بعد ذلك، رغم الكنوز التي حصل عليها، هناك كنز أعظم منها..
دخل «ريكي» في مرحلة الإسقاط ليرحل إلى «الشيخ الأبيض» الذي ما زال يسير على خطا العرف وقانون السجلات وهو الحياد.. مع علمه بأن «ريكي» قد رجحت كفته التي كان يخشاها، وما هي إلا ومضات من الزمن، ويمس الغضب الذي بداخله، جميع من حوله.
كان سؤالاً واحداً: كيف لي أن أحول ذرات حجر الفلاسفة إلى ذهب؟، وما هي إلا ثوان، وكان أحد شيوخ السجلات مقابل «ريكي» وينقل له المعرفة المطلوبة، ليعود إلى جسده مع غنيمة جديدة تقربه من بلوغ الهدف المنشود.
استخدم منزل «والده» ليكون حقل تجارب مليئاً بالقوارير الزجاجية المتصلة بعضها ببعض بخراطيم تنتهي بقارورة زجاجية ضخمة، هل يوجد من يمنعه؟، بالطبع لا، لأن أباه قد وصل إلى آخر مراحل العمر، وقد وهن جسده، وذهب عقله فأصبح في المستشفى تحت عين «سيزار» الذي قلما يأتي للمنزل بسبب استخدام العمل للنسيان، نسيان آلامه التي أثقلت كاهله، ولا أظنه سوف ينجح، لأن الذكريات سوف تحاربه حتى الرمق الأخير.

واصل أعماله دون كلل أو ملل، قلل المعايير ثم زادها، قلب المعادلات ثم عدلها.. بوادر النجاح بدأت تظهر في الأسبوع الثاني، إلى أن أنجز المطلوب بعد شهرين ونيف، خرج من كهفه ينفض غبار الوحدة بعد الانتصار، لتحقيق مرحلة من مراحل بلوغ الغايات، رفع رأسه في الأفق لينظر إلى الهدف.. «فلوريا» التي نصبت عينيها عليه وهي ترسل ذبذبات قلبها الذي يحمل جبلاً من الأسئلة والكلمات التي تنتهي بـ. اشتقت إليك.

لم يكن انتظاراً طويلاً، لأنه كان يجلس في بهو الفندق وعينه على الساعة، يقاوم كل جوارحه لكيلا يضع مفتاح الانطلاق، فهو بحاجة إلى إمتاع ناظريه بالتروس التي تدفع بعضها بعضاً بغرض تحريك عقربين مهمتهما الوحيدة هي جعلنا نشيخ لكي نصل إلى خط النهاية في هذه الحياة المليئة بالسموم، لكن ليسا هذين العقربين.
دخل «المحامي» ولا أحد يخطئ هيئته، وزّع أنظاره فلوّح له «ريكي»، اتجه المحامي إليه مصافحاً بحرارة، ثم دخل معه إلى غرفة مدير الفندق وأغلق الباب، (المحامي): تفضل يا سيدي، بماذا أخدمك؟،

ابتسم (ريكي) قائلاً: أظنك تعلم لماذا أنا هنا من الأساس، (المحامي): لا أريد أن أستعجل الأمور، أحب أن أسمع منك أولاً، (ريكي): حسناً، أنا هنا لشراء الفندق، (المحامي): موافقون على بيعك بشرط، (ريكي): لا شرط بيننا، (المحامي): تجَمَّل بالحلم يا سيد ريكاردو، شرطنا هو أن نبيعك ٥٠٪ من حصة الفندق على أن نشاركك الأرباح والإدارة، ولا أظنك سوف تجد صفقة أفضل من ذلك، (ريكي) بعد سكوت، نطق بكل ثقة: لا شرط بيننا، إما أن أمتلك الفندق كله.. وإما لا مفتاح لكم عندي!

صعق (المحامي) من بأس غريمه: دعني أرجع إلى المالك وأجيبك في القريب العاجل، (ريكي): لك ذلك..

لم يكمل جملته؛ لأن هناك من طرق الباب طلباً (للمحامي)، الذي خرج وعاد بعد دقائق وعلامات الإحراج مرسومة على وجهه: تفضل يا سيدي هذا عقد البيع والموافقة على تسليمك الفندق خلال شهر من الآن، على أن تسلم المبلغ المتفق عليه بنفسك في «قصر دامبيير» الليلة، وفي ذلك الوقت سوف يوقع الطرفان على عقد البيع.

خرج «المحامي» بجبين مندّىً، ومسك «ريكي» عقد البيع ليقرأه وعلامات الانتصار بانت من ابتسامته التي أظهرت خطوط السعادة حول عينيه المكحولتين.. خرج من بهو الفندق، وهو ينظر إلى المبنى الذي سوف يمتلكه بعد ساعات، لكن ما أسعده أكثر هي الساعة التي نظر إليها نظرة الوداع القصير على أمل اللقاء في القريب العاجل.

اخترق باب القصر، فدخل وسط الظلام يبحث في الأنحاء عن أي حركة، لكن دون جدوى، تحرك في أنحاء القصر من الطابق الأرضي إلى آخر طابق، ولم يجد ما يبحث عنه، لكن عندما همّ بالخروج، اشتعل عود ثقاب في ركن غرفة المعيشة الضخمة، ومن ثمة ظهر صوت احتراق فتيل الشمعة اليتيمة على الطاولة الجانبية، نورها يجاهد لمحاربة الظلام المحيط، لكن سطوة الظلام كانت أقوى.

تقدم إلى النور ليجد كيان الظلام ملتحف العباءة السوداء، ولكن هذه المرة ظهرت قدماها.. قدما (ميلا) التي كانت تنتعل حذاء أحمر ذا كعب طويل، وتضع رجلاً على رجل، قربت الشمعة من وجهها المظلم، فظهرت شفتاها المصبوغتان بالحُمرة، لم تكشف وجهها، لكن كشفت ما يظهر أنوثتها: لم تأتِ ببدنك، بل بطيفك!، يا ترى، هل أنا إلى هذه الدرجة مرعبة؟!

(ريكي): «ميلاني دامبيير»، أخيراً، الحرص واجب، أريد الأمان، (ميلا): بل ميلا، ميلاني، ميلينا، مجرد اسم وقصة لكل زمن.. وكلهن كيان واحد، ولك الأمان، (ريكي): الضمان؟، (ميلا): أستطيع أن أعصر رقبة «فلوريا، وماثيو، وأريان» وأنا في جلستي هذه دون أن أتحرك قدر أنملة، أيكفي هذا الضمان؟، (ريكي): لا يكفي، رحل الطيف وبعد دقائق دفع «ريكي» بخفة باب القصر الداخلي الذي كان مواربا، فتسابقت الأصوات ما بين خطاه وصرير الباب، أيها يسبح بالأفق أولاً، مخلِّفَةً إزعاجاً متبوعاً بصدىً، دمر لحظة السكون في في أروقة القصر.. المرعب!

وصل (ريكي) ثم جلس بثقة واضعاً رجلاً على رجل: بل الضمان هو الترس، وقوة الإسقاط كذلك، لا تستطيعين لمس شعرة من أحدهم، بل التبتيون سيكونون أسرع في عصر رقبة من يقترب فرسخاً منهم.. (ميلا) بابتسامة ظهرت من خلف الشمعة دون وجهها: أنت هنا لتجادل أم لتنهي الصفقة؟، أخرج (ريكي) العقد ثم وضعه على الطاولة، وأخرج معه المحبرة التي غطس بها إبهامه: هناك صندوق بجانب الباب مليء بالسبائك التي تفوق سعر الفندق بأضعاف مضاعفة، وضع إبهامه على طرف العقد، فنزلت قطرة دم من الأفق على الطرف

الآخر من العقد، فوضعت «ميلا» إبهامها، لتنتهي الصفقة ويعم الهدوء على المكان من جديد، فقالت (الأخرى): سوف نلتقي من جديد، في هذه الحياة أو حياة أخرى.. ربما!، انطفأ لهيب الشمعة، وتلاشت «ميلا» تزامناً مع خيط الدخان الذي صعد إلى الأفق.

الباب التاسع والعشرون

(شيطانة الموتى)

(العضو إذا أصبح أسودَ، لا بد من بتره..)

فندق كازاميلا ومالكه «ريكاردو بوربون» في سنة ١٩٤١م:

استلقى على السرير من بعد الحرب النفسية التي خاضها طوال تلك السنوات التي حاول أن يفك الألغاز فيها، وما زال في بداية الطريق نحو هدفه، هل ينزل جفنه لإعطاء النوم فرصة لترميم ذهنه؟، هناك طنين في رأسه لا يتوقف، هناك جاذبية، بل نداء من الساعة، «ساعة الخلود».

أبدل ملابسه على عجالة للرحيل إلى «فندق كازاميلا» واللهفة تسبقه إلى مسعاه، وصل وطرق الباب على «الحارس» الجديد المسن كذلك، لماذا لهذه الوظيفة دائماً رجل مسن؟، مع أنها تحتاج إلى رجل فتيّ قوي يحرس المكان من الغرباء والضرر الذي يمكن أن يلحق الأذى بالفندق؟!، وما زال عقله يحلل كل شيء يراه أمامه، وكان هذا أحد التغييرات التي يجب أن يجريها في أملاكه.

فتح «الحارس» الباب مرحباً بسيده الجديد، دخل ولم يرد التحية إلى أن وصل إلى بهو الفندق، ووقف مقابل الساعة ذات العقارب الميتة، لم يكن هناك أحد يمكن أن يفسد متعة البداية، أخرج الترس من جيبه، وأزاح الخرقة الملفوفة عليه، فتح باب الزجاج الذي يستر التروس المتعاضدة، وأدخل ذراعه ليركب آخر قطعة من الأحجية.. اكتملت الصورة.

لحظة.. لم يكن هناك مطر في الخارج، مال الطقس، وقد انقلب حاله!، زأر هزيم الرعد بملء فمه، كعرندس قد أفاق من سبات السنين، اشتعلت الأنوار خارج الفندق وكأن النهار قد قرر أن يتلبس الليل، بل هي ومضات البرق التي رسمت الشروخ المنيرة في صفحة السماء، لم يبال «ريكي» بالهدوء كله الذي ابتلعه الصخب، وقادته خطواته إلى عمود الساعة، لينظر إلى ولادة عقربين لكل واحد منهما لدغة تعطي الموت.. حياة.

تساءل في خلده: الآن ماذا؟، الألم؟ هو آخر حلقة بسلسلة اللغز، ألا تكفي آلامي التي أصبحت كالخسيف الذي ترسب به آلام البشر جميعها؟!، كيف لي أن أجربها؟، خرج وسط المياه المنهمرة من السماء والنافورة التي توسطت حديقة الفندق، يجر انتصاره من خلفه، لكن انتصاراً غير مكتمل، عملت الساعة لكن ما هي الخطوة القادمة لتجربة الخلود؟!، سأل نفسه: الآن وقد عملت الساعة، أذهب لأنام؟، وكيف لي أن أنام ولم أنجز الهدف بعد!

جلس على جذع شجرة مبلل، يفكر ويقلب الموازين لعله يجد ما ينير بصيرته، وبصيرته من بعد تفكير دلته على من يستحق الموت ولا أسف عليه، الفرقة الزرقاء :

فرقة مكونة من قتلة مأجورين ومحكومين بالإعدام، جُنِّدُوا لينضموا إلى جيش هتلر الألماني، لم تكن الدولة تريد أن تضحي بجيشها، لذلك اخترعت تلك الفرقة لتكون من صفوف المقتحمين على الاتحاد السوفييتي، لأنهم بالأحوال كلها ميتون ولا حاجة إلى الدولة بهم، لكن بتلك الحالة سيكونون ذوي منفعة لإسكات المرعب «هتلر».

رحل للمنزل، وحاول تنظيم دقات قلبه وأنفاسه الحارة، لكن دون جدوى، فكان غول النوم أقوى من بأسه.. استسلم له أخيراً وتغلغل في عالم الأحلام، العالم الوحيد الذي يعيش فيه بطبيعته البشرية، عالم يحتوي على منزل و«فلوريا» تطبخ ألذ المأكولات، وأولاده المشاغبون يلعبون من حوله لتشتيت انتباهه عن مطالعة أهم الأنباء من صحيفته التي يختبئ خلفها.

لن تدوم الحياة بهذا المنزل، لأن الجفن انفتح على الواقع المر، فهذه الحياة خُلقنا بها وسط وحل الوصب، فهيا لنغطس في وحلها.. بعد أن استعاد نشاطه، وشحذ نصول طاقته من النوم الذي كان يتوق إليه لأيام متتالية.. سحب كمية من الهواء وزفره حارّاً ليخرج طيفه من جسده، ويضطدم بالذي أمامه، (ريكي): ماذا تفعل هنا؟،

(أريان): لا شيء، كنت أزوركم فقط، (ريكي): لا أعلم لماذا كلما رأيتك تذكرت والدي؟!، أظنك قد ورثت منه تبلد المشاعر، لا يظهر على وجهك أي تعبير، ألم تشتقْ إلى والدك؟، (أريان): والدي؟!، (ريكي): نعم، أعلم بكل شيء، وما دار بينك وبينها، (أريان): أنا راحل الآن يا ريكي، أراك على خير، (ريكي): بل والدك يا أحمق، هيا بنا، أريدك في أمر ما.

رحلا إلى معسكر الفرقة الزرقاء في «فالنسيا» في جزئها الساحلي، وهما في الطريق تجاذبا أطراف الحديث، (أريان): ريكي ما قصة الساعة؟، (ريكي) بامتعاض: لن أجيبك، (أريان): حسناً لم أعتد عليها بعد، أبي.. ما قصة الساعة؟!، (ريكي): كل ما يمكنني أن أخبرك به، أنها ما سوف يجمعنا في مكان واحد، (أريان): لم أفهم، لم ينطق «ريكي» وأكملا طريقهما إلى وجهتهما.

(ريكي): أريدك أن تراقب تحركات جنود الفرقة الزرقاء جيداً، وأهم ما في هذه المراقبة هو اقتناص الفرصة لخطف أحدهم، تهللت أسارير (أريان): لك ذلك، لكن لماذا؟، (ريكي): من أجل تفعيل الساعة، سوف تعرف كل شيء فيما بعد، ألتقيك غداً لكي تعطيني الأخبار.. رحل «ريكي» ليستفيد من المتبقي من طاقته في الإسقاط، فقد اشتاق قلبه إلى نبضه.

رحل إلى منزل «آل فيرنانديز» وبحث في الأرجاء عمن ينبض القلب لأجلها، فكانت تغتسل في الحمام، ولفت انتباهه أحمر الشفاه المخطوط على المرآة..: قريباً سوف نلتقي وتعود بين أحضاني إلى الجسد الذي صنعك، يا ثلث قلبي، قريباً سوف تنام في حجري وأنا أداعب شعرك بأناملي، أحبك..

ابتسم «ريكي» وعلم لماذا كان «أريان» في الأنحاء، لأن «فلوريا» الشقية وجدت من تغدق عليه فوج الرسائل، إما ملفوفة بكرات الصوف وإما مكتوبة بأحمر الشفاه، رجع طيفه إلى المنزل، وقبل أن يتجه إلى جسده وجد طيفين من كهنة التبت في انتظاره، (ريكي): هل هناك خطب؟، (الكاهن): نقرئك السلام من معلمنا الكبير، ونوصل لك كلماته، (ريكي): تفضل، (الكاهن): أوقف ما أنت مقدم عليه فوراً، وارجع إلى الكهنوتية لتستلم منصبك الجديد، (ريكي): لن أقف، ولا أريد مناصب، (الكاهن): نحن دعاة سلام، لكن إذا نبع الشر بسبب علمنا الذي نهلت منه فسوف نكون لك بالمرصاد، (ريكي) وهو يتوجه إلى جسده: افعلوا ما شئتم، فإنكم بالنهاية دعاة سلام، ولن تفعلوا خلاف مبدئكم.

في اليوم التالي اتجه طيف «ريكي» إلى مزرعة الأعناب في «فالنسيا» ليجد جسد «أريان» في وضعية الإسقاط بحث عن طيفه في الغرفة ولم يجده، وقبل أن يغادر المكان، فتح (أريان) عينيه في جسده المادي، وقال: أبي، جحظت عينا (ريكي) حتى كادتا أن تسقطا من محجريهما: كيف.. كيف تراني دون طيفك؟، (أريان): أرجوك لا تغضب، كنت أراك دائماً عندما تزورني بين الفينة والأخرى، وبدأ ذلك من بعد أول إسقاط حدث معي، والتقيتك حينها.. فقال (ريكي) محدثاً نفسه: هالته بالفعل أقوى من هالتي التي كانت الأقوى من بين الهالات جميعها!، «هالتي نجمية» ولا شيء فوقها، ما هي هالة ابني؟!

جلس مقابل (أريان) وأخذ منه الأخبار: من الممكن أن تخطف اثنين، وليس واحداً يا أبي، تهللت أسارير (ريكي): كيف؟، (أريان): لأنهم في كل وردية يتغير اثنان منهم ليحرسا البوابة الرئيسة من الخارج، (ريكي): سوف آتيك ببدني انتظرني غداً، (أريان): لماذا؟، (ريكي): لكي نخطف اثنين من الفرقة الزرقاء!، (أريان) بابتسامة شريرة: لا داعي لذلك، إنهما في الدولاب، ثم قام وفتح الدولاب وإذ رجلان بلباسهما العسكري المميز بالأزرق مكتفي الأيدي ومكممي الأفواه.

(ريكي): كيف فعلتها؟!، هي ضربة خاطفة من جسدي الطيفي على النخاع الشوكي مما أفقدهما الوعي، ثم حملتهما بكل بساطة، ووضعتهما في موضعهما هذا، ما زال «ريكي» في عدم فهم لما يحصل من حوله، ما هذه الهالة التي يحملها ولده؟!، لم يستطع أن يكتم ما فيه، فسأل «أريان»: هل تستطيع أن تحملهما لمسافة أبعد؟، (أريان): إلى أين؟، (ريكي): سطح فندق كازاميلا؟، (أريان): لم أجرب من قبل، لكن سوف أحاول ، رحل «أريان» ذو العين المطموسة والشعر الفاحم الطويل، لحمل الجنديين، ورحل «ريكي» ذو العين المكحولة إلى الثقب الأسود، ومنه إلى (الشيخ الأبيض) الذي لم يتغير شكله، ولم تتبدل ابتسامته رغم الطريق الذي سلكه «ريكي»: تعازينا لوفاة فقيديك، ماذا أقدم لك؟، لم يتمالك (ريكي) كلمة حنوناً تحضن قلبه، فتعلقت دمعة برمشه: «أريان»، وما يحيطه من هالة أول مرة أراها في حياتي، وكنت أظن سابقاً، أنني صاحب أقوى هالة بالكون، (الشيخ الأبيض): صحيح ما قلت، «كنت» تملك «الهالة النجمية» الأقوى من الهالات جميعها، أنت ومجموعة من البشر المعدودين، لكن «أريان» هو الأقوى الآن ولا أحد مثل قوته، لأنه أطلق هالة معروفة في سجلاتنا، لكن لم تكن لأحد من قبله، فهو الأول من بين البشر الذي فعّل الهالة الحمراء، «الهالة الأثيرية».

من بعد هذه الصدمة التي تلقاها (ريكي) أكمل أسئلته «للشيخ الأبيض»: هناك نظرية قرأت عنها سابقاً، وأريد أن أتحقق منها، هل من الممكن صنع الألماس من.. في أثناء حديث «ريكي» مع «الشيخ الأبيض»، كان «أريان» يحمل الجنديين إلى سطح الفندق، وقد حملهما بكل هدوء دون أي عناء يُذكر، نزل بطيفه ووقف مقابل الساعة ليتأملها بكمية كبيرة من الأسئلة التي تتدفق من عقله، ظهر (كيان) ملتحف السواد بجانبه قائلاً: ساعة الخلود، من يحصل عليها يعيش أبد الدهر، نظر (أريان) للكيان بدهشة: كيف لك أن تراني؟!، (الكيان): ليس هذا المهم الآن، الأهم أن يكون لك نصيب من هذا الخلود، لا توافق والدك على كل شيء إلا إذا ضمن لك نصيبك في الحياة الأبدية.. فتلاشى «الكيان» عن الوجود، وبعد دقائق من ابتلاع ما سمع «أريان» رحل إلى «فالنسيا» لأن والدته سوف تزوره قريباً.

عندما أزال الستار للنظر إلى القمر المكتمل بدراً في صفحة سمائه، لبس ثيابه وغادر إلى وجهته لتنفيذ أول تجربة، وصل «ريكي» ثم طرق الباب على الحارس الذي كان شخيره تشعر به دابة الأرض من شدة ذبذباته، (ريكي): هل فعلت ما أمرتك به؟، (الحارس) وهو يمسح لعابه: نعم يا سيدي، وضعنا الشراب المنوم في الماء الذي استسقى منه النزلاء جميعهم، الآن الجميع في سبات حتى موظف الاستقبال،

(ريكي): والطلب الآخر؟، (الحارس): وضعت مجموعة التوابيت التي طلبتها في القبو، لكن لماذا تحتاجها يا سيدي؟، (ريكي): أحدها لك إن حشرت أنفك فيما لا يعنيك.. سكت الحارس وأنزل رأسه خوفاً من المالك الجديد وكلماته الحادة.. (ريكي): أكمل نومك، ولا تأتِ إلى بهو الفندق في الأحوال جميعها، قالها وسلمه ظهره ليكمل طريقه إلى العيون الثاقبة المحفورة على الباب التي تنظر نحوه مترقبة للحدث القادم. حمل الجندي الأول، ونزل إلى بهو الفندق، ثم حمل الآخر الذي كان يقاوم، رغم يديه وقدميه المقيدة بإحكام، يريد أن يتحاور.. يسب.. يلعن، لكن فمه كذلك مكمم بشكل مؤقت، لأنه بعد دقائق لن يحتاج إلى الكِمامة، فالموتي لا يستطيعون الكلام بالأحوال كلها، وضعهما مقابل عمود الساعة، ثم أخرج النصل من جيبه، سحب رأس الأول من شعره، وأبرز عروق الرقبة التي كانت تنبض رعباً.

(ريكي): آن الأوان لنرى ما يمكنكما فعله يا عقربيّ، ثم جز رقبة الأول لتتطاير ذرات الدماء في الأنحاء.. فُتح الباب الصغير الذي يعلو الرقم ١٢، وبدأت الأيادي السوداء تتدافع للخروج، تزامناً مع هذا الخروج، نظر «ريكي» إلى العجب، لم يكن الاستسلام في قاموسه أبداً، وأكمل مسيرته مع «أريان» لمدة سنة كاملة إلى أن انتصفوا عام

١٩٤٢م، وكادت الفرقة الزرقاء أن يفنى رجالها بسبب حالات الاختطاف الغريبة التي قررت البلاد أن تضيفها إلى سجل الخونة المنحازين في صف الاتحاد السوفييتي، هل حدث ما كان يتوقعه «ريكي» من بعد أن قتل ما يقارب العشرين جنديّاً؟، إلى الآن لم يظهر شيء يُذكر.

رحل إلى بقعته من الساحل، يفكر بعمق كاد أن يقع في ظلمات عقله هاوياً ينتظر أن يضل إلى قاعه، بلا جدوى.. وهذا ما كان

ينتظره بالتحديد، اليد التي تلمس كتفه في كل مرة، تنسيه تعب الدنيا وكدرها، جميلته ذات النمش (فلوريا): حبيبي ووالدي وطفلي، اشتقت إليك، ما لي أراك مشغول البال دائماً، حتى إنك تمضي من أمام منزلي، ولا تنظر إلى عيني التي ترسل لك مشاعري وحبي؟، نظر إليها «ريكي» فخشع بصره وأنصت قلبه، ثم حكى لها «ريكي» كل شيء بالتفصيل، وأجابته (الأخرى): ألم تقل إن اللغز «سحر، ترس.. ألم»، بالتأكيد إن الألم المطلوب لتفعيل «ساعة الخلود» لم يكن ما تفعله من قتل الجنود، بل أكبر من ذلك، (ريكي): وما هو برأيك؟، (فلوريا): لا أعلم!

إن الإجابة في المستقبل، لم يحصل عليها من «السجلات الأثرية» رغم محاولاته الحثيثة بذلك، ولا حتى من القريب أو البعيد، وأصبح حل المعضلة الأخيرة ضرباً من المستحيل.. زاد من برودة القبو، وتركه على حاله ليناسب وضع الجثث المكدسة في توابيتها، وحاول أن ينسى الأمر إلى أن حدث غير المتوقع..

التحقيق في جريمة قتل عام ١٩٤٤م:

الشرطة تُطوّق فندق كازاميلا مع حبس النزلاء والموظفين إلى أن ينتهي التحقيق، مما أرعب «ريكي» الذي علم أن حياته انتهت منذ أن أبلغه أحد الموظفين بضرورة حضوره لمسرح الجريمة حسب طلب الشرطة، وهو يسير إلى الفندق تخيل أبشع ما يمكن أن يُفعل به وكيف للدولة أن تجعله عبرة لمن لا يعتبر بعد أن قتل الفرقة الزرقاء التي يجب أن تدافع عن اسم بلده.

وصل إلى البهو وقد حسم أمره وسوف يوفر الوقت على المحققين وعلى نفسه بالاعتراف المباشر بالجريمة التي اقترفتها يداه، لكنه تفاجأ من منظر الدماء المتناثرة على العمود والساعة والساطور الأحمر الملقى على الأرض، وهناك لحاف أبيض يستر جثة!، جثة صغيرة.. لم يكن الحضور بسبب الفرقة الزرقاء، بل لأجل جريمة قتل راح ضحيتها طفلة!

تقدم (المحقق) إلى «ريكي» قائلاً: سيد «ريكاردو»، نعتذر لإزعاجك في هذا الوقت، لكن يجب أن تكون موجوداً أثناء التحقيق؛ لأنك تملك هذا الفندق والمدير له، (ريكي): طبعاً يا سيدي، ماذا حصل هنا؟ (المحقق): إنها حفيدة عائلة «بورجيا».. وقبل أن يكمل المحقق سرد الحكاية، نزل «الدكتور دافيد بورجيا» من جناحه وهو بكامل شموخه متقدماً بخطاً واثقة إلى موضع الجثة، نزل على ركبة واحدة، ثم أزال الغطاء عن وجه حفيدته الوحيدة، نظر من كثب، ثم وضع أصبعيه على رقبتها متحسساً النبض الذي توقف إلى الأبد.

قام واقفاً دون مشاعر ظاهرة للمشاهدين، (دافيد بورجيا): ماذا حدث؟، (المحقق): قد قُتلت حفيدتك، بطريقة بشعة، ولم يتحرك لك جفن؟، (دافيد): القلب يبكي، هل تراه؟، (المحقق): سيكون بيننا تحقيق جميل في القريب العاجل.

صعد «ريكي» وسار بجانب الجناح المخصص لعائلة «بورجيا» واخترق أذنه صراخ الثكلى (والدة) الطفلة المقتولة التي كانت تبكي بحرقة وزوجها يحاول أن يسيطر عليها دون جدوى، وسمع ما هيّج كيانه: كيف لك أن تطيع أباك؟!، أعيدوا لي طفلتي، (والآخر) يرد: لا يمكن إعادتها، شر وغادر دون رجعة!

أكمل «المحقق» عمله، وبعد أن انتهى رحل مع التحفظ على مسرح الجريمة بحبل طوّق المكان، وعندما طلب من المستشفى نقل الجثة إلى المشرحة، تقدم (ريكي): سيدي المحقق إن والدتها تحتاجها بقربها، اسمح لها أن ترافق ابنتها لآخر ليلة تجمعهما، اتركها في الفندق، وسوف أخصص إحدى الغرف بدرجة برودة جيدة لكي تناسب وضع الجثة، وهنا تمكنت شِباك العاطفة من عقل «المحقق» الذي وافق على طلب مالك الفندق، والآخر طلب هذا الطلب لشيء في نفسه.

دخل «ريكي» إحدى الغرف، وجلس متأملاً بنية الدخول في الإسقاط، خرج الطيف فوجده أمامه، (ريكي): إلى متى هذا الفضول يا ولد، نكس (أريان) رأسه: أريد أن أعرف لماذا كنت تقتل الجنود، وما سر الساعة وعندما نامت والدتي تركت رفقتها ورحلت لأنظر ماذا تفعل وهل هناك ما يمكنني أن أقدمه لمساعدتك؟، إلى أن حدث ما حدث في الفندق.. (ريكي): وما رأيك؟، (أريان): الشبهات كلها تدور حول الجد «الدكتور دايفيد بورجيا» ومن هنا نبدأ البحث.

رحلا إلى جناح «بورجيا» ليستمعا إلى النقاش الذي كان يتراشق بالشرر، (دايفيد): ستكونين التالية يا امرأة، (والدة الطفلة): لم يكن الاتفاق أن تقتلها، لماذا قتلتها؟، (دايفيد): إنها الشر بعينه، ابنتك مريضة نفسيّاً، بل مختلة عقليّاً، تضرب الأطفال بعنف، تسرق من منازل الجيران عندما تزورهم معك، حرقت منزلين من قبل، بدافع الدعابة والضحك، كادت أن تقتل ابن الجيران عندما دفعته من النافذة، وختاماً هوايتها الغريبة، هواية لا يفعلها إلا المجانين ولا غيرهم، كيف لكم أن تحتملوا وجود علبة زجاجية بغرفتها تحمل بقلبها عيون كل مخلوق يمر بجانب منزلكما؟!، لا كلاب ولا قطط ولا طيور قد سلمت من أصابعها الخاطفة، إن «هايدي» لعنة في عائلة «بورجيا»!

وأثناء بكاء والدة الطفلة «هايدي» وصراخها قهراً على فقدها للأبد، كان (ريكي) يتمتم: «الألم»!

الباب الثلاثون

(رماد الموتى، كنز الأحياء)

(هناك مُراد يصل بالإقناع، وهناك إقناع يصل بالفتنة!)

تكملة أحداث جريمة القتل في عام ١٩٤٤م:

(والدة هايدي) بانفعال والدموع تنهل بغزارة: وهذا لا يسوغ لك قتلها، (دايفيد): بل يسوغ إذا كان آخر اسمها «بورجيا»، لا يمكن أن تحمل اسم العائلة، وتصبح قاتلة إذا كبرت، إنني أمنع الشر من منزلكم بقتلها، وأفضل وقت هو هذا الوقت، وقت الإجازة العائلية وكل ما يتطلبه الأمر قاتل مأجور والقليل من المال الذي يسيل له اللعاب، وكما رزقكما الرب بتلك الشيطانة المجنونة، سوف يرزقكما بخير منها، هيا إلى مخدعكما واصنعا طفلاً جديداً.. لم تحتمل الأم كل هذا الألم، وأخذت تضربهما بكل ما أوتيت من قوة، ومن بعد الضرب قذفت كل ما تلمسه يداها على «دايفيد» وزوجها الذي لم يحرك ساكناً، وكأن التي ماتت ليست ابنته، (ريكي) بعد تفكير وبوادر فرحة لمن أرهقه التفكير: هذا الألم المطلوب؟!

نزل بسرعة إلى الطابق الأرضي نزل بسرعة إلى الطابق الأرضي وتبعه «أريان»، ثم وقفا مقابل الساعة التي لم يتبق لعقربها إلا دقيقتان ليلدغ الرقم ١٢.. انتظار، ترقب، وما زاد التوتر سيقان الساعة المذهّبة التي ترحل إلى اليمين ثم «تك» وتعود إلى اليسار و «تك» أخرى، والعيون تراقب العقرب الذي أصبح أبطأ من السلحفاة..

دقت الساعة ناقوسها معلنة دخول منتصف الليل.. وكذلك أعلنت أمراً آخر.

جلبة، صدح صوتها الصادر من القبو، وكذلك من الغرفة التي احتوت جثة الطفلة المقتولة «هايدي».. رحلا إلى القبو مخترقين الحوائط، لينظرا إلى الجنود الذين قاموا باصطفاف عسكري مسندين ظهورهم على الحائط والكتف بالكتف ينتظرون الأمر العسكري لينفذوا على الفور.. وقف مقابلهم (ريكي) بعجب، فقال: تم تفعيل «الساعة»؟!، (أريان): أبي، بهذه الهيئة سوف يكشفون أمرنا، (ريكي): وماذا تريدني أن أفعل، أن أخبرهم بابتسامة: عودوا إلى توابيتكم؟، فنطق (الجنود) بصوت واحد كاد أن يوقظ الفندق من سكونه: حاضر سيدي.. وعادوا الواحد تلو الآخر إلى توابيتهم دون مناقشة.

تهللت أسارير «أريان» وبالمقابل شعر «ريكي» بقوة غريبة تجتاح جسده مما رأى، صعدا إلى غرفة «هايدي» وما أن دخلا إلا وتوقفت «الأخرى» وكادت أن تنظر خلفها وكأنها شعرت بهما.. رجعا للخارج بسرعة وتسللا للغرفة من أعلاها واتخذ كل واحد منهما ركناً، ليجداها تنط فوق السرير بسرور الأطفال، ورأسها مفتوح من المنتصف بمنظر

مقزز، سكن الطيفان بركنيهما يراقبان المنظر إلى أن قررت الشمس أن ترسل أول شعاع نور إلى الدنيا، حينها رجعت «هايدي» إلى تابوتها، وانتهى بذلك اليوم الأول «لساعة الخلود» مع المحيا الذي تهللت أساريره.

ودع «أريان» الذي رحل لكي يغذي جسده وقبل أن يغادر المكان وقف «ريكي» مقابل الساعة بوجوم، فظهر (الكيان) من العدم قائلاً: أحمق!، لذلك لا يوجد عمل للإنسان كاملٌ، قد فعّلت الساعة بطريقة غير متوقعة، وبالتأكيد بطريقة خاطئة، (ريكي): لماذا؟، (الكيان): لكي تحصل على الخلود، كان من المفترض أن تقتل «فلوريا» مقابل الساعة لتعيش الألم الأعظم في حياتك، وتنهي حياتك بيدك، (ريكي): والآن تخبرينني بذلك؟، (الكيان): كان من المفترض أن تكتشف لغز الألم بنفسك، لكن الآن لا فائدة من هذا كله، فالساعة تفعّلت لكن ليست الساعة المطلوبة، ولن تكون «ساعة الخلود» من الآن فصاعداً، تغير عملها لتكون من منتصف الليل إلى بزوغ الفجر، بدلاً أن تضيف لك سنوات إلى عمرك الحقيقي، ولا حيلة لها غير ذلك، (ريكي): أقبل بهذا.. لتكنْ «ساعة البرزخ» على أن تجمعني بمن أحب، ولو ساعات من كل يوم إلى الأبد!

تبخر «الكيان» وما زال «ريكي» مقابل الساعة في تأمل وتخطيط، رجع إلى جسده وأول ما فعله هو الطلب من موظف الاستقبال إخلاء الفندق، ولو تطلب الأمر إرجاع الأموال ضعفين للنزلاء، لأن هذا الفندق محجوز بالكامل لنزلاء آخرين في القريب العاجل.

بعد أيام من مراجعة المخططات في عقله، خرج طيفه طلباً لمن يجرؤ على فعل المستحيل، ولا يهاب لومة لائم، رحل إلى «أريان» وعندما وصل وجده في حال تأمل وطيفه قد رحل أيضاً إلى أذية العالمين، انتظر إلى أن رجع طيف ولده ليخبره: أريدك في أمر مهم، هل سوف تفعله أم لا؟، (أريان): أنا لها، اطلب واعتبر طلبك قد نُفذ بالفعل.

(ريكي): أريدك أن تنشر شائعة في الأرجاء وأنا بدوري سوف أزيد الحطب على نارك، انشر للنساء أولاً بالحديث معهن في الأسواق بالتالي: «إن هناك حوادث سرقة جثث بسبب اكتشاف فائدة مربحة منها، وهي تحويل رفات الموتي إلى ألماس»، (أريان): وهل هذا حقيقي؟، (ريكي): بالتأكيد، (أريان): سوف أجرب، (ريكي): ركز في المهم يا أحمق، (أريان): حاضر.

(ريكي): وأول جثة أريدك أن تنبش قبرها، وتخطفها من مرقدها هي جثة والدي، (أريان): وأين تريدها؟، (ريكي): أحضرها إلى قبو الفندق، قد صنعت محرقة لتحويل الجثث غير المرحب بها في الفندق إلى رماد يُنثر في أعالي الجبال لترحل حبيباتها مع مهب الريح إلى الفضاء الشاسع، (أريان): لك ما طلبت يا أبي.

وبالفعل نبش «أريان» القبر، وأخرج الجثة؛ وبالتالي رماها في المحرقة، وبالمقابل أقام «ريكي» الدنيا، وأقعدها لكي تكون قضية رأي عام، وكيف لجثث النبلاء أن تُسرق من قبورها، ومع تكرار الحادثة لأكثر من جثة، بدأ «أريان» زرع فتنة أخرى في الأرجاء، «هناك خيميائي استطاع أن يحول رفات الموتي إلى ألماس، ويوجد أم توفيت ابنتها، فحولتها إلى قلادة تلازمها مدى الحياة».. هاج الشارع بهذا الخبر الصادم، وأخذ الناس بدفن موتاهم في الفناء الخلفي لمنازلهم خوفاً من فقدان الجثث وتحويلها إلى حُلي يُحمل على جيد النساء، ثم تباع وتشترى وتوَرث.

وفي خضم الهرج والمرج اللذين أصبحا حديث الشارع الأول، وكيف للأهالي المحافظة على جثث موتاهم من السرقة، وما زاد الأمر غرابة هو إقدام البعض على تجربة العملية التي بالمقابل نجحت بالفعل، على أن يستفيدوا من الجثث بدل دفنها..

وهناك الحدث الذي دعم قضية «ريكي» مصادفةً، عندما سُرِقَت جثة أحد النبلاء وبيعت في السوق السوداء، مما هيج تلك الطبقة المستهدفة منذ بداية الفتنة.

هنا أعلن «ريكي» أن يتبرع بالفندق ليكون مقبرة للنبلاء للمحافظة على جثثهم من التنكيل، هناك من استحسن الفكرة وهناك من مقتها، ومنهم من استنكر قائلاً: كيف له أن يبدل هذا الصرح الجميل إلى مقبرة!، ولا يعلمون أنه لم يدفع أضعاف قيمته إلا لهذا الغرض، ليكون له منزلاً يؤويه وعائلته التي لم يقبل القدر أن يجتمعوا أحياء، فليكن «فندق المقبرة» منزلهم وهم أموات.

حينها أدخل التحسينات على انحناءات المبنى الخارجية لكي يُدخل كمية هواء أكبر في أرجائه بطريقة هندسية عبقرية، لتكون الحوائط أكثر برودة، وأبدل بالأرضيات الرخامَ الدائم البرودة على مدار العام، ليعزز برودة المكان حفاظاً على الجثث التي سوف تُخلّد في جوفه.

أول من دعم الفكرة هي الثكلى التي ماتت ابنتها قبل أن تراها تكبر أمام عينها، لم تتقبل فكرة فقدانها، وإن كانت مشروعاً قاتلاً مختلّاً عقليّاً، فإنها بالنهاية ابنتها من تجري في عروقها دماؤها، من كبرت في بطنها وشربت حليبها، والدة والدة «هايدي» التي انفصلت عن زوجها

وعائلة «بورجيا» بالكامل، كانت أول من قابل «ريكي» في ليلة من الليالي التي أصبحت سعيدة بسبب أول طلب، لنقل النبيل الأول لمقبرة لا تليق إلا بهم، واستحسن «الآخر» الفكرة على أن تنقل وإن كان جثمانها راقداً تلك المدة في قبره، لكن الطقس البارد لا بد أنه حافظ على الجثة من التحلل.

وبالفعل اتجه في اليوم التالي إلى مبنى البلدية لأخذ الموافقات بالإكراه لجعل فندق كازاميلا، مقبرة مخصصة للعائلات النبيلة.. وكان الإكراه عن طريق شبح «أريان» الذي كتب على مرايا المسؤولين عبارات الموافقة على المقبرة وإلا..

وإلا فسوف يكونون أول من يبات في توابيت الفندق، وهل يوجد نقاش مع خوارق ما وراء الطبيعة؟، فقط الأحمق من يفعلها، ومن هنا بدأ أول نقل رسمي من مقابر المدينة إلى فندق المقبرة، تأبين يليق بفتاة نبيلة.. توسط تابوتها العربة السوداء ذات الخيول المظلمة، لتدخل بين ضباب الغابة التي أصبحت «غابة كئيبة» تليق بعربات الجنائز التي تمضي من خلالها، وكآبتها بدأت منذ أن أهملها البشر خوفاً من فكرة المرور بجانب فندق قد أصبح بين ليلة وضحاها.. مقبرة!

وصلوا قبل منتصف الليل إلى (الحارس) المسن، فخرج لهم بفانوسه الزيتي لينظر إلى مستندات موافقة بلدية برشلونة على الدفن في قلب الفندق والدفن هنا ليس تحت التراب، بل بين جدران البرزخ: يجب أن تُوضَع الجثة في الطابق الرابع المخصص لعائلة «بورجيا» والخروج من أسوار الفندق قبل دخول منتصف الليل.

وبالفعل دخلت والدة «هايدي» ووضعت تابوت ابنتها لتعيش روحها بسلام، وذلك بالمحافظة على جثمانها من السرقة، خرجت بين أحضان أهلها الذين ساندوها للمرة الثانية على فراق طفلتها.. أغلقت الأبواب من خلفهم، لتبدأ أول ليالي «هايدي» مع «ساعة البرزخ».

دقت أجراس الساعة التي صدحت في أروقة الفندق معلنة دخول وقت منتصف الليل، وقت إحياء الموتي، وقت حياة جديدة مؤقتة للطفلة «هايدي» التي كان يراقبها طيفان في الخفاء، دفعت باب التابوت بقدميها، ثم قامت ونظرت في الأرجاء نظرة غضب لا تناسبها، ورغم الجرح المخيط على رأسها، ما زالت جميلة المحيا، مصفوفة الضفيرتين، وهناك اللون الأخضر الباهت ما زال مشعّاً من عينيها.

بحثت في الأرجاء، ولم تجد ما يلفت انتباهها في المكان، فقررت الخروج من الغرفة عن طريق تسلق أحد الكراسي، وفتح الباب؛ وبالتالي إلى بهو الفندق، فتذكرت المكان الذي كان يحتويها مع أهلها، بحثت عنهم ولم تجدهم، فنادتهم بأعلى صوتها، ولم يكن هناك من مجيب.

وحدها وسط الظلمات تهيم، هل خاف قلبها الصغير؟، بل الخوف هو الصغير، لأن بها من الشر ما يكفي مدينة.. لعبت في أركان الفندق وأثناء اللعب سمعت صوتاً قادماً من القبو، فتحت الباب بصرير يتعالى في زوايا الفندق، (هايدي) منزلة رأسها وعيناها موجهتان إلى سلم القبو مع نزول حاجبيها بشرر متطاير من وجهها: هااي، أنت الذي تحت، هل تملك عيوناً في وجهك؟، تعال إلى الأعلى أريد أن ألعب معك!

لم تلبث دقائق إلا وسمعت خطوات منتظمة متجهة إلى الأعلى لعدد لا بأس فيه من البشر، اختبأت خلف الباب، ومع ظهور أول جندي بلباسه العسكري الأزرق، كانت «هايدي» له بالمرصاد، ظهرت أمامه وتسلقت على جسده ثم خطفت عينه اليمنى بأناملها الصغيرة، وفرت هاربة وهي تقهقه بكل بهجة.. (طيف ريكي): اللعنة!

استمرت المراقبة لمدة سنة كاملة حتى مطلع عام ١٩٤٥م، وخلالها قرر مدير الفندق أن يستفيد من فترة النهار في كتابة جميع ملاحظاته عن العائلات النبيلة لترتكز بسجلات على رفوف غرفة المدير، سجلات بمثابة جدول أعمال للنيل من تلك العائلات، هل سوف تكون «فلوريا» وحدها في برزخها؟، بل يجب أن يكون لها جنود يحمونها، وعائلة أخرى تحتويها، لكيلا تشعر حبيبتي بالوحدة، (ريكي): العالم يموت لكي تعيشي في برزخك سعيدة يا مهجة القلب!

وأول خطة بدأ بتدوينها هي ما سوف يقع للخطيبين «براين لاسيردا»، وقريبته «إزابيل بوربون» اللذين أعلنا خطوبتهما في قرطبة، وسوف يعودان قريباً إلى برشلونة، هل ممكن أن يصلا سالمين إلى منازلهما، وتقام لهما الحفلة المرتقبة، أم جنازة تليق بهما؟!

وهنا تذكر «ريكي» كلمات «الشيخ الأبيض» والطريق الذي أصبح وسطه، هل يلوم نفسه على الشر الذي توغل قلبه، أم يلوم العالم الجشع الظالم على تحويل شاب يحلم بالزواج والاستقرار إلى وحش ذي عقل فذ من فصيلة الإنس.

حان موعد تنفيذ الخطة المرسومة لعصفوري الحب المتسامرين في طريقهما إلى برشلونة، ومن الجانب الآخر «طيف أريان» الذي لا يهاب شيئاً في هذا العالم، وخصوصاً أنه يحمل كل هذا الغضب الدفين من المجتمع الظالم، كحال والده، فتطابقت أهدافهما، واللعنة على الجميع.. وصل إلى مزرعة «أليكسندر فيرنانديز» لاختيار ثور من ثيرانه الجديدة، ثم عصَبَ عينه وربطه ليجره إلى الطريق القريب من المزرعة، ولم يكن الانتظار طويلاً؛ لأن هناك عربة من عربات النبلاء بانت في الأفق ولا تعلم ما هو المصير الذي ينتظرها.

مع اقتراب العربة أكثر فأكثر شعر السائق بوجود كيان على ناصية الطريق ينتظر بترقب، وقبل أن يسحب الحبلين إشارة إلى الخيول للتوقف الاضطراري، كان «ريكي» قد أعطى الإشارة «لأريان» بفك العصابة عن عين الثور وضربه بقوة.

انطلق الثور ليحفر الأرض من تحت أقدامه والدخان المتطاير يخرج من أنفه غضباً على الدنيا بما فيها، وما هي إلا ثوان، وكان قرنا الثور قد هشما رقاب الخيول والعمود الحديدي المتصل بالعربة والعربة كذلك، وقع أرضاً بعد ما أنجز المهمة المطلوبة، وأنفاس الرمق الأخير تخرج من الثور والحصانين بالنهاية نفسها للقاتل والمقتول، والسائق ملقىً على ظهره .

ونافورة دماء متقطعة تخرج من عنقه، اتجه الطيفان إلى الهدف، اللذين كانا داخل مقصورة الركاب، فكان الحبيبان في فراق، ماتت الأنثى مخلفة وعدها لرفيق لرفيق الحياة، والآخر يسحب الأكسجين بصعوبة وكأن هناك لثاماً على فمه، نظر (ريكي) إلى «أريان» قائلاً: لا تجعلها تنتظر خطيبها طويلاً، أومأ الآخر ونزل إلى فم «براين» ليكتمه دون مقاومة «الآخر» الذي ينازع لبقاء روحه في جسده، لكن كان «ريكي» يريده في حياة صمم برزخها بنفسه.

تم عمل جنازة تليق بالخطيبين ليحتفلوا بهما بالعربات السوداء والغربان التي تهيم فوقهما إلى مقبرة الأغنياء، إلى فندق كازاميلا، عوضاً عن الحمامات البيض والمنزل الآمن والحياة السعيدة التي كانت تنتظرهما، فحياة البرزخ أفضل لهما من دنيا الخداع.

من الليل ذي النسيم العليل، والسكون اللطيف للذي تعب في نهاره، وآن له أن يرتاح من عناء الهرولة خلف الرزق، رحل الجميع إلى منازلهم، إلا التي تخلف عنها سائقها الخاص بعد أن تجرع الخمر المعتق الذي قدمه له «مجهول» وغلبه النوم على الناصية، فقررت «الأخرى» أن تسير إلى منزلها في سكون الظلام وهوائه الذي يداعب وجنتيها، ولم تعلم أن الظلام ستر، يستر الظالمين في سواده، يخفي الحقد الدفين تحت قناعه، يعمي البصر عن نوايا البصيرة!

ونافورة دماء متقطعة تخرج من عنقه، اتجه الطيفان إلى الهدف، اللذين كانا داخل مقصورة الركاب، فكان الحبيبان في فراق، ماتت الأنثى مخلفة وعدها لرفيق لرفيق الحياة، والآخر يسحب الأكسجين بصعوبة وكأن هناك لثاماً على فمه، نظر (ريكي) إلى «أريان» قائلاً: لا تجعلها تنتظر خطيبها طويلاً، أومأ الآخر ونزل إلى فم «براين» ليكتمه دون مقاومة «الآخر» الذي ينازع لبقاء روحه في جسده، لكن كان «ريكي» يريده في حياة صمم برزخها بنفسه.

تم عمل جنازة تليق بالخطيبين ليحتفلوا بهما بالعربات السوداء والغربان التي تهيم فوقهما إلى مقبرة الأغنياء، إلى فندق كازاميلا، عوضاً عن الحمامات البيض والمنزل الآمن والحياة السعيدة التي كانت تنتظرهما، فحياة البرزخ أفضل لهما من دنيا الخداع.

من الليل ذي النسيم العليل، والسكون اللطيف للذي تعب في نهاره، وآن له أن يرتاح من عناء الهرولة خلف الرزق، رحل الجميع إلى منازلهم، إلا التي تخلف عنها سائقها الخاص بعد أن تجرع الخمر المعتق الذي قدمه له «مجهول» وغلبه النوم على الناصية، فقررت «الأخرى» أن تسير إلى منزلها في سكون الظلام وهوائه الذي يداعب وجنتيها، ولم تعلم أن الظلام ستر، يستر الظالمين في سواده، يخفي الحقد الدفين تحت قناعه، يعمي البصر عن نوايا البصيرة!

الباب الرابع

(حرب الموت والحياة)

(لا يوجد رابح بعد الحرب فكلا الطرفين.. خسران!)

قفزات زمنية فقيرة:

جسد الإنسان عندما يشعر بالخطر يُفعّل الحواس جميعها للدفاع قبل الهجوم المباغت، وعندما يحدث الهجوم، ويتعرض للإصابة لا يشعر بها إلا إذا هدأت دقات قلبه، فمادة الأدرينالين تطلق الطاقة الكامنة عل وعسى أن يهرب الجسد إلى ملجأ من.. الموت.

ولذلك شعرت «الفتاة» بشيء غريب يستر نفسه في ظلام ظلها، وقفت ونظرت في الأرجاء، لكن خاب ظنها، ولم يخب مسعاه، لأنه بمجرد أن رجعت إلى خطوات مسيرها بالقرب من النقطة المطلوبة من زاوية الزقاق المظلم، زحفت يده بخفة في الهواء من خلفها، إلى أن التفت كالأفعى العاصرة على فمها ورقبتها، ثم حملها كابنته التي اشتاق إليها من بعد طول الغياب، أسند ظهره على حائط الزقاق والظلام يحيط عينيها المفتوحتين على أقصاهما، صرخات مكتومة تخرج من البطن، ولا تتعدى الحنجرة، الفم مكمم والأنف كذلك، احتضنها الموت بشدة من خلفها وعلى بطنها، ضربت بقدمها ويديها بشدة، لكن ليس للنجاة، بل لخروج الروح من قالبها، وما هي إلا دقائق، وأصبحت كدمية قطنية ألزمتها الجاذبية أن تنكس رأسها ويديها للأسفل.. فلا ملجأ اليوم من الموت.

رتب «ريكي» هندامه، وأرجع شعره للخلف، فظهر من قلب الظلام (كيان): «صوفيا دامبير»، ألم تجد إلا أقاربي لتقتلهم؟، نظر إليها (ريكي): وإن استطعت أن أصل إليك فسوف أقتلك أنتِ أيضاً، ضحك (الكيان) ضحكات بعثرت السكون من حولهما: لا أظنك تستطيع، استمتع بالأضعف منك، واختفى «الكيان» كما جاء.. نظر (ريكي) إلى «صوفيا» وقال: فندق المقبرة بأمس الحاجة إليك، لا تتأخري بتشريفه.

أعداد النزلاء بازدياد مُرضٍ، لأن «ريكي» لا يريد أن تشعر حبيبته بالوحدة عندما يحين موعد أجلها، لكن متى هذا الوقت؟!، ومن الجيد أنه لم يحن بعد، لأن «ريكي» واجه معضلة بعد مرور سنة على أعمال جلب نزلاء جدد لفندقه...

في يوم من الأيام دقت ساعة إحياء الموتي في الثانية عشرة بعد منتصف الليل، لكن لم يُفتح تابوت واحد، حتى تابوت لصة الأعين التي كانت أول من يفيق لكي يمارس هوايته الغريبة بقي ساكناً.

جلس في غرفته متأملاً على أمل أن يجد الحلقة التي فُقدت، كانت الأمور تسير على ما يرام إلى أن توقف كل شيء فجأة، خرج طيفه لكي يرحل إلى «أريان» لعله يشاركه العصف الذهني، لكن ما أن خرج طيفه إلا ووجد أمامه (التبتيين): معلمنا الكبير يطلب منك أن تتوقف فوراً، وترجع إلى التبت لتعيش بسلام، وهذا آخر عرض يمكن أن نقدمه لك، لم يولهم انتباهاً، وخرج طيفه إلى لقاء ولده. وصل إلى مزرعة الأعناب ليجد الجميع نائمين إلا من كان في قلبه هم، (ريكي): ما بك، أهناك خطب؟، (أريان): اشتقت إلى أمي وأخي، أحتاج أن أعانقهما كأنني منهما، وليس الغريب الذي كان يلعب مع «ماثيو» في المزرعة يوماً من الأيام، (ريكي): قريباً يا بني، (أريان): أتعلم أن «ماثيو» وقع في الغرام؟، (ريكي) بتعجب: ومن سعيدة الحظ؟، زميلته في الجامعة، اسمها «ماتيلدا» وقد أصبحت علاقتهما قوية جدّاً من بعد مباركة «أليكسندر»، (ريكي): قد شدتني حكاية أخيك، هات جل ما عندك، (أريان): تعرّف عليها في الجامعة كزميلة في حصصه الدراسية، وبالتالي توطدت علاقتهما، إلى أن أصبحت زيارات بين منزليهما، وهنا علم «أليكسندر ولورا» بأمر ولدهما بالتبني، الذي كان لا يخفي شيئاً على أمي «فلوريا» بالطبع.

(ريكي): وكيف بارك «أليكسندر» هذا الحب، لا تقل إن في القصة مالاً؟، ضحك (أريان) وقال: بلى، يوجد الكثير من المال، التي أحبها ولدك من عائلة نبيلة تفوق عائلة «ماثيو» بالثراء.. وما زاد قيمة «ماتيلدا» أنها تشارك «أليكسندر» هوايته في سباقات الخيل ومصارعة الثيران، ومع الوقت أهدت «أليكسندر» ثورين بدل الذي مات في حادثة عربة الخيول التي دبرناها وكاد الأهالي أن يقتلوه بسببها.
(ريكي): أخيراً أخبار جميلة، أرجو أن تنال «فلوريا» السلام لقلبها، فهذا الأمر ممكن أن يبهجها ولو قليلاً من بعد فقد والديها الطاعنين في السن ولا أعلم ماذا فعل أخوها المقيت بجثمانيهما.. الآن أريدك أن تشاركني التفكير، لماذا لا حياة للموتي في فندق المقبرة؟، (أريان): لقد لاحظت هذا الأمر وفكرت قبلك، ولدي نظرية، لكن لكي نتحقق منها يجب أن نطبقها على أرض الواقع، (ريكي): وما هي؟، (أريان): انتظر يا أبي وسوف أطبقها معك على الفور، جلس «أريان» وأخرج طيفه، ثم رافق والده إلى أحد المنازل التي كانوا يمارسون بها العُهر، وكان يقصد «اللورد» بهذه الزيارة، ولماذا لُقب بهذا اللقب؛ لأنه مدير أعمال أكثر من ثلاثين

عاهرة، وهل جميعهن يعملن هنا برضاهن؟، بالطبع لا لأن «اللورد» قد مسك زمام أمور عائلاتهن، إما العمل بالإجبار وإما نهاية العائلة من خلال عصابته، ولذلك فهو خير من تُطبَّق عليه النظرية، وبالفعل وجد «اللورد» نفسه يطير في الأفق، فأخذ يضحك بسرور وهو يفكر، هل هو بالأفق بفعل الخمر السيئ الذي يتجرعه أم أنه ذاهب للجنة؟

نظر «اللورد» أسفله، فكانت الغابة الكئيبة أجمل من الأعلى، وزع الابتسامات على الدنيا بأسرها من شدة فرحه، لكن هل الأفراح بهذه الدنيا تدوم؟، بالطبع إنها لحظات عابرة في الألم المستمر.. قد وصلوا إلى فندق المقبرة، وتوسطوا القبو الذي يزينه ساعة ذات عقارب كاد أن يقتلها الجوع.

وضع «أريان» «اللورد» على ركبتيه الذي ما زال مبتسماً من وضع الطيران، وضع يداً على رأسه والأخرى على ذقنه، فدقها بكسر النخاع الشوكي الذي صدح صداه في الأنحاء، فأزعج الهدوء المقيم، خرجت روحه العفنة، وخرجت معها الظلال ذات الأيادي السوداء تبحث عن هدايا القدر.

(أريان): الآن ننتظر إلى الغد، وننظر لما سوف يحدث عندما تدق ساعة الصفر.. وبالفعل نجحت نظرية «أريان» وعلم الاثنان بأن للساعة وقوداً، لأنه في الغد الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق بعد منتصف الليل، نزلت «هايدي» بأقصى سرعة تملكها قدماها إلى الطابق الأرضي، وهي تلتفت يمنةً ويسرةً باحثة عن بشر تنزل عليه شرها.. (ريكي): للساعة وقود، والظلال هم من يوصلون وقودها إلى بطنها، ومن غير الأرواح لا برزخ للنزلاء.

(ريكي): «أريان» أريدك في مهمة جديدة، ودّع مزرعة الأعناب إلى الأبد، وانطلق إلى مكانك الجديد منذ الساعة، فلا أحد غيرك يستطيع أن يمسك بزمام الأمور في محيط أعمالنا!

رحل «ريكي» للنظر إلى معشوقته، فإن كان للساعة وقود، فإن وقود قلبه هي «فلوريا» التي من أجلها يقيم الدنيا ويقعدها، وصل طيفه إلى منزلها الذي بات من المنازل السعيدة المبهجة؛ بسبب الحبيبين اللذين نثرا بذور الحب في أركانه، ما أجمل «ماثيو» وهو جالس في غرفة المعيشة وبجانبه «ماتيلدا» التي تسكب له الشاي الإنجليزي بابتسامة خلابة، لكن شعر «ريكي» بالغرابة الشديدة، هذه الابتسامة مألوفة!

بحثت عينه عن جميلته (فلوريا) ودله عليها قلبه، وجدها في المطبخ لإعداد الإفطار، وهي تدندن السيمفونيات بفمها المعسول.. توقفت فجأة ثم قالت: أقسم أنني أشعر بوجودك يا من له الشوق يزيد ولا ينقص، إن كنت هنا، فاعلم أن القلب لا يميل إلى بشر لأنك مالكه، والعين لا تنظر إلى غيرك وأنت بصرها، ولا تشرق الشمس في كل صباح إلا لأحبك أكثر من الأمس، ولا يبتسم القمر إلا لأنك تحبني أكثر مما أحببتك، إلى نهاية العمر يا رفيق الروح.

(ريكي): أحبك، وإن كنت لا تسمعينني، أعلم أنك تشعرين بها يا من أموت كل كل يوم لأجلها، لن أتوقف عن حبك إلى نهاية العمر..

انتقل «ريكي» في أرجاء المنزل قبل أن يرحل إلى جسده، مروراً على جناح «أليكسندر» الذي كان منهمكاً بكتابة رسالة إلى مجهول، ومن خلفه الكثير من الرسائل التالفة؛ بسبب عدم تمكنه من التعبير الصحيح لما يريد أن ينقله.

اقترب «ريكي» لكي يقرأ محتواها، لكنه في اللحظة نفسها طواها «أليكسندر» وقام بسرور عارم، ثم لبس معطفه وخرج على عجل، طلب من سائق العربة أن ينزل ليركب مكانه، وانطلق يسابق الريح إلى وجهته، وهذا الأمر حرك كل غرائز «ريكي» لمعرفة ما.

يحصل، فقرارات «أليكسندر» ممكن أن تمس أحبته في المقام الأول.

وصل «أليكسندر» إلى السوق، ونزل على عجل إلى أن وصل إلى زقاق يُخفي أحدهم داخله، سلمه الرسالة ثم غادر.. انتظر «ريكي» إلى أن فتح «الرجل» الرسالة ليتشاركا قراءتها:

«محتوى الرسالة»

«آن الأوان لتنفيذ الخطة المتفق عليها مسبقاً، عليك أن تقتلها بأسرع وقت ممكن، أحتاج إلى إرثها من أموال أبي؛ لأنني على وشك الإفلاس، وسوف أسدد ديني لك من بعد تنفيذ الإجراءات الروتينية لنقل أموالها إليّ بصورة رسمية.. أرجو أن يتم الأمر في القريب العاجل»

«أليكسندر فيرنانديز»

برزت عروق وجه (ريكي) وثارت أوداجه غضباً مما قرأ: لطالما كنت تحب نفسك ولا أحد غيرك يا وغد، ولم تحب شيئاً مثل ما أحببت المال، حتى أختك التي حرمتها من الزواج، وظلمتها طيلة حياتها، لم تنل منك الحب يوماً، بل ظلماً في قاع ظلمات، عليك اللعنة يا قاسي القلب، بل لا قلب لك من الأصل.. كاد «ريكي» أن يرجع إلى جسده لكي يذيق «أليكسندر» أقسى أنواع الألم، ويفرغ عليه غيظ سنوات كانت سوف تجمعه «بفلوريا» لولاه.

لكنه في الأحوال كلها يريدها ميتة!، نعم.. فبرزخ فندق المقبرة بانتظارهما لكي يجمعهما سقف واحد بعد الموت، رجع إلى جسده لكي يدخل في دوامة العصف الذهني، أيترك مصيرها بيد الظالمين؟، أم له رأي آخر؟!

بعد تفكير عميق قرر «ريكي» أن يكون موتها على يديه، خرج من منزله، وانتظر على ناصية الطريق إلى أن خرجت إلى شرفة الطابق الأرضي كعادتها، تلاقت الأعين فعلمت «فلوريا» أن هناك خطباً، لوّحت بيدها مستفسرة، فرد عليها الآخر بإيماءة تشير إلى الحاجة الملحّة للقاء عاجل.

نظر إلى الساحل فقفزت الذكريات من مخازنها، وخرجت على شكل لوحات من أمامه، منذ لقائهما الأول إلى لمسة يدها على كتفه في حينه والتي دخلت إلى مخزنها في ذاكرته مع اللوحات المكدّسة هناك، (ريكي): حبيبتي، «أليكسندر» قد أعطى الأمر لقتلك، (فلوريا): أعلم، فكنت أنا من يجمع قصاصات الورق من مكتبه، لا تقلق يا حبيبي، لم أعد أهاب الموت، (ريكي): هل تقبلين أن يكون موتك على يدي؟، نظرت إلى الساحل مطولاً، ثم شبكت أصابع يدها بأصابعه، ووضعت رأسها على كتفه وقالت: لقد بدأت حياتي عندما نطقت «أحبك»، وأريد أن تنتهي بكلمة «أحبك»، (ريكي): غداً مساءً، قبل النوم اشربي هذه القارورة واتركي الباقي لي.

في اليوم التالي، استأذنت «فلوريا» من «ماتيلدا» أن يكون «ماثيو» لها، وبالفعل كان اليوم حافلاً بالأنشطة المشتركة بينهما، من تسوق والجلوس على الساحل وتجاذب أطراف الحديث، فكانت «فلوريا» تزرع بذاكرته ذكرى سعيدة تجمعهما، تجمع «ماثيو» وعمته، تجمع «فلوريا» وابنها الذي تعشق وإن كان الاجتماع الأخير في هذه الحياة، على أمل اللقاء في حياة أخرى.

احتضنت كتفه كما تفعل مع والدها الحقيقي، ووضعت رأسها عليه وهما يتأملان الغروب دون كلام مسموع، لكن هناك لغة المشاعر التي تصل أبلغ من الكلام المنطوق.. انتهى اليوم يا ولدي والآن اسمح لي بالمغادرة، مغادرة دنياكم المريرة، مغادرة منزلكم الذي لم أر فيه يوماً طيباً، فإن لديّ موعداً مع.. الموت، قالتها «فلوريا» في خلدها.
لم يكونا وحدهما على الساحل، بل العائلة بأكملها مجتمعة في البقعة نفسها، فقد كان طيفا «ريكي» و«أريان» يجلسان بجانبهما ويسامرانهما بطريقتهما.. اجتمعت عائلة «فيرنانديز» حول طاولة الطعام بهدوء كما هي العادة بحضور (أليكسندر)، لكن هذه المرة قرر أن يكون أول من يتكلم، ليقول: «فلوريا» لماذا لم تعودي تذهبين إلى مزرعة العائلة في «فالنسيا»؟، وقبل أن تنطق «فلوريا»، قاطعها (أليكسندر) قائلاً: اذهبي غداً لكي تأخذي إجازة من أعمال المنزل والعائلة، (ماثيو): نستأذنك يا أبي أن تسمح لنا أنا و«ماتيلدا» بالرحيل مع عمتي إلى المزرعة، نظرت «ماتيلدا» إلى «ماثيو» ثم نظرت إلى (أليكسندر) الذي توقفت اللقمة في بلعومه: كلا، اترك عمتك ترتاح قليلاً، فتدخلت (ماتيلدا): أوافق السيد «أليكسندر»، فقالت (فلوريا) في خلدها: أهكذا تريد أن تقتلني يا أخي؟!، قالت (فلوريا) للجميع: فكرة ممتازة، مسحت فمها بالمنديل، ثم قامت بهدوء راحلة إلى غرفتها لتنام.. إلى الأبد!

سرّحت شعرها للأعلى، ثم أطالت النظر إلى المرآة ونظرت إلى النمش الذي حول أنفها، وبعض التجاعيد التي بدأت تظهر حول عينيها المكحولتين، رغم أنها وصلت إلى سن النضج وليس الشيخوخة، أربعون خريفاً لم يمر عليها ربيع واحدٌ إلا بوجود من يحبهم قلبها، «ريكاردو وتوء ميهما».. لبست منامتها ثم وضعت أحمر الشفاه على شفتيها، وعلى المرآة كذلك، كتبت «أحبكم، وداعاً».

جلست على طرف السرير، ومسكت القارورة الزجاجية، وهي تنظر إليها بحزن وفرح بتناقض غريب، الخوف من الموت واللهفة للموت، فمنه ينتهي الألم، ومنه تبدأ الحرية، (فلوريا): ريكي، أحبك.. وضعت طرف القارورة على شفتيها، ثم جمعت شجاعتها، وتجرعته دفعة واحدة، ثم استلقت على السرير، وغطت نصفها وأغمضت عينيها مودعة الدنيا بما فيها، اسرحوا وامرحوا بها، اظلموا بعضكم بعضاً، احزنوا على آثامكم وما صنعت أيديكم، فمصيركم.. الحال الذي وصلت إليه.. الموت!

صورة «فلوريا» بإطار ذهبي، وهي تقف بابتسامة تبهر الناظرين، وشعرها البني ملفوف إلى الأعلى، وينزل منه خصلتان لولبيتان عن اليمين وعن اليسار والنمش الذي حول أنفها رصّع جمال محياها، وأسفل الصورة تاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة: (الأول من يناير ١٩٠٧م) إلى (الأول من مارس ١٩٤٧م) - العمر (٤٠ سنة).

وقف (ريكي) ينظر إلى الصورة؛ وبالتالي ينظر للتي ترقد في تابوتها بخشوع، اقترب ولم يبالِ بالموجودين، نزل وقبّل رأسها وشفتيها، ثم همس في أذنها: الدنيا لهم، والبرزخ لنا.

كان (أليكسندر) ينظر إلى الحدث من بعيد، تقدم والتصق بكتف «ريكي»: رحلت نقطة العائلة السوداء، برأيك ندفنها في مقابر المدينة أم نستفيد من جثمانها، كيف يمكننا أن نحولها إلى ألماس؟، نظر له (ريكي) بغضب كاد أن يذيبه بمكانه: افعلها وسوف ترى ردة فعل تنهيك أنت وجميع ما تملك، «فلوريا» تُدفن بما يليق بالعائلات النبيلة، مكانها محفوظ في «فندق المقبرة»، قال (أليكسندر) بتهكم: سوف أفكر في الأمر، ولن أستشيرك في قراراتي وعائلتي، «فلوريا» أختي وليست زوجتك، لم يجبه «الآخر»، وخرج من المكان قبل أن يسوّيه بالأرض.
رجع إلى منزله ليعالج غضبه بتهشيم ما تقع عينه عليه، ومن غير تفريغ ولو جزءٍ؛ مما سمع من الطاغية «أليكسندر» لن يستطيع أن يدخل في الإسقاط الذي لا بد منه، لم يحتمل البقاء في المنزل وخرج للساحل، ومنه استطاع أن يسيطر على نفسه ويدخل في مرحلة الإسقاط، ومنها إلى «أريان» الذي لا يؤدب الرجال غيره، وبالفعل «أليكسندر» يحتاج إلى تربية من جديد.

فتح «أليكسندر» عينيه ليجد نفسه يهيم في فضاء غرفة «فلوريا»، وكأن الجاذبية قد غادرت المكان، أصابه الهلع وحاول أن يوقع نفسه أرضاً دون فائدة، فتح فمه مع أخذ أكبر كمية هواء تعطيه قوة الصرخة التي توقظ أهل البيت والميتين من حوله، لكن هناك من كتم فاه، ولم تخرج إلا أنات من بطنه.

تحرك رأسه باتجاه تابوت «فلوريا» الذي كان مغلقاً، لكيلا تنتشر رائحتها في المنزل، وذلك استعداداً لنقلها في الصباح الباكر، لكن تزامناً مع التفاف رأس «أليكسندر» فُتح باب التابوت، لينظر إلى الكلمات التي كُتبت بالدماء التي لم تجف بعد، وما زالت الدموع تنزل من بعض حروفها «فندق المقبرة»، فتح (الآخر) عينيه، وأجاب بكل خضوع: حسناً سوف أفعل، سوف أفعل.

وقع «أليكسندر» على الأرض، وانغلق التابوت وعاد الهدوء في المحيط إلا من قلبه الذي يكاد أن يخرج من مكانه من شدة الهلع الذي أصابه.. وفي المقابل ضرب (ريكي) كفه بكف «أريان» قائلاً: رجل المهمات الصعبة، عد لمكانك الآن وأكمل ما طلبته منك.

لم يغمض جفن للطاغية الذي غدا في ليلته فأراً خائفاً مترقباً لخطر موجود من حوله، لكن لا يعرف مصدره.. في الصباح الباكر ارتدى ملابسه الرسمية، وانطلق مباشرة إلى مبنى البلدية لكي يأخذ الأذن في ترحيل تابوت «فلوريا فيرنانديز» إلى «فندق المقبرة» بما يليق بفقيدة النبلاء.

صدح في فراغات المكان صدى الناقوس، بل الإذن للنهوض، الإذن بفتح التوابيت المغلقة، السماح للموتي أن يعودوا إلى الحياة في عالمهم الخاص، في فندق المقبرة الذي استقبل من تأسس هذا المكان لأجلها، فتحت «فلوريا» تابوتها وقامت من مرقدها، حركت رقبتها قليلاً، ثم سارت إلى الباب، فتحته بنية الخروج، فوجدت من ينتظرها.

(فلوريا): أعرفك جيداً يا صغيرتي، (هايدي): عينك لي يا شمطاء، ضحكت (فلوريا) ملء شدقيها: شيطانة في الحياة وبعد الممات، مسكت يد الصغيرة، ورحلت إلى بهو الفندق، ثم قالت: ما هذه الكآبة المنتشرة هنا؟!، لا بد من تعديلات على المكان في القريب العاجل، نظرت إلى الموتي الأحياء من حولها، لماذا خيوطكم الجراحية قد ذبلت؟!، وهناك جِراح مفتوحة بشكل مقزز!

أخرجت المحبرة، وكتبت أول رسالة بالطلبات المطلوبة استعداداً للتغييرات الجديدة، والتي كان من بينها توفير «فرقة موسيقية، ودكتور جراح بأسرع وقت ممكن، وطلبات أخرى كثيرة، وختاماً كانت مشاعرها مكتوبة بكل حب.. وجدها «حارس» المبنى صباحاً، وسلمها «لمدير الفندق» الذي لبى النداء بصدر رحب.

وبدأ التنفيذ بالفرقة الموسيقية الذين تم قتلهم الواحد تلو الآخر من منازل النبلاء، على أن يدفنوا مع آلاتهم التي كانوا يحبون، لإحياء حفلات يومية وإن كان العالم في حرب، فعالم فندق المقبرة مختلف؛ بسبب «فلوريا» التي أضافت لمستها الأنثوية، فبدلت حاله إلى فندق يليق بموتي النبلاء.

ذات يوم، خرجت «فلوريا» من تابوتها الذي زينته بأقمشة الفندق القديمة، عندما فتحت باب غرفتها كان الجنود باللباس العسكري الأزرق الملكي صافّين على حوائط الممر متقابلين والسيوف متجهة إلى الأعلى ومقبض السيوف متجهة إلى الأعلى ومقبض السيوف على أنوفهم بيد مندسة داخل القفازات البيضاء الباهتة والمشققة وكانوا على أتم الاستعداد لموكب الملكة أو بمعنىً آخر «مديرة الفندق»، حيتهم بانحناءة أنيقة، ثم رحلت بابتسامة خلابة إلى المصعد الذي وصل إلى الطابق الأول المكتظ بالمنتظرين لفخامتها لكي تعطي إشارة البدء بحفل الليلة على موسيقى سريعة تبهج القلوب قبل الآذان، وفي وسط الصخب

(صوفيا): «سيدة فيرنانديز» أعلم أن الليلة هي ليلة تتويجك في قصرك الباهر منذ مجيئك، ولكن نحتاج إلى دكتور جرّاح بصفة عاجلة، الجروح مفتوحة وهناك أعضاء غادرت الجسد، يجب أن يتم ترقيعها وإلا ساءت أكثر من ذلك، (فلوريا): سوف أرسل تذكيراً لصاحب الشأن، لا تقلقي يا عزيزتي.

الباب الثاني والثلاثون

(حتى الزمن لم يعالجه)

(لا يأس مع الحياة، لأن الحياة هي اليأس بعينه..)

أحداث عام ١٩٤٩م:

(الممرضة): افعل شيئاً يا دكتور، سوف نخسر المريض، «لم يجبها ووضع جل تركيزه في قلب المريض الذي توقف نبضه»، (الممرضة) بعد ١٥ دقيقة من تدليك القلب، دون أن ينبض: نعلن الوفاة؟، (الدكتور): أجل، الوفاة في تمام الساعة ١١.٢٣ دقيقة مساءً.. اللعنة!

أبدل بملابسه الجراحية ملابس تلائم البرد الذي اكتسح برشلونة، وتدثر بمعطفه الثقيل وقبعة الرأس الصوفية، وأخيراً تلثم مستخدماً وشاح الرقبة، خرج من المستشفى يهيم على وجهه، ثملاً من غير خمر، بل من الخيبات المتكررة، تخدرت أطرافه بسبب الوقوف لساعات وساعات في غرف العمليات، هل آتت جهوده ثمارها؟، بالطبع لا، فإن عام ١٩٤٩م هو عام الحزن لهذا المنكوب، فكل عملياته تؤدي إلى عكس نتائجها المرجوة، لا حياة لمريض يدخل إلى غرفة عمليات هو جرّاحها، ليخرج هو بذاته، ويبلغ أهل المريض بأن أخاكم، أمكم، ابنتكم، قد وافتهم المنية، لتصبروا على مصابكم، كيف له أن يشاهد كل تلك الآلام المتدفقة من حوله، والدموع التي يكاد أن يغرق في محيطها، لم يعد له قلب يحتمل كل هذا الألم، ويبقى السؤال الأهم، لماذا الموت يخرج من بين يديه؟، هل أصبح بين ليلة وضحاها، الوسيلة إلى الموت؟!

ما زال يسير والزمن يسير معه، الزمن الذي فقد فيه أمه وأباه، وقبل سنة ونيف خطيبته التي أبت أن يعالجها غيره، بسبب شدة ثقتها به، وآل بها المطاف إلى إعلان وفاتها من الذي وثقت به.. اكتئاب ينهش دواخله بأظافر من

من حديد، وما هو علاج هذا المرض، النسيان الذي يأتي من خلال الزمن؟، لكن الزمن هو معضلته، هو داؤه وليس دواءه، كم تمنى أن يتوقف زمنه عن الاستمرار، تتوقف حياته، لعل في موته علاجاً من الظلام الذي غزا قلبه، وأثقل روحه مما بعثر هواء الدنيا من جوفه، يتنفس ولا يدخل الهواء إلى رئتيه، لكي يشعر بأنه في رحابتها، وليس في قبرها.

وصل إلى منزله، دخل وترك الباب مفتوحاً من خلفه، وصل إلى غرفته، ورمى نفسه على السرير ضامّاً ركبتيه على صدره، ينوح الويلات المتراكمة على صدره، لعل الوزن يخف، فتخرج الأحمال، ويدخل مكانها هواء يسمح له أن يكمل مسيرته في دنيا اليأس.

ومع خيوط الفجر التي رسمت النور في صفحة الظلام، قد انتهى من ربط الحبل على سقف الغرفة، وكسر رجل الكرسي ليتركه قائماً على ثلاث، صعد ولبس طوق النجاة من الألم، أحكم وثاق العقدة، أغمض عينيه للمرة الأخيرة!

انفتح الباب ليدخل (ريكي) نظر إلى المنظر غير المتوقع: «سيزار» ماذا تفعل؟، وهمّ راكضاً لإنقاذ أخيه من الانتحار، ساعده لينزل وجلس بجانبه على السرير، (سيزار): لا دخل لك، هذه حياتي وأنا من يقرر أن أستمر بآلامها، أم أنهيها عن بكرة أبيها، (ريكي): أخبرني بماذا أساعدك، وكل ما تطلبه مجاب يا أخي، (سيزار): أنهِ حياتي!

الصمت يحوم حولهما، لكن الصخب الحقيقي في عقولهما، فهذا يريد أن ينهي حياته بأسرع وقت ممكن ولا رجعة في قراره، والآخر يفكر بشيء خارج المألوف كعادته، (ريكي): تدفأ بملابس ثقيلة وتعال معي، سار الاثنان إلى وجهتهما بين أنوار الدنيا، ولكن لا ينظران إلى جمالها، لأن عيونهما حجبت الألوان من حولهما، لأن المنافسة بينهما كبيرة جدّاً، فكل واحد منهما يحمل أطناناً من الهموم.
من خلفهما غابة الكآبة، ومن أمامهما فندق كان اسمه «كازاميلا» وغدا مقبرة للنبلاء، (سيزار): أرجو ألا يكون هناك موعظة ونصائح لن تغيير رأي، حياتي ملكي يا أخي وأنا من يقرر مصيرها في البقاء أو تسليمها إلى الأجل الذي سوف يأخذها حين تأتي ساعة الموت، التي أرجو أن تكون في القريب العاجل، (ريكي): تقدم وسوف نرى متى ساعة الأجل.

وصلا إلى الأعين الراصدة من تماثيل ونقوش مرسومة على الباب، وكأنهم يرحبون بالضيف الذي يزور المكان لأول مرة في حياته، استقرا مقابل الساعة، فنطق (مدير الفندق) الذي كان يحوم حول أخيه بخطوات بطيئة ويداه في جيبيْ بنطاله: لا رجعة في احتضنه «ريكي» من الخلف واضعاً ذراعه على رقبة أخيه، وأخذ يضغط بتدرج إلى أن وصل إلى الدرجة التي يتوقف فيها الهواء عن المرور في قصبته، والآخر لا يبدي أي مقاومة بتعاون شاذ عن واقع المختنق.

نزلت الدموع في لحظة واحدة من الخانق والمخنوق، انتفض «سيزار» وفي كل ثانية تمر تزيد انتفاضته، نازعت الروح للبقاء، لكن صاحبها لا يريدها أن تبقى.. انتهت آلامه، خرجت الروح لتستقبلها الأيادي بحفاوة، (ريكي): لترقد روحك بسلام يا أخي، ولتكن وقوداً لساعة البرزخ، ولتكن لك حياة أجمل من التي كابدت فيها مرارة الدنيا، ليكن الفندق بيتك وكلنا أهلك ومارس عملك، دون أن تعلن الوفاة مرة أخرى ثانيةً ما حييت.. حمل أخاه وأدخله لجناح «بوربون» لكي يرتاح لبضع ساعات، لأنه من الليل سوف يؤدي الكثير من الأعمال من بعد أن ينتهي من حفل استقبال «دكتور فندق المقبرة».

دخل «ريكي» إلى مكتبه، لكي يفتح سجل النزلاء ثم دون اسم النزيل الجديد، وكتب الأحداث الجديدة في كتاب «آل بوربون» لأن قتل أخيه لم يكن من ضمن الخطة، ولكنه من هدايا القدر، أغلق الدفاتر وقبل أن يقوم من مقامه، وجد قصاصة ورق برز طرفها من تحت سجل النزلاء:

«محتوى القصاصة»

صديقي الأحمق.. «أحبك»

«فلوريا فيرناندينز»

زادت ضربات قلبه حبّاً وشوقاً، ثم قال: بل أنا الذي يحبك.. فتحاور «العقل والقلب» فيما بينهما: توقف عمرك يا حبيبتي في الأربعين، زهرة ناضجة، جميلة باهرة، لتعيشي في سلام من أذية العالمين، وسوف نجتمع قريباً مخلدين في برزخنا، فوداعاً إلى الملتقى.

دخل الفندق بحال وخرج بحال أسعد من ذي قبل، ولكن هذه السعادة لن تمنعه من إتمام الأمور العالقة التي يجب أن ينهيها قبل أن ينهي حياته للدخول إلى عالمه الذي شيده من الصفر، فكان من الصباح يبحث في الأنحاء من خلال طيفه عن النبيل الجديد الذي سوف يسكن مقبرته وما هي الفائدة المضافة لتساهم في إرضاء محبوبته، حسب الخطة المرسومة في سجلات العوائل النبيلة، ومن المساء يتحول إلى صائد الجوائز الذي يتربص بالمجرمين الذين يستترون خلف الظلام لكي يمارسوا الإجرام المعهود من سلب ونهب واغتصابات لإرضاء نفوسهم المريضة.

فكان «ريكي» و«أريان» متعاونين فيما بينهما، لكي يضطادا الطرائد التي تغذي ساعة البرزخ، ومنها يريحان برشلونة من أعداد سكانية غير مرغوب بها في المجتمع، حتى باتت برشلونة شبه نقية من الجرائم التي كانت بتزايد أرهق الشرطة والمخبرين، الذين تحول تركيزهم من الجرائم التي قل عددها إلى تزايد أعداد المفقودين وإن كانوا مجرمين، بدل أن يشكروا من له الفضل بتنقية المدينة من شوائبها، أصبح المنقذ هو المطلوب للعدالة، حسب وجهة نظرهم من هذا الذي أخذ دور البطولة في عالم الجريمة، ونصّب نفسه المحقق والقاضي وكذلك الجلاد!

وفي ليلة من الليالي، التي كانت خالية من الأعمال البطولية، جلس «ريكي» في بقعة الذكريات، ساحل برشلونة، الذي جمعه مصادفة بمعشوقته، ومنها بدأت حياته الحقيقية، وأصبح لها هدف مختلف عن منهج البشر، وإن كانوا يظنونه شرّاً، فإن لدى «ريكي» وجهة نظر أخرى.. شعر بوجود أحدٍ من خلفه، وهو يعلم تمام العلم بأنها ليست «فلوريا»، ولن يكون المشهد يداً حنوناً تُوضَع على الكتف، بل يجب أن يتخذ موضع الدفاع بالهجوم السريع من الذي يقترب في الحال.

وقبل أن ينقض على من أفسد خلوته، تحدث من كان قادماً من خلفه: مرحباً يا أبي، توقعت أن أجدك هنا، لا خلوة أحب إليك من بقعة الذكريات، وإن كانت تلك الذكريات كالنصل الذي يَقطع من قلبك جزءاً في كل مرة تخرج ذكرياتك من مخازنها.
(ريكي): هل الأمور على ما يرام؟، (أريان): يسير الأمر على ما تحب، جئتك هنا لأمرين، أولهما سؤال ينخر عقلي ولا يريد أن يتبخر في الأفق: متى يأتي دورنا لنكون في مكان واحد؟، (ريكي): دوري قريب، أما أنت فمصيرنا كله بين يديك، لم يحن وقتك بعد، وما هو الأمر الثاني؟، أطال (أريان) النظر إلى المحيط المظلم: هناك من ينتظرك في فندق المقبرة، ويريدك بصفة عاجلة.

قاما إلى الفندق يسيران بصمت، لكن لم تكن دواخلهما بالمقابل صامتة، وعلى مشارف الفندق بان ظل جالسٌ على ناصية الطريق، ومع اقتراب «ريكي» قام الظل بصعوبة، واتجه إليه قائلاً: «ريكاردو» حان الوقت لرد الدين، (ريكي): وما هو طلبك؟، وقبل أن تقوليه هو مجاب، لم أنسَ ولن أنسى ما فعلته لأجلنا، (لاتويا): أعلم ما يدور في هذا الفندق، فكانت «فلوريا» لا تستطيع الكتمان بحضوري، وتعلم أن هذا الشيء سوف يغضبك، لكن لا سيطرة على لسان النساء إذا انطلقن في الكلام، وحتى الحكماء يعلمون أن السر يُكشف إذا علمت به امرأة أو بمعنىً آخر، إذا كان السر هو النار، فإن المرأة هي دخانه!

ضحك (ريكي) ثم قال: قولي ما هو طلبك دون مقدمات، (لاتويا): أريد أن أنضم إلى عائلة الفندق، «نكست رأسها تزامناً مع دمعة طُرِدت من جفنها» أصدقك القول، لا أقوى على فراق «فلوريا» و«ماثيو» وهذا الأحمق الذي يقف بجانبك، وأعلم تمام اليقين بأن الفندق للعائلات النبيلة وبه بعض الجنود، لكنني أريد أن أنضم إلى توءمك و«فلوريا» وعليك أن ترد دينك، وضع (ريكي) يده على خدها ومسح دموعها: ونحن نحبك ونريدك في فندق المقبرة، لأننا بحاجة إلى ممرضة بأسرع وقت ممكن، ولا يوجد من تملك مهارتك، متى تريدين الانضمام؟، (لاتويا): حالاً، نظر (ريكي) إلى الساعة ذات الزجاج المكسور المعلقة على معطفه،

فكانت تشير إلى الساعة الحادية عشرة وخمسين دقيقة مساءً، فقال: لديك لقاء مع الأحبة بعد عشر دقائق.

منذ أن غادرت «فلوريا» ذلك المنزل، الذي كان يشع نوراً بسببها، اختل توازنه.. فكانت من يهتم بزهوره ومرجه، ومن كانت تهتم بتفاصيل لا يعلم أحدٌ من يُجمّلها، من بريق نظافته وطبخ أجمل الأطباق التي يسيل لها اللعاب، وحتى طريقة وضع الصحيفة بجانب أريكة «أليكسندر» لكي يستيقظ ويجد كل شيء كما يحب.

أحياناً لا نشعر بالفقد إلّا عندما تختل حياتنا التي لا تستقيم من دونهم، وجودهم نعمة ورحيلهم جحيم، لكنّ هناك فريقين في ذلك المنزل، منهم من كان سعيداً برحيلها، ومنهم من دخل قوقعة الحزن، مع محاولاته الحثيثة للخروج منها، لكن دون جدوى، فإن النفس مشتاقة لمن يبهجها.

«أليكسندر» لم ينتظر طويلاً لكي يأخذ نصيبه من ميراث أخته التي ليس لها أحد يرثها سواه في نظر القانون، فبعثر الأموال مجدداً على هوايته التي تُربحه شهراً وتستنزف أمواله سنوات، لا ربح في القمار، وإن كان على هيئة سباق خيل ومصارعة ثيران.

وفي المقابل «ماثيو» ولأول مرة يشعر أن قلبه انكسر، كسراً لا جبر له، لأن من كان بمجرد لمسة منه يضلح له دنياه، قد غادر هذه الدنيا دون وداع، فكيف تطيب له الحياة ونورها قد غاب، وكيف له أن يبتسم لانعكاسه في المرآة والذي يقف أمامه عابس الوجه، لا تظهر ابتسامته؛ لأن سببها رحل عن الوجود، لم يترك له غير الذكريات التي كلما ظهرت كغيمة في أفق العقل، زخت الأمطار المالحة من مزن الجفون.

حاولت «ماتيلدا» بالطرق كلها أن تحل محل «فلوريا» لكي تبهج قلبه، لكن لا أحد يأخذ مكان الأم، لأنه لطالما كان ينظر إليها بهذه النظرة، فكانت أحن البشر عليه ومعظم يومها كان معه، تلبي أي رغبة، وإن صنعت المستحيل لترضي قلبه.

هل «فلوريا» كانت له الحياة؟، القلب النابض؟، الهواء الذي يتنفس؟، لهذا يفكر أن ينهي حياته لعله يلتقيها في الجنة.. كره الحياة، وكره كل شيء من حوله، حتى «لورا» لم تستطع في حياة «فلوريا» أن تكون له أمّاً كما كانت الأخرى، فكيف لها الآن أن تحل محلها بعد الممات؟، (ماثيو) بدموع منهمرة على وسادته: آه، يا ظالمة، كيف استطاع قلبك أن يتركني وحيداً في هذه الدنيا؟، عودي وإلا لحقت بك في أول فرصة!

تقطع قلب الذي كان جالساً على الكنبة الملاصقة لسريره وهو يضع رجلاً على رجل، ينظر إلى المنكوب من ألم الفراق، والآخر لا يستطيع أن يراه، لأنه طيف، الطيف الذي هيأ له اللقاء القريب مع معشوقتهما «فلوريا».. رحل «ريكي» من منزل «آل فيرنانديز» إلى جسده لتستمر الحياة في إهدائهم أياماً جديدة وآلاماً جديدة في كل يوم يعيشونه في بساتين جحيمها.

مطلع سنة ١٩٥٠م:

حمل «ريكي» مستنداته وقرر زيارة ذي العين المطموسة، وحين وصل إليه كان قد انتهى من إدخال روحين لعجوزين كان الموت على وشك أن يسرقهما، لكن ساعة البرزخ أولى بروحيهما، نظر (أريان) لمن فتح باب الفندق، وهو يجهز الجثتين لكي يرحل بهما إلى المحرقة: أبي، هل هناك خطب؟، (ريكي): لا بل أريد أن أسلمك الأمانة، سوف أنتظرك في غرفة المدير، أنهِ عملك والحق بي.

دخل «أريان» ولم يجد والده جالساً خلف مكتبه كعادته، بل على الكنب المقابل له، (ريكي): اجلس خلف المكتب، انصاع الآخر لأمر والده ودقات قلبه ظهرت من ملابسه، لا يريد أن يسمعها الآن، إن كان «ماثيو» قد تعلق بوالدتهما، فإن «أريان» سر أبيه، ولم يحب بشراً في الدنيا كحبه له، (أريان): فطرتم قلب أخي، والآن تريد أن تفطر قلبي؟، لا تقلها يا أبي.

(ريكي): تعلم أنني يائس من هذه الحياة منذ أمد بعيد، وأنتظر أن أخرج منها في أقرب فرصة، لكن ليس بعد يا بني، «وضع ريكي مجموعة مستندات على سطح المكتب» هذا كل ما أملك، أصبح الآن رسمياً ملكاً لك، بما فيها «فندق كازاميلا» حفاظاً على ممتلكات الأسرة واستمرار رحلة الفندق.

(أريان): لكن يا أبي، أنت بهذه الطريقة تجعلني أعيش مجبراً بهذه الحياة، وأنا أريد أن أنضم إليكم!، (ريكي): سوف تنضم إلينا عندما تكون مستعدّاً لذلك، وعندما تسلم الأمانة لمن يحافظ عليها، (ريكي): في الصباح تعال إلى منزلي فهناك أمر آخر أريد أن أطلعك عليه، قام من مقعده واحتضن «أريان» بشدة، مما أدخل الضيق إلى صدره، قال (أريان) وهو ينظر إلى ظهر والده الذي يغادر المكان: أعلم ما تنوي فعله أيها اللعين.. أحبك.

نظر إلى ساعته المكسورة التي كانت في يوم من الأيام بيد فتاة صغيرة ذات نمش زادها حسناً وجمالاً، هل الزمن داوى جراحه؟، هل أعانه على النسيان؟، هل ما يُقال صحيح أن لا دواء لعلاج القلب المكسور إلا الزمن؟، غير صحيح البتة، علاجه هو يد تمسح عليه، وليست أي يد، يجب أن تكون يد عاشقة لهذا القلب، فيطيب في حينه، يتوقف نزيفه، تلتئم شروخه، ينبض بحب، ترجع الألوان الجميلة من حوله.

يمارس حياته بتوازن ما بين الخير والشر بداخله، لكن هناك من يقول إن الزمن هو الدواء، والدواء الحقيقي هو.. عودة الحب.
لذلك إن كان الحب لا يمكن أن يعود إلى الحياة، فسوف يرحل «ريكي» إليه، لأن الحب في قاموسه هو ذات النمش، صغيرته وحبيبته وزوجته وأمه، وكل ما هو جميل في هذه الدنيا، إنها «فلوريا» كل نساء العالمين.
لبس بدلته، ورتب شعره مع ابتسامة، منذ زمن لم يشعر بها تخرج من قلبه، وبرم شاربه، ثم وضع نظارته الأحادية على عينه؛ لأنها سوف تعطيه الهيبة والوقار كمدير للفندق والملك على الموتي، هل هو خائف؟، بل سعيد والسعادة تغمره وكأنه يستعد لموعد غرامي على ساحل برشلونة سوف ينتهي في سفينة مهجورة مع أجمل نساء العالمين.

استلقى على السرير بعد أن فتح الغطاء الفليني للقارورة التي كانت في قبضته، وشربها دفعة واحدة.. منع عقله أن يتخيل إلا اللحظات الجميلة التي عاشها في بساتين زهرته، أغمض عينه فغاب النور من الدنيا، وغاب إنسان كان حيّاً يطمح أن يتزوج ويبني أسرته بسلام، والآن لا يريد إلّا الموت الذي سوف يحقق أحلامه التي لم يستطع أن يحققها وهو حي.

الباب الثالث والثلاثون

(الملتقى بعد وداع طويل)

(كما وعدت، سأعود قريباً، بشوق الهوى..)

طفلان فعاشقان فأبوان فزوجان - عام ١٩٥٠م:

فتح عينه، وتوقع الظلام المحيط في تابوته، لكن كان ضياء الشموع في كل مكان، ترسم الأمواج على الحوائط، وهناك وزن على جسده، أنزل رأسه قليلاً، ليجد شعرها البني منسدلاً كالحرير على كتفه، ورأسها على قلبه، ويديها طوقتا خصره، احتواهما تابوته، في هذا المكان الضيق شعر برحابة الحياة التي انتهت منذ قليل، وبدأت مع «فلوريا» بحياة جديدة، بداية لا نهاية لها.

وضع (ريكي) ظهر يده على خدها، ومسح عليه بحنان، ثم أبعد خصلات سترت وجهها، ووضعها خلف أذنها ثم قال: هل تذكرين عندما قلت لك منذ زمن، لن أتخلى عنك يا من لها القلب ينبض؟، (فلوريا) وهي تضحك بسعادة طفولية: أذكر يا حبيبي وأبي وصديقي، وساكن قلبي وسبب سعادتي، (ريكي): أحبك أكثر من الأمس، أحبك في حياتنا السابقة، وأحبك في برزخنا القادم، معاً إلى الأبد.

قامت (فلوريا) وهي تمسك بيد زوجها، فقد نصّبت نفسها زوجة له منذ أن جمعهما فندق المقبرة في حرية مطلقة لرسم حياتهما كما يحبان وليس كما يريد أصحاب المصالح الدنيوية

انكسرت القيود والأغلال التي كانت تقيدهما، أزيلت الحواجز جميعها التي كانت تفصل بينهما أصبحا زوجاً وزوجته يجمعهما هذا القصر وإن كان مقبرة، فإنه يغنيهما عن العالمين.

عندما فتحت الباب وخرجت، ومن خلفها «ريكي» كان الجنود مصطَفِّين على الحائط، ولكن لم تكن تحيتهم المعتادة لأي نزيل جديد، لأن هذه المرة حفل الاستقبال للقائد الأعلى الذي يأتمرون بأمره، نكّسوا رؤوسهم مع وضع قبضة اليد اليمنى على القلب، وبصرخة عسكرية واحدة قال الجميع: نعم سيدي، فقال (ريكي): أحسنتم، وأول أمر أصدره أن يكونوا مرابطين في الطابق الخامس على نحو دائم منذ الساعة الثانية عشرة صباحاً إلى نور الصباح، ولا يأخذون الأمر إلا منه ولا أحد غيره. نزلا إلى الطابق الأول ليصرخ الجميع تهليلاً لمن له الفضل بدخولهم إلى حياة البرزخ، ليكونوا منعمين في هذه الجنة التي صنعها هذا الرجل الحكيم، تقدم الجميع مرحبين «بريكاردو بوربون» فمنهم من حيّاه بكلماته، ومنهم بأحضانه ومنهن بقبلاتهن مع نظرات «فلوريا» التي ترميهن بشرر.

دخل الجميع بسعادة إلى قاعة الاحتفالات، ودخل من بعدهم الاثنان بطريقة كلاسيكية، وقد مد «ريكي» يده إلى الأمام و«فلوريا» واضعة كفها فوق يده، وباليد الأخرى ترفع ثوبها، إلى أن انتصفا دائرة من الموتي، وضع «ريكي» يده خلف ظهره وأنزل رأسه ليحييها، ثم وضع يده خلف ظهرها ومسك يدها بالأخرى، فضغط على ظهرها ليلتصق جسداهما بعضهما ببعض، وهنا بدأت الفرقة بالعزف تزامناً مع تمايل أجسادهما، فكانت العيون تنظر إلى هذين العاشقين اللذين ذاقا أشد أنواع الألم من أجل هذا اللقاء، وكم هي سعادتهما الآن التي أصابت قلوب الجميع، وظهرت بإشراقة على محياهم الباسم.

وتفاجأ «ريكي» بأحدهم يلكزه على قدمه، نظر من حوله وإذ (بهايدي) أول نبيلة تدخل فندق المقبرة، لوحت له لكي ينزل إلى وجهها: تعال أريد أن أخبرك بشيء، (فلوريا): احذر، فإنها تهوى أكل العيون، (ريكي) قال وهو يقهقه: أعلم، نزل بالقرب من أذنها، ثم قال لها: ماذا لي إذا أحضرت لك عينين جديدين؟، (هايدي) بابتسامة خبيثة وصوت طفولي: في هذه الحالة لن أمس عينيك!

بعد أن دخل الجميع إلى دائرة الرقص، ذهب الزوجان إلى إحدى الطاولات ليجلسا، فتقدمت (صوفيا) لتشاركهما المجلس: «سيد بوربون» إنه لشرف عظيم أن تكون بيننا، لقد كانت «السيدة فيرنانديز» تهتم بالتفاصيل كلها في غيابك، وأنا كنت أنوب عنها في حال انشغالها، (ريكي): أعلم يا «صوفيا» وثقي أنني ممتن لمجهوداتك العظيمة، (صوفيا): اعذر وقاحتي، لكن هناك سؤالاً يعصف بعقلي طيلة بقائي في الفندق، (ريكي): أخبريني، (صوفيا): هل علموا من الذي قتلني؟، أسند (ريكي) ظهره وهو يقول بينه وبين نفسه: بالطبع أنا، لأنك خير مساعدة «لفلوريا»، نطق قائلاً بصوت مسموع: للأسف لم يجدوا القاتل، وقُيِّدَت الحادثة ضد مجهول.
استأذن «ريكي» من الجميع ليغادر الطاولة، فطلبت منه «فلوريا» مرافقته إلى وجهته، مسك يدها ورحلا إلى غرفة المدير.

لم يتمالك «أريان» نفسه، لأنه قليل صبر مثل والده، قال له «ريكي» زرني في الصباح، لكن نفسه لم تطعه في الانتظار، رحل إلى منزل والده، يسارع في الخطا، هل لإنقاذه من الإقدام على تنفيذ فكرته؟، أم لمساعدته على تنفيذها؟،

لا يعلم، لكن عقله يريد أن يفهم سبب هذا الحضن الحار، وقلبه يريد أن يرتاح إن كان والده ما زال على قيد الحياة أم نفَّذَ ما يرنو إليه، كاد أن يضل إلى وجهته، نظر إلى باب المنزل من بعيد، الباب الذي يقع من خلفه الحقيقة التي سوف تريح قلبه، لكن عندما اقترب، كان هناك صراخ داخلي يمنعه من الدخول ويأمره بالالتزام بتعليمات والده، وهناك حاجة تجبره على التقدم.

وصل إلى مشارف الباب ليجده موارباً، فقال بحزن عميق: عليك اللعنة، تزامن معها شهقة ألم خرجت من قاع قلبه ودموع قهر لما سوف يراه بعد ثوان، ركض إلى غرفة والده، ودفع الباب بقوة، ليجده في كامل أناقته ووجهه الجميل، وعيناه المكحولتان.. مغلقتان، وضع أصبعيه على الرقبة ليبحث عن نبض، فكانت هي النبضات الأخيرة التي شعر بها إصبعاه، إلى أن توقفت عن ضخ الدماء إلى قلبه المكسور، ولا يمكن جبره إلا بلقاء الأحبة.

ناح بصرخات مؤلمة، لو كان للحائط قلب لبكى من بكائه، لعل هذا البكاء يقلل من هذا الألم الذي يعيشه، لكن بلا جدوى، وجد رسالة مكتوبة بجانبه لم ينتبه لها في البداية:

«محتوى الرسالة»

«عزيزي مدير الفندق، ابني ووريثي، كم عشقت كل ثانية كنت أقضيها معك، لم أكن بجانبك وأنت طفل، لكن أرجو أن أكون قد وُفِّقت أن أكون بجانبك في نشأتك، لكن لكل قصة نهاية، ونهاية قصتي في هذه الدنيا قد آن أوانها، ولدي قصة جديدة أبدأ بها هناك مع والدتك التي اشتاق إليها قلبي، واجتماعنا كأسرة واحدة بات قريباً.. إذا كان لي طلب أخير أطلبه منك فهو.. أرجوك لا تحزن.

ملاحظة أخيرة: احرص على نقل جثماني إلى فندق المقبرة

«مُحبك الدائم، والدك: ريكاردو بوربون»

أنجز «أريان» مراسم التأبين بالكامل، وبنفسه حمل التابوت ليكون في مكانه الصحيح، في الطابق الخامس، في جناح «آل بوربون»، خرج من الطابق الخامس إلى الطابق الأرضي، ومنه إلى غرفة المدير ليدوّن اسم النزيل الجديد، ثم غادر بهو الفندق مروراً بساعة البرزخ التي أطال النظر إلى عقاربها، ثم أغلق الباب من خلفه بهدوء، وهو يمسح دموعه التي بللت وجنتيه، لكنها لم تبلل جفاف قلبه الذي تصَحَّر من شدة الفراق.

سحب «ريكي» كتاب «آل فيرنانديز» وجلس مقابل مكتبه، وقامت (فلوريا) بطريقة طفولية وجلست في حجره وأخذت يده لتطوّق بها خصرها، عصرت خده ولثمت شفتيه بقوة ثم قال: خطة جديدة لنزلاء الفندق المحتملين؟، من تنوي أن تقتل من عائلتي؟، فتح «ريكي» على صفحة عنوانها «ماثيو»..

طرقت الباب «صوفيا» وطلبت من «فلوريا» أن ترافقها إلى قاعة الاحتفالات في الطابق الأول، فعصرت وجنتيه ولثمت ثغر زوجها مرة أخرى وغادرت، ليجلس «ريكي» بسعادة لم يشعر بها منذ أعوام غابرة، خرج من غرفة المدير، وتوجه إلى البهو يسير بخطوات بطيئة إلى أن وصل إلى النافذة المطلة على الحديقة الكئيبة، لكنها كانت بعينه جنة.. هناك البدر الباسم ينعكس بكامله على صفحة مياه النافورة، ونسمات الريح تداعب الأغصان الخالية من أوراقها الخُضر.

فظهر انعكاس بجانب انعكاسه على النافذة، كان يعلم في قرارة نفسه أنه سوف يلتقيها في القريب العاجل، (ميلا): مبارك لك موتك، (ريكي): شكراً لك، وأرجو لك الموت في القريب العاجل، (ميلا): لا يمكن تحقيق جميع أحلامك في آن واحد، (ريكي): هل من الممكن أن تجيبي سؤالي؟، (ميلا): قل، (ريكي): ماذا تريدين وبالمقابل ترحلين إلى الأبد؟، (ميلا): الإجابة بسيطة جدّاً، أعطيتك الفندق، والساعة كذلك، بالمقابل يكون الخلود مشتركاً بيننا، فكل روح تدخل إلى باطنها تعطينا سنة مقابلها، لكن بسبب غبائك، أصبح مقابل كل روح يوم واحد فقط، ومختصر الكلام، روح لك وروح لي.

(ريكي): معادلة غير عادلة، (ميلا): وما هو العدل برأيك؟ (ريكي): روح لي وروح لي، لا شيء لك، الفندق أصبح ملكي، والساعة كذلك، ولا نختلف أنك من صنعتها أو سيدك من أجبرك على صنعها، لكنني من فعّلها، (ميلا): بذلك قد تفتح على نفسك أبواباً من الجحيم، (ريكي): قد فُتحت منذ زمن، وأنا لها، (ميلا): بعد هذا اللقاء لا يوجد تفاوض!، (ريكي): رافقتك السلامة.. تلاشى كيان «ميلا» في الأفق، لكن لم يغب انعكاسها من النافذة الذي ما زال ينظر «لريكي» بابتسامة لا تبشر بخير، بل لا تنطق إلا بالشر القادم قريباً،

وعيون (ريكي) ما زالت تنظر إلى البدر الباسم: رغم ما تراه كل يوم يا بدر، من مصائب وكوارث منها الطبيعي، ومنها من فعل البشر، آلام تنتشر من شخص إلى مجتمعات، حروب، قتل، ودماء مهدورة، ما زالت ابتسامتك لا تفارقك، وهذه هي الحياة، ابتسمنا لها أم لم نبتسم لن تتغير إلى الأفضل، ابتسم يا صديقي بكل براءة مضيئة، فقريباً ستكون ابتسامتك.. دموية!

شعر «ريكي» بحركة من خلفه، لكن لم يرف له جفن، فظهر انعكاس قريبة «ميلا»، فقال (ريكي): هل الظهور الدرامي إرث في عائلتكم؟، (صوفيا): إذاً الحكاية أكبر مما أظن، هناك «كيان» كان بجانبك وتلاشى بلمح البصر، من هذا؟، (ريكي): جدتك، (صوفيا): كيف؟، (ريكي): إنها «ميلا دامبير» قريبة أحد أجدادك، الشر بذاته، بل الشيطان بعينه.

ثم حكى لها الحكاية كاملة مع التحفظ على طريقة موتها.. (صوفيا): يبدو أننا سوف نواجه الشيطان في القريب العاجل؟، (ريكي): خائفة؟، (صوفيا): أنتم أهلي وهذا بيتي، إذا كان يريد الحرب، فنحن فرسانها، وإن كان يريد السِّلم، فنحن نريد الحرب، ولن يمس أحدهم أهلي بشر و«صوفيا» بينكم.

قهقه (ريكي) والسعادة ظاهرة على محياه: كم أنا فخور بك، يجب أن نستعد لأي طارئ، أو حدث غريب يحصل في الأيام القادمة، لن نسمح لهم أن يتمكنوا منا، إن كانوا يريدون الساعة والفندق، يجب أن يكسروا حاجز عزائمنا، ويبيدونا عن بكرة أبينا، عندها فليفرحوا بها «ظهرت ابتسامة غريبة على محياه منعكسة على زجاج النافذة» وكأنه يوجد شيء في نفس «ريكي» لا يعلمه إلا هو.

غادرت «صوفيا» بعد أن جرتها «هايدي» من ثوبها لترافقها إلى القاعة، تحرك (ريكي) متجهاً إلى مكتبه وأثناء السير قال: تعال إلى مكتبي وأغلق الباب خلفك، أغلق الباب من خلفهما، وجلس (ريكي) مقابل مكتبه: تعلم أن الموتي يرونك أليس كذلك؟، (أريان): لم أكن أعلم، والآن أعلم وسوف أقلل حضوري إلى داخل الفندق، لكني.. اشتقت إليك وإلى أمي، (ريكي): لم أغب عنك إلا يوماً واحداً يا أحمق، وأنا اشتقت إليك كثيراً.. أريد منك عملاً ضرورياً جداً.

(أريان): أنا لها، أخبرني، (ريكي): سوف أشرح لك بالتفصيل كيف تصل إلى السجلات الأثيرية، ومنها إلى «الشيخ الأبيض»، أريد أن أعرف كل ما حدث «لميلا» وهل هناك ميثاق بينها وبين الشيطان؟، وإن وجد، فكيف نبطله، (أريان): لك ذلك.

ومع انتهاء الحوار شعرا بحركة في زاوية الغرفة، وعندما نظر الاثنان إلى مصدر الصوت، كان فأراً يحمل جعبته على ظهره، شعر بالخطر ثم فر هارباً بجانب الحائط إلى أن وصل إلى ثغر يسمح له بالمرور ليغيب عن الوجود!

لباب الرابع والثلاثون

(ساعة الوغى)

(إن أردت أن تربح حرباً، فأرسل لغريمك.. امرأة!)

هناك أفعى في منزلنا - عام ١٩٥٢م:

(ريكي): ماثيو، ما سوف نخبرك به الآن يمكن أن يشكل لك صدمة، لكن أرجو منك أن تتحلى بالحلم إلى أن تفهم القصة كاملة.. نحن من دبرنا موتك!،

(ماثيو) قام عن مقعده بذهول ومعالم الغضب ظهرت على محياه: ماذا؟!

أبعد (ريكي) يده من على خصر «فلوريا» التي كانت جالسة في حجره، والتي تبدلت ملامحها للحزن، لوّح بيده «لماثيو» ليجلس مرة أخرى: سوف تفهم بالقريب العاجل لماذا دبرنا حادث موتك، لكن ما نريده منك الآن، أن تخبرنا بالتفصيل كيف انتهى أجلك؟

(ماثيو): لن أتحدث قبل أن أفهم لغتكم الغريبة، هل يجب أن أقتلكم لما اقترفت أيديكم؟ أنتقم لموتي؟ كيف لي أن أهدأ وأنصت؟!، (صوفيا): عزيزي «ماثيو» تأدب في الحوار، فأنت تخاطب والدك ووالدتك،

هنا لم تتمالك «فلوريا» نفسها عندما نظرت إلى «ماثيو» ودخان الغضب يفور من رأسه، فتدخلت وحكت له الحكاية التي آلت إلى جمعهم هذا.

هدأت أوداجه، وارتخى منكباه، ثم قال: لم أتذكر حادثة موتي في أول يوم؛ لأن وجودي مع موتي يتحدثون ويرقصون أمامي لم يتقبله عقلي، وكنت أظنني أحلم وسوف أستيقظ في أقرب وقت، لكن في اليوم التالي استجمعت أفكاري لأفهم لماذا أنا هنا، وكانت الإجابة بسبب.. «كيان».

ضرب «ريكي» قبضته على سطح المكتب مما أرعب الجميع، أردف (ماثيو) حكايته: كان قد حدث خلاف شديد بيني وبين «ماتيلدا» فقررت أن أخرج إلى مزرعة الخيول لأرفِّه عن نفسي، وأخرج هذا الغضب الذي تملكني، وصلت إلى مزرعة والد.. «أليكسندر»، وأثناء تركيب السرج على ظهر الفرس شعرت بوجود ظل يحوم حولي، لكن عندما نظرت لم أجد أحداً.

(ماثيو): أثناء الجري، هاجت الفرس وأخذت تجري بجنون، وبالمقابل كنت كنت أشد على حبلها لتتوقف دون جدوى، حتى إنني شددت عليه مرةً بيدي اليمنى ومرة باليسرى، ولم تتوقف وكأن الفرس تهرب من شيء تراه ولا أراه، ومع سرعتها الجنونية ظهر أمامنا «كيان» أسود، ولم يتحرك من مكانه رغم سرعة الفرس، وعندما اقتربنا منه رفع كف يده بوجه الفرس التي حاولت التوقف، لكن محاولاتها كسرت قوائمها الأمامية، فانقلبت في الأفق وانقلبت معها، سقطت قبلها وسقطت فرسي فوقي، وهذا كان آخر ما رأيته قبل موتي،

(ريكي): والكيان؟، (ماثيو): قبل أن ينقلب حالنا بلحظات تلاشى في الأفق، (ريكي): صفه لي، (ماثيو): كان ملتحف السواد بقلنسوة غطت الرأس ومعظم الوجه، وأسدلت عباءته على سائر الجسد، وعندما رفع كفه علمت أنها امرأة، ولا أريد أن أسيء الظن، فقد لمحت ابتسامتها، كانت تشبه ابتسامة أحدٍ أعرفه.. (ريكي): ماتيلدا؟، نظر (ماثيو) في عيني والدي: نعم!

(ريكي): ماثيو كان من المفترض أن ينثر أخوك «أريان» الهيروين بوجه الفرس أثناء الركض ليجن جنونه، ويحدث ما يحدث، لكنه تأخر في الوصول، لأنه عندما وصل كنت أنت قد فارقت الحياة، وهو من أرسل بطلب «أليكسندر» من خلال عُمال المزرعة.

(ريكي): حدث موتك يوضح الكثير، (صوفيا): القرين، (ريكي): نعم، (ماثيو): بماذا تهرطقان؟ لا أفهم شيئاً مما تقولان، (صوفيا): هناك أمور غريبة تحدث في الفندق، منها قبل أن تحضر، ومنها بعد أن حضرت، فكان هناك ظلال تتحرك من حولنا، لكن عندما ننظر إلى مكانها لا نجد شيئاً، (ريكي): تحدثنا بهذا الموضوع سابقاً، وأخبرتك يا «صوفيا» هذا أمر يخصني ولا خوف منه،

(صوفيا): والحدث الذي بدأ منذ حضور «ماثيو» هي حالات النداء الغريبة التي تكون بصوت خافت ما يقارب للهمس: «اقترب، اقترب» وخروج قرينك الذي يشبهك، لكنه نسخة مصغرة منك، لكي يخطف الروح قبل أن تدخل إلى «ساعة البرزخ».

(ماثيو): وما فائدته من خطفها إذا كانت لا تدخل إلى قلب الساعة، فهي القادرة على تزويدنا أو تزويد «ميلا» بيوم مقابل تلك الروح؟، (ريكي): غرض قرينك هو ألا نقوم من مرقدنا، عقاباً لنا لعدم مشاركة الأرواح مع سيدته التي طلبت أن تكون روح لنا وروح لها، (ماثيو): أليس من المفترض أن يموت القرين معي؟

، (ريكي): بل القرين لا يموت يا بني، ترحل أنت ويبقى هو هائماً في الأفق إلى ما لا نهاية، (فلوريا): الآن ماذا سوف يحدث لابني إذا مات قرينه؟، (ريكي): ماذا سوف يحدث أكثر من فقدان روحه؟، فهو الآن ميت.. كنا نريده ميتاً لنجتمع كأسرة واحدة، و«ميلا» تريده ميتاً لأنها أخضعت قرينه الذي سوف ينفذ لها مخطط فساد برزخنا.. والآن، يجب أن نعرف كيف طوّعت قرين «ماثيو» تحت إمرتها؟

(ماثيو): الإجابة سهلة، لأن «ماتيلدا» لمدة سنة كاملة كانت تحضّر لي وجبات الطعام في منزلها، وتجلس معي أثناء الأكل لتضمن أنني تغذيت جيداً وقوِيَ بدني، فكانت تهتم بكل تفاصيل حياتي، وحتى ملابسي ترتبها بنفسها، وأحياناً تخرج من جعبتها طعاماً غريب اللون، لكن جميل النكهة، وتجبرني على أكله؛ لأنها تعبت بتحضيره، وكل هذا كان بذريعة تلبية جميع احتياجاتي لكي أتعلق بها، ولا أنظر إلى غيرها، وذات يوم وجدت في معطفي نتوءاً وفتحة داخلية مَخِيطة بعناية، فتحت المخيط وأخرجت قطعة جلدية مَخِيطة كذلك، وعندما فتحتها ونظرت بداخلها وإذ بورقة مليئة بالنجوم والأرقام، (ريكي): سحر في الطعام وطلاسم في الملبس، وهل سألتها عن السبب؟، (ماثيو): بالتأكيد، فكان ردها، أن هذه أدوات حماية كانت تستخدمها جدتها لتحميها من شرور الدنيا وما في باطنها من شياطين.. صمت (ماثيو) لبرهة ثم قال: قيل لي من قبل: من لم ينفطر قلبه من الهوى، لم يحب، بل انشطر قلبي من استغلال التي قالت لي ذات يوم: «أحبك» وصدقها.. قلبي!

في ليلة هادئة من صخب الموتي الذين ما زالوا موتي؛ لأن الساعة للتو صدحت فبعثرت الهدوء المحيط في أروقة الفندق، وما هي إلا دقائق، فتبع أجراس الساعة صرخة جعلت من يريد أن يقوم من تابوته يرجع إليه تحسباً لمصاب ممكن أن يضيبه.

صوت كرسي يسحب من الممر الخارجي إلى مشارف الباب، مقبض الباب يُفتح وصريره يتعالى في الغرفة، ثم قفزت من الكرسي، ودخلت إلى أن وصلت إلى تابوت «ريكي» المفتوح، ولم تجده بالداخل!

فكان يقف في الركن وسط الظلام ويداه خلف ظهره، فقال لها: ماذا هناك؟، (هايدي) وهي تغير موضع العين التي بفمها من الخد اليمين إلى الخد اليسار، ثم مسحت لعابها الملطخ بالدماء بطرف ثوبها: هناك بشريان مكتفان بجانب الساعة، (ريكي): يبدو أن حارسنا وجد لنا لصوصاً سوف يكافئوننا بيومين نعيشهما بسعادة.

نزل الجميع، وأحاطوا البشريين اللذين كانا يرتعشان من منظر الموتى الأحياء، وأحدهما يتلوى من الألم بسبب المحجر الفارغ، فنظر الجميع إلى الخارجين من المصعد ليفهموا أن «هايدي» لم تستطع أن تكبح جماح هوايتها، وقبل أن يهجم عليهما الجميع ليحصلوا على قطع غيار بدل التي تَلِفت، يجب أن تختبر جودة البضاعة بنفسها.

قال (ريكي) في خلده: شكراً لك يا «حارس المقبرة»، ثم قال للذين ينتظرون إشارة الهجوم على الفريستين: جردوهما من أرواحهما، ومن خلفهم الجزارون يلبسون المعاطف البيضاء والمناشير بين أيديهم استعداداً لتركيب الأعضاء الجديدة، (دكتور سيزار): جاهز؟، (الدكتور دايفيد): جاهز..

قطرات الدماء تطير ببطء في الأنحاء، ثم تسحبها الجاذبية بسرعة إلى الأرض، رائحة الصدأ انتشرت في المكان، ضحكات من طفلة تصفق وتقفز وكأنها تحضر مسرحية الدمى المعلقة، هناك اثنان يتعاركان على جلد بطن وغيرهما على فروة رأس، وأخيراً ظهر أحد الموتي الذي لم يحضر في بداية الحفلة، ولكنه عندما وصل إلى أرض المعركة تزحلق من بركة الدماء، وأوقع الجميع في لزوجته.. وكان «ريكي» يضع نظارته الأحادية، وينظر إلى الحدث بصمت ويداه خلف ظهره في زاوية البهو.

«صوفيا»، و«فلوريا» في زاوية أخرى بترقب، و«ماثيو» يقف مقابل الساعة بأعين تنظر إلى الأسفل ويدين بدأتا تمتدان إلى الأمام، ويخرج منهما ظل ليدين صغيرتين، ويخرج معه جسد صغير يشبه «ماثيو» وكأنه جانبه المظلم، خرجت أرواح اللصوص، وخرجت كذلك الظلال الدخانية تزامناً معها، اقترب الكيانات والأرواح بعضها من بعض، واستولت الظلال على الروح الهائمة الأولى، وبسرعة هائلة استولى «قرين ماثيو» على الروح الثانية التي كادت الظلال أن تنقض عليها.

ضحك «القرين» بهستيرية المنتصر، وحلق بالأفق إلى أن خرج مخترقاً السقف خارج حدود الفندق الإسمنتية، ولم يكتمل تحليقه، لأنه سقط هو والروح أرضاً في الطابق الثالث، لأن قبضتي «أريان» المشبوكتين كانتا في انتظار وجه «القرين» الذي كان يطير بأقصى سرعة،

وفي الطابق الأرضي توقفت مجموعة من الظلال عن الحركة، ونظروا جميعهم بحركة واحدة للأعلى، ثم انطلقوا بأقصى سرعة إلى الطابق الثالث ليجدوا الروح تهيم تنتظر من يقطفها، ومن الناحية الأخرى هناك معركة ما بين «الطيف» و«القرين»، لكمات وخناق وقذف، فكان «القرين» يظهر جل بأسه في صراع البقاء، ومن الناحية الأخرى كان «أريان» يدافع عن أخيه، بل توءمه فقضيته أكبر وإصراره أعظم، وما هي إلا قوة كامنة خرجت من الطاقة الأثيرية، وانتقلت إلى يد «طيف» غاضب، فهوت بها على رأس «القرين» الذي سقط أرضاً مترنحاً من شدتها، فقام «الآخر» بتكتيفه وجره إلى الطابق الخامس، ومنه إلى جناح «آل بوربون».

دخل «أريان» ودخل من خلفه الذين خرجوا من المصعد مهرولين، فكانت «فلوريا» في واد والكل في واد، لأنها توجهت بكامل طاقتها إلى «أريان» واحتضنته بشدة، وهي تذرف الدمع من شدة الاشتياق، والآخر يحتضنها بيد وباليد الأخرى يمسك «القرين» من تلابيبه.

(ريكي): أحسنت صنعاً، «ماثيو» شد الوثاق على يديه وقدميه، (أريان) وما زالت «فلوريا» بين ذراعيه، و«ماثيو» ينظر إليه نظرة الأخ هذه المرة، وليس الصديق، وهو يكتف «قرينه»: أبي أرحل أم أبقى؟، (ريكي): ابقَ، أريدك أن تسمع الحوار كاملاً، وقبل الحديث أمّن المكان بالحاجز الأثيري، فهذا الحديث للموجودين بهذه الغرفة ولا أحد سوانا..

أفاق (القرين) وهو ينظر إلى الجميع نظرات استهزاء مع ابتسامة خبيثة، وقف رأسه عند «ريكي» ثم مال ناحية اليمين، قائلاً: ويلكم من عذاب قريب.

(ريكي): بل ويلكم أنتم من دفاعٍ حديد، لا أريد أن أطيل عليك، نريد منك خدمة وبالمقابل أنت حر، صمت (القرين) ثم قال: فسّر معنى حر؟، (ريكي): حرٌّ بمعناها، ارحل أينما شئت حتى لو كنت تريد أن تجتمع مع قرنائك في جبلكم، (القرين): لكني أسير، مربوط بطلسم لا يفكه إلّا سيدتي، (ريكي): وإن ماتت «ميلا»؟ (القرين): حينها أكون حرّاً طليقاً، لكن إن لم تمت سيدتي، فسأذوق أشد أنواع العذاب بسببكم، (ريكي): أتعلم كم من السنوات سوف تعيش سيدتك؟، هل تريد أن تكون عبداً بطوق الرقبة تسوقك أينما شاءت؟، (القرين) بعد تفكير: لم لا؟!، أموت حرّاً ولا أعيش ذليلاً، موافق، (ريكي): بعد ثلاثة أيام يتحول القمر الباسم بضيائه الأزرق إلى الشر الدموي، يوم مولدها، نريدك أن تستدرجها في هذا اليوم إلى فندق المقبرة، واترك الباقي لنا، ابتسم (القرين) بخبث: لك ما طلبت.
ابتسامته هذه المرة لم تدخل الرعب في قلوب الحاضرين، بل كانت قشعريرة دبت في أجسادهم وطاقة رهيبة انتقلت في محيطهم استعداداً لما هو آت.

وقف جيش الموتى بإصرار وبأس شديدين، العيون غاضبة، والأفواه مزمجرة، والأكمام مرفوعة، وبيد كل واحد منهم عصاً أو سكين، أو ما يمكن أن يفيد في حربهم القادمة، ومن أمامهم في الصف الأول الجيش الأزرق شاهرين سيوفهم بوجه المعتدي، ويقود الجمع (ريكي) الذي ينظر إلى الباب المفتوح: حانت ساعة الوغى، والموت نحن فيه، وما نحن مقبلون عليه هي حرب البقاء، إما البرزخ وإما النهاية، لا أحد يقتحم وطننا وممتلكاتنا إلا وكنا له بالمرصاد، قمنا من الموت، وإلى الموت نحن راجعون.

لم يظهر من كانوا يظنون، بل دخل عليهم (مبعوث) كبير معلمي التبت، متقدماً إلى «ريكي» بجسده الهلامي: «ريكاردو» انظر للخارج، تقدم بضع خطوات، فنظر إلى جيش التبتيين، وقد تربعوا في الأفق على شكل دائرة محيطة بالفندق من الاتجاهات جميعها، رجع (ريكي) إلى موضعه فقال للمبعوث: طلباتكم؟، (المبعوث): لقد أتينا وما زال السلام طلبنا الأول، وإن كنت تريد الحرب فنحن لها، كف عن قتل البشر، ربيناك فينا وعلمناك من علمنا، لتكون داعياً للخير والسلام، لكنك سلكت طريق الظلمات طلباً للانتقام، استسلمت لحقدك الدفين، لكننا نعرف جانبك الأبيض، ونرجو أن نعود إلى أجسادنا دون قتال والقرار في نهاية المطاف لك، صرخ (ريكي) منادياً «أريان» الذي أصبح بلمح البصر بجانبه، بجسده الأثيري يومض بالحُمرة الغاضبة بعينين هائجتين من الاحمرار،

فخاطبه والده: هل اشتريت الأرض التي بجانبنا؟، (أريان): نعم، (ريكي) وعيناه للمبعوث: ولماذا اشتريتها؟، (أريان): أهديتها لبرشلونة لأن الحكومة تريد أن تنشئ سجناً مركزيّاً متكاملاً، ومن ضمن الخطة أن يكون فيه منصة إعدام، (ريكي): وهل حفرتم النفق المتصل لساعة البرزخ إلى منتصفه على أن نكمله بعد انتهاء بناء السجن؟، (أريان): نعم.

(ريكي): لا قتل من الآن فصاعداً، وكما وعدتكم سابقاً أنني سوف أتوقف عن أعمال الشر، وأنزوي بركني المشيد، وأعيش بسلام في برزخي مع عائلتي، وها هي الأرواح سوف تأتي وحدها إلى «ساعة البرزخ» من خلال السجن ومنصة الإعدام، (المبعوث): إذاً لا حرب بيننا، ونرجو أن يغفر لك الرب لما جنت يداك.. توقف الحديث لأن «أريان» قد غادر إلى الأفق حسب الخطة المتبعة حين يشعر بدنو.. المنتظر!

الباب الخامس والثلاثون

(فندق المقبرة)

(وداعاً للشر الذي بداخلي، قد كنت
خير عون لي في مواجهة.. الجميع!)

دخل (القرين) وعلى وجهه مرسوم الهلع إلى قصر «دامبيير»، بحث عن ضالته في الأنحاء ولم يجدها، لكنها من وجدته، فنادته من بين الظلمات في ركنها الذي اعتادت أن تستقبل فيه ضيوفها: لا بد أن الذي جعلك تترك الفندق، وتحضر إلى هنا أمرٌ جلل، أخبرني كلي آذان صاغية.

وقف (القرين) بين يديها خاضعاً: إنهم يدبرون لك مكيدة، أغروني للخروج من جسد «ماثيو» وأحكموا وثاقي، وطلبوا مني أن أحرضك على الخروج في إثرهم الآن ليقتلوك شر قتلة، (ميلا): وأنا لها، كم اشتقت إلى هذا الأحمق «ماثيو»، لا أخفي عليك أن قلبي مال له قليلاً، لكنه بشريّ ذو عمر محدود، فلن أتعلق بشخص سوف يشيخ ويموت على حجري وأنا باقية على ذكراه، (القرين): سوف تذهبين لهم هكذا؟، (ميلا): بالطبع لا، سيكون أتباعي معي، وهذه المرة أتباعي من الشياطين وليس الإنس، لتكون الضربة القاضية بدل مضيعة الوقت، فكانت الخطة مشاركتهم في برزخ الساعة، لكنهم اختاروا الطريقة الأصعب، إذاً ليعودوا إلى توابيتهم إلى الأبد هذه المرة.

(القرين): لكن حسب الاستعدادات التي أعدوها لك، لا أظنك نداً لهم، ضحكت (ميلا) بشدة: أحمق ولن أناقش مقدار قوتي معك يا حشرة، (القرين): المعذرة يا سيدتي، لكن أقترح عليك مواجهتهم بحرب رابحة قبل أن تبدأ.

(ميلا): أسمعك، (القرين): بعد ثلاثة أيام، يكتمل القمر بدراً، وليس أي بدر، بل الدموي، يوم ولادتك ويوم تتويجك ويوم اكتمال قوتك.. عم المكان صمت مدقع!

نظر (ريكي) من نافذة البهو إلى الأعلى، ليجد نقطة حمراء سقطت في بحر البدر المضيء، وأخذت تنتشر في محيطه ويتحول لونه الزاهي من الأبيض المزرق إلى القرمزي إلى لون الدم الغامق، فقال في خلده: أرجو أن تكون قد وفقت يا «قرين» ابني، نظر من خلفه وإذ الفندق الساكن قد تحول إلى خلية نحل، منهم من يجهز العصي، ويحول أطرافها إلى رماح، وهناك الدكتوران والممرضة يهيئون المكان لاستقبال أكبر قدر ممكن من المصابين، ولم يتوقفوا عند هذا الحد، بل استخدموا موادهم الطبية لتجهيز كرات صوفية من الأضمدة التي تقطر من السوائل القابلة للاشتعال، وقد صُف مقابل «فلوريا» صف من الموتي الأحياء لكي تبطّن ملابسهم بالقطن لتخفيف وطأة الضربات، وأيضاً «صوفيا» و«هايدي» قد جهزتا علباً أسطوانية ممتلئة «بجازولين سريع الاشتعال» ويخرج من بطنها فتائل مهمتها تأخير انتقال الشعلة إلى العلبة، صُفت على سور سطح المبنى، لتقذفا الوبال على المعتدي، وكانت «هايدي» كلما وضعت فتيلاً، وهي تدندن نغمات مرعبة بفمها، تتوقف لتنظر إلى العلبة بخبث طفولي وتقهقه بسعادة وكأنها تتخيل الحدث.

لم تكن هذه أسلحتهم فقط، لأن سلاحهم الحقيقي هو العزم على البقاء أو الفناء، فإنهم يمثلون الخير ضد من أراد بالبشرية شرّاً، قضية تستحق أن يضحوا بكل شيء لأجلها، وإن كانت الحرب ضد الشياطين، فسنكون على استعداد دائم للمواجهة حتى وإن دامت إلى قيام الساعة.

صعد (ريكي) إلى السطح، فوجد «صوفيا» و«هايدي» قد جهزتا علب القذائف، فأخبرهما أن تلحقا بجيش الموتي الأحياء في بهو الفندق، ومنه نادى على السلاح الحقيقي قائلاً: فعّل قوة الإسقاط الأثيري بأقوى درجات هالتك كما علمك «الشيخ الأبيض»، (أريان): عُلم، تفضل يا أبي الأمانة، وأخذ «ريكي» ما في يدي ولده، ثم وضعه في جيب معطفه، ومعه خنجر صغير خارج غمده.

نزل بعدها إلى الطابق الخامس، وعندما فُتح باب المصعد، خرج ويداه خلف ظهره، ليضرب الجنود بقدم واحدة الأرض ضربة زلزلت الفندق بما فيه، مع وضع قبضاتهم اليمنى على قلوبهم احتراماً للقائد الأعلى (ريكي): إن اليوم هو يوم الوفاء بالوعود، إما النصر وإما الخذلان، والخذلان هنا يعني الموت الأبدي وسط الظلمات اللا نهائية، هل تحمون قلعتنا؟، (الجنود) بصوت واحد: نحميها بأجسادنا، (ريكي): هل تضحون بأنفسكم لنحيا؟

(الجنود): نحن لكم السد المنيع، لا يمسكم سوء إلا بعد أن يبيدونا عن بكرة أبينا، (ريكي): جاهزون للرحلة الأخيرة؟، (الجنود) بصرخة كادت أن تحطم زجاج النوافذ: جاهزون سيدي، (ريكي): هيا إلى الأسفل، احتشد نزلاء الفندق في بهو الفندق، من أمامهم «ريكي» ومن خلفهم «ساعة البرزخ».

وهنا تقدم «مبعوث» التبتيين، لمناقشة «ريكي» النقاش الذي أدى إلى السلم في نهايته، ومع نهاية النقاش شعر «أريان» بخطر قد حل، صعد إلى الأعلى ليلقي نظرة شمولية، وكان ظنه في محله، ها هي «ميلا» تتقدم متوسطة عشرة شياطين ملتحفين العباءات السود، لا يظهر من ظلامهم إلّا عيونهم الحمراء التي لا تضمر إلا الشر وغرضهم الإبادة لا سِلم فيه، وصلوا إلى منتصف الغابة الكئيبة وما هي إلا لمحة من الزمن، ويكونون في وسط حديقة فندق المقبرة.

نزل «أريان» وأبلغ «ريكي» همساً بما رأى، (ريكي) مخاطباً «المبعوث»: هل أنتم دعاة سلام؟، (المبعوث): بالتأكيد، (ريكي): حتى وإن كان إفشاء السلام من خلال الحرب ضد الشياطين، (المبعوث): شياطين!، نعم، (ريكي): إذاً الشياطين آتية خلال دقائق، أريد منك تنفيذ أمر واحد ولا شيء غيره، فهمس له في أذنه، ثم أومأ «المبعوث» وغادر هو وأطيافه الأفق.

وصلت «ميلا» وعصبتها إلى البوابة الحديدية التي لم تكن عائقاً بالنسبة لها، لأن أحد شياطينها تقدم ولم تتطلب منه إلا دفعة بسيطة لتنكسر سلاسلها، وتَفُتح خاضعة مرغمة، سارت بكل ثقة إلى وسط الحديقة وعباءتها تزحف خلفها كالأفعى الرقطاء وشياطينها كالبنيان المرصوص عن يمينها ويسارها، تنظر إلى الأمام بعيون واثقة، وبالمقابل وقف «ريكي» بالثقة نفسها، بل بأكثر منها؛ لأنه وضع نظارته الأحادية، وابتسم عندما تقابلت الوجوه دِلالةً على الانتصار قبل البدء.

أخذت (هايدي) أحد أعواد الخشب الطويلة، وهرولت إلى الطابق الأول، بحثت عن الفرقة الموسيقية وإذ هم منزوون في زاوية القاعة يرتعدون خوفاً من المواجهة، تقدمت إلى موضعهم، ثم أخرجت عود الخشب، وضربت الطاولة التي أمامها ضربات استعداد، لبدء عزف الأوركسترا، ثم قالت: اعزفوا «لحن الموت» للعبقري بيتهوفن ، تعرفونها أليس كذلك؟، من يقول لا سوف يفقد إحدى عينيه قريباً، أومأ الجميع برعب منها، هيا لنؤجج الحرب بعزفنا، ونثير القلوب حماساً، ونلهب الأجساد قوة منبثقة من ذبذبات أوتاركم، فهذا دوركم اليوم.. رفعت ذقنها مع عود الخشب الذي بين أناملها الدقيقة، وأغمضت عينيها ثم أشارت لتبدأ الأوتار بصنع الحماس للموتي الذين يواجهون الموت.. وضعت عود الخشب وهرولت لتبدأ الوطيس.

قالت (ميلا) مخاطبة الجميع: الموت أم الحرب؟، رد (ريكي) على كلامها: الحرب طبعاً والموت لكم.. لم تكمل «ميلا» خطابها، لأن أحد الشياطين زمجر زمجرة الليث المجروح، فنظر الجميع إليه وإذ به على الأرض يتلوى من فقدان عينه، وعينه في فم (هايدي).. صمت الجميع بذهول، والأخرى تتذوق العين التي ترسلها بلسانها من الخد الأيمن إلى الأيسر، ثم بصقتها باشمئزاز، حتى كادت أن تلفظ الأعين كلها غير المهضومة من معدتها، فقالت: كريهة الطعم كوجوهكم البغي.. لم تكمل جملتها؛ لأن «ميلا» مسكتها من رقبتها، ورفعتها إلى الأعلى مقابل جميع الموتي الأحياء، مما أدخلهم بحالة من الخوف على شيطانتهم الصغيرة والغضب العارم من فكرة فقدانها إلى الأبد، (ميلا): والآن تبدأ الحرب، ففتحت «هايدي» ذراعيها للأعلى، وابتسمت دلالة على وداع الجميع.. ثم رمتها «ميلا» خلفها قائلة لشياطينها: افصلوا أعضاءها بعضها عن بعض.

خرج «ماثيو» من غرفة المدير بعد أن سمع صرخات الاستهجان من (النزلاء): هايديييي.. لا تفعلي يا ملعونة.. استبدليني بمكانها، وأثناء رمي «ميلا» «لهايدي» كان (ماثيو) يتحاور مع «قرينه» الذي بدأت تخرج يداه الظلماوان من جسد الآخر: الآن جاء دورنا يا رفيق الحياة والممات، أنقذ الصغيرة بكل ما أوتيت من قوة، ومع خروج «القرين»، مر عليهما وهج طيف أحمر غاضب منطلق إلى زمرة الشياطين، فلحقه «القرين» بوهجه المظلم.

كان أحد الشياطين يمسك «هايدي» من يدها، ويجرها إلى جانب النافورة ليفصل أوصالها كما أمرته سيدته، لكن وصل إليه «أريان» و«القرين» في الوقت المناسب، فجلس «القرين» على منكبيه، واحتضن رأسه ساتراً عينيه بكل ما أوتي من قوة، و«الطيف» استغل فرصة إغماض عيني «الشيطان» فأدخل قبضته إلى صدره، وأخرج قلبه الأسود الذي ما زال ينبض وسط قبضته، سقط «الشيطان» على ركبتيه بسكون، ثم هوى على الأرض بلا حراك.. فتقدمت (هايدي) وركلته على وجهه بغضب: وغد!

غادرت روح الشيطان في الأفق وسط أعين الجميع ، لكن كان هناك قوىً تجذبها للداخل، وما أن وصلت إلى باب الأعين الراصدة المفتوح على مصراعيه إلا وخرجت أيادي الظلال لتمسك هذه الروح الجديدة والفريدة من نوعها، حاولوا أن يدخلوها عنوة والروح تصرخ بشدة صرخات حادة حتى كسرت زجاج جميع نوافذ الطابق الأرضي وهي تحاول النجاة من سطوتهم.

وأثناء سحب الروح الشريرة إلى قلب «ساعة البرزخ» ركضت الشيطانة الصغيرة إلى المصعد لكي تنضم إلى فيلق «صوفيا» في سطح الفندق وبين يديها شمعة بلهيبها الصغير التي سوف تشعل المحيط غضباً بعد دقائق معدودة وهناك يقف جدها وهو ينظر لها لأول مرة في حياته بنظرات ملؤها الانبهار..

وبالمقابل صاحت (ميلا): ويلكم من عذاب قد حل، اهجموا ودمروا واقطعوا ولا ترحموا صغيراً أو كبيراً.. ركض الشياطين إلى الداخل بكل عزم على الإبادة.. وكانت الجموع على أتم استعداد للمواجهة.
ومن الأعلى بدأت النيران تسقط على رؤوس الشياطين التي تقدمت إلى الداخل برؤوس من لهب مشتعل، فأصبح كل مجموعة من الموتي على شيطان، بكفة غير عادلة، فإن للشياطين قوة أكبر بكثير من قوة النزلاء أجمعين، لكن تدخّل «القرين» و«أريان» ساهم بموازنة كفة الميزان، فكانا يضربان هذا ويرحلان للآخر موجهين ضربات عشوائية، حتى صخبت أرض الوغى وهناك أيادٍ تطير مفصولة عن أجساد الموتي الأحياء، فيزيد الغضب ويزيد معه الحماس.. فقال (ريكي): الآن يا معشر الكهنة، «أريان» ارجع إلى جسدك على الفور.

رحل طيف «أريان» إلى غرفة المدير، وظهرت في الأفق دائرة مغلقة من أطياف الكهنة الذين كانوا متربعين في الهواء بوشاحهم البرتقالي وعيون مغمضة يحيطون الفندق من كل اتجاه، ومن بينهم «المبعوث» الذي بدأ أول الترنيمة ولحقه الباقون، فخرجت من حناجرهم بصوت واحد ونغمة واحدة، أوقفت معها الحرب، وأخذ الجميع ينظرون إلى هذا المنظر الغريب، ومن بينهم «ميلا».

اندمجت هالاتهم، وشكلت وميضاً أزرق في محيط الفندق ونزل إلى الأسفل إلى أن التحم مع الأرض، وصعد من الكهنة إلى نقطة الالتقاء فوق سطح الفندق، فتشكلت فقاعة، لا يدخلها أحد، ولا يخرج منها أحد، فهذا اليوم الذي تقلب فيه الموازين، الموت للأحياء والإحياء للموتى.. زادت قوة الترنيمة، فنظرت «ميلا» إلى شياطينها الذين سقطوا على الأرض الواحد تلو الآخر يتلوّون من شدة الألم الذي غزا أجسادهم، فقال (ريكي) بابتسامته التي لم تغادر محياه: ترنيمة الملائكة، أقوى تعويذة تبتيّة ضد الشياطين.

فقال (ريكي) مخاطباً القرين والموتى الأحياء: اقضوا عليهم ولا ترحموا أحداً منهم، فإن ساعة البرزخ أولى بهم.. انهال الجميع ضرباً بالرؤوس والأعناق، فتطايرت أرواحهم تصرخ ألماً من أظافر الظلال الدخانية التي انغرست بها منعاً لهروبها.

خرج «أريان» بجسده من غرفة المدير، وتقدم حتى وقف كتفاً بكتف بجانب والده، وتقدم «ماثيو» و«قرينه» ليلازما الكتف الثاني، ضحكت (ميلا) بصوت صاخب: هيا زيدوا من دراما الموقف وأخبروني «نموت معاً ونحيا معاً»، لا أبالي بموت شياطيني، فإنهم التمهيد لما ينتظركم، فلا بشر يقف بوجهي، وتعلمون ذلك جيداً، وضع (ريكي) يده في جيب معطفه، وأخرج المخطوطة المطوية والخنجر الصغير،

فمد «أريان» قبضته مع رفع إبهامه إلى والده، نظرت «ميلا» إلى المخطوطة، فجن جنونها وفغرت فاهها، ابتسم «ريكي» ولم يمهلها أن تفكر بالخطوة القادمة؛ لأنه جرح إبهام ولده ثم..

قبل سنتين، رحل «أريان» إلى السجلات الأثيرية تنفيذاً لطلب والده، وحسب الشرح الدقيق الذي وصف به الطريق إلى عالم المعرفة اللا محدود، وصل مقابل «الشيخ الأبيض» الذي رحب به عالماً باسمه وسبب مجيئه، (أريان): أريد أن أعرف مكان مخطوطة الميثاق التي تملّك الشيطان من خلالها «ميلا»، (الشيخ الأبيض): في فندق «كازاميلا»، فتح (أريان) عينيه على مصاريعهما: أين في الفندق؟، (الشيخ الأبيض): تحت عرش التمثال الذي يجمع شكل «لوسيفر» و«ريكاردو بوربون»، (أريان): وكيف نبطل الميثاق؟،
(الشيخ الأبيض): أن يدخل شريك ثالث بميثاق الدم، ويخلص «ميلا» من سلطة «لوسيفر» ويتم ذلك بإضافة سطر جديد في الميثاق: «أوافق أنا لوسيفر أن أتنازل عن روح ميلا دامبير لمصلحة مالكها الجديد، أريان بوربون»، وعندما تنتقل ملكيتها لك، تطلق سراحها، ولا يمكن أن تخرج من سلطة الشيطان إلا بتلك الطريقة.

هرعت «ميلا» بكل طاقتها لتمنع دماء «أريان» من الوصول إلى الميثاق، لكن كان (أريان) أسرع، وضع بصمته الدامية على ميثاق «لوسيفر» ثم قال: أخلصك يا «ميلا» من تَمَلُّك الإنس والشياطين لروحك، فقال «قرين» ماثيو: القمر الدموي، يوم ولادتك ويوم تتويجك ويوم «انتهاء» قوتك.

ومع تعالي نغمات الفرقة الموسيقية التي تصدح بالأرجاء على أوتار معزوفة الموت، و«ميلا» التي كانت تركض وتصرخ بصوت «لويثان» الغاضب، تبدّل حالها إلى السير ببطء وأخذت تشيخ حتى سقطت لتحبو إلى موضع أقدامهم حتى وضعت يدها على قدم «ريكي» الذي نظر لحالها الذي تبدّل من ريعان الشباب، إلى الشيب الذي غزا رأسها ابتداءً من غرّتها البيضاء، وجسدها الذي أصبح كالصحراء القاحلة من شدة التجاعيد التي رسمت خطوط الزمن والأخاديد ابتداءً من محياها إلى أخمص قدميها، انتفضت وصرخت بحنجرة العجوز التي باتت عليها، فخرجت روحها من جسدها تنظر إلى الجميع بغضب عارم.

فُتح باب الساعة، وخرجت الأيادي المتدافعة لتلتقط الروح الهائمة، لكن قبل أن تصل إليها، اخترقت روحها سقف الفندق، وغابت عن الوجود تاركة الجسد على الأرض لتكون عبرة لمن يريد أن يتحالف مع الشيطان في المستقبل.. فمصيره لا محالة إلى الهلاك، وربما تابوت في فندق المقبرة!

كان الفندق في حالة يرثى لها، ويوجد الكثير من الإصابات من حولهم، وأحد المصابين كان الدكتور «سيزار» الذي فقد ذراعه في المعركة، فمن الأولى أن يبدل بها أخرى، أو يحاول الدكتور «دايفيد» إرجاعه إلى وضعه السابق ليتعاونا في تطبيب نزلاء الفندق المصابين.

وفي زاوية الفندق وقف كل من «ماثيو، أريان، فلوريا، ريكي، وصوفيا» مودعين «قرين» ماثيو، موفّين بوعودهم له، (ريكي): انطلق فإنك حر، صمت (القرين) لبرهة ثم أمال رأسه: قبل أن أغادر، شكراً لكم لأنكم خلصتموني من العبودية، ولرد جزء من هذا الجميل.. أنصحكم وبشدة أن تسألوا أمين السجلات الأثيرية عن العمر الجديد لساعة البرزخ، فإن الشياطين تعيش لمئات السنين، ولا بد لروحها أن تكون ذات وقت أطول من روح البشر!

رحل «أريان» في حينه إلى «الشيخ الأبيض» الذي أكد له أن آخر ما تم تدوينه في السجلات، أن «ساعة البرزخ» تحمل للنزلاء ألفاً وأربعة وأربعين برزخاً..

رجع «أريان» بطيفه إلى الفندق ليبشر أهله بالحياة المديدة في برزخهم.. لكنه عندما عاد كان البهو في فوضى عارمة، لأن عين «إزابيل» اليمنى سقطت مجدداً والجميع يهرولون خلف شيطانة فندق المقبرة «هايدي»!

الخاتمة؟!

توقفت عربة الموتي السوداء بجانب بوابة الفندق، فخرج «الحارس» وبيده الفانوس الزيتي، ومد له «سائق العربة» مستندات موافقة البلدية على دفن النبيل الميت في فندق المقبرة، فتح «الحارس» البوابة ليدخل الجموع الغفيرة التي جاءت لوضع تابوت ميتهم في جناح «آل فيرنانديز»، منهم من كانت السعادة ظاهرة على محياه؛ بسبب بغضه الشديد للميت، والقلة القليلة يبكون لمرارة الفقد، لكن في موت «أليكسندر فيرنانديز» راحة عظمى للجميع بلا أدنى شك.

خرج الجميع، وأغلق (الحارس) الباب من خلفهم، ثم رجع إلى جناح «آل فيرنانديز» وحمل التابوت ليضعه على لوح ذي زلاجات، ومنها إلى المصعد، لينفتح بعد أن وصل إلى السطح الذي بني فيه غرفة واحدة فقط، بجانب التماثيل السريالية التي ترعب الناظرين ليلاً.

فتح قفل الباب بالمفتاح، ثم دخل إلى الغرفة التي كانت تحتوي على قضبان حديدية، وأدخل التابوت داخل قضبان الزنزانة مع التثبت من أن الباب أغلق بإحكام، ثم رحل إلى الطابق الثاني، ودخل إلى جناح «دامبيير» للنظر إلى التابوت الذي لُفت السلاسل على محيطه، ثم تحوّلت أنظاره إلى التابوت الذي يليه حيث ترقد «صوفيا»، ومع إغلاق الباب ذي الأعين الراصدة دقت أجراس الساعة.. فتح «أليكسندر» باب تابوته لينظر إلى الظلام من حوله إلا من نافذة صغيرة جدّاً تسلل منها نور القمر، نظر من خلالها إلى التماثيل التي سوف تلازمه في وحدته في كل يوم برزخ يمر عليه أبد الدهر.

(ريكي) «وفلوريا» محتضنة ذراعه بابتسامة خلابة: أهلاً بكَ في فندق المقبرة، أرجو أن تستمتع بإقامتك في سجنكَ الأبدي، (أليكسندر) بغضب عارم: خسئت أنت وعاهرتكَ تلكَ، قريباً الفندق بما فيه سيكون من ممتلكات «لوسيفر».

(ريكي): لوسيفر؟، كيف؟، (أليكسندر): هناكَ ميثاق بيننا، ليس فقط بينه وبين «ميلا» التي دلتني على طريقه قبل أن تقدم على فعل ما فعلت بغبائها وكبريائها، إن كان جيشها هلكَ، فالقادم أكبر مما تظن، فأنا مبعوث أمير الظلام الجديد، وتبدأ رحلتي من بعد موتي، ونصيحتي الأخيرة لكَ: فكَ أسري وسلمني الفندق وساعة البرزخ، وهذا آخر إنذار لكما. قهقه (ريكي) وهو يغلق الباب: افعل ما شئت أنت وسيدكَ، فإننا ها هُنا.. ميتون!

وأثناء حديث «ريكي» و«فلوريا» و«ماثيو» الذين كانوا يتباحثون ما حصل منذ قليل، وقفت «صوفيا» مقابل التابوت الذي كان بجانبها تنظر له بتعجب، لأنه كان يهتز بعنف وكأن ساكنته تحاول أن تخرج بكل ما أوتيت من قوة، رغم أن التي بداخله عجوز غبراء لا تملكَ إلا جلداً على عظام هشة.

هل في حكايتنا نهاية؟!، أم أنها حرب أبدية مع من عاهد الرب ألا يدخل النار وحده، بل سيكون أميراً لهامع أتباعه من شياطين الإنس والجن.

وهذا آخر ما خطه قلم «الحارس» في الكتاب الأخير من كتب العوائل المصفوفة خلف مكتب المدير، كتاب يحمل اسم «فندق المقبرة وأحداث ساعة البرزخ»، أغلق الكتاب ثم وضعه على الرف..

شعر بحركة جانبه، وعندما نظر إلى مصدر الصوت، وجد صديقه الفأر ذا الجعبة في ركن المكتب يتصفح مذكرات رئيسة الراهبات «ماريا دي سيرا» بصمت، وعندما تلاقت الأعين كاد أن يهرب لولا أن رمى له الآخر قطعة جبن كعربون صداقة، أخذها ثم وضعها في جعبته وهمّ إلى المغامرة التي تنتظره.

مسك «الحارس» بيده قارورة الخمر المعتق الذي لم يجد مكان تخزينه بعد، تجرع إلى أن فاض من فمه ونزلت القطرات على نحره، وقبل أن يغادر نظر إلى المرآة المعلقة على الحائط، وأبعد خصلة متأرجحة على عينه.. المطموسة!

زخرفها بحبر الألم

الراوي/رقم ٢، أريان بوربون

في حياتنا الواقعية لا توجد نهايات إلا عند بلوغ الأجل، فكل يوم نعيشه، عبارة عن قصة مكملة لحياتنا، وأحياناً قصة جديدة تبدأ بسعادة وتنتهي بـــــ.....

المؤلف

تم بحمد الله

مكتبة إيلينا
Elena book
https://t.me/osn_osn